كتابي

١٠ قروش



شجي وادع !.. "مس اليانور اير كهارت"
للرسام السير هنرى رايبيرن (١٧٩٥)

حلمي مراد

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

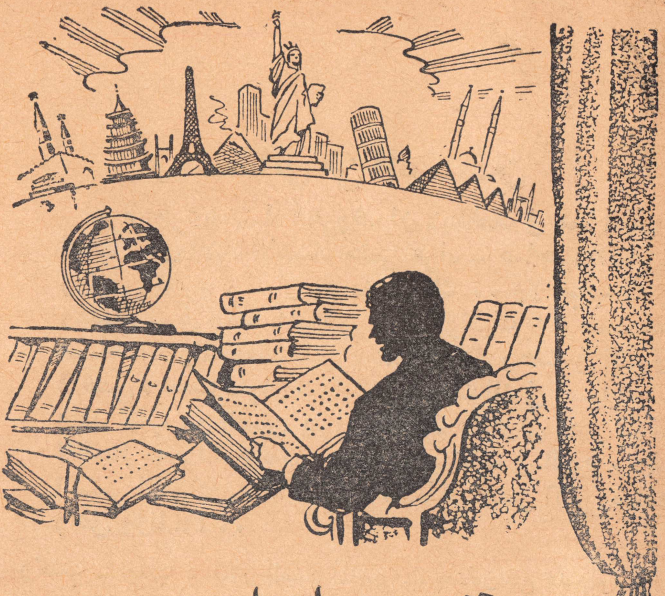
مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب التاسع والستون (السنة الخامسة) ديسمبر ١٩٥٧

الاشتراكات ومجموعة الأعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مطابع الناشر العربى
٨ شارع الصحافة ـ القـاهرة

محتويات العدد



قراءات
ومشاهدات



رسائل من الصين

مرة أخرى، تشاء الظروف ان لايطالعك فى هذا المكان ، الباب الذى اعتاد الأستاذ حلمى مراد ــ صاحب «كتابى» ورئيس تحريره ــ أن يقدمه اليك .. ولا الباب الذى وعدناك ــ فى العدد الماضى ــ أن يوافيك به ، مسجلا مشاهداته والمعلومات التى يجمعها خلال رحلته فى الشرق الأقصى ، تحت عنوان « رأيت وسمعت لك فى آسيا » .. ولقد كتب من الصين يقول : « منذ مغادرتى مصر ، وأنا لا أحظى من النوم بأكثر من اربع ساعات فى اليوم . ولو استمر الأمر على هذا المنوال، لعدنا الى مصر أكثر رشاقة وأقل وزنا » ! ..

وكتب ــ عقب صدور العدد الماضى ــ يعتذر عن عدم وصول مادة منه للكتاب ، فقال : « عذرى ان القوم هنا يضيقون علينا الخناق ببرامجهم التى لا تدع لنا وقتا «نهرش» فيه رؤوسنا ، على حد المثل المعروف .. ولعل هذه الحركة المستمرة قد خدرت اعصابى الى حد كبير ، فجعلتنى أغفل عن سرعة تتابع الأيام ، وبعد الشقة بينى وبين مصر .. وكلما هممت بالكتابة ، أقبل من ينبهنى الى أن أعضاء الوفد جميعا فى السيارات ، ينتظروننى لكى نذهب الى هذا المكان أو ذاك ، فاضطر الى ارجاء الأمر .. ولكنى لا أعود الا وأمامى بضع دقائق فقط ، كى أغسل وجهى واواصل البرنامج الحافل الذى اعدوه لنا .. وهكذا ! . ولعل ما يعزينا أننا نكاد ننسى أننا فى خارج مصر ــ رغم الاختلاف الشاسع فى كل شىء ــ لفرط حب هذا الشعب لنا ، وطيبة قلوب ابنائه ، ونبل اخلاقهم « ونظافته » الخارقة للمعقول !

وفى لمسات سريعة من قلمه ، حاول الأستاذ حلمى أن يرسم لنا بعض خطوط فى لوحة الصين ، فقال :

« ولكم أعجبت بنظافة أهل الصين ومدن الصين أيضا .. النظافة المادية ، لا المعنوية فقط . فلقد كنت أحسب أننى قادم الى بلاد غارقة فى الجهل والقذارة والتأخر ، متخلفة عن ركب المدنية .. فاذا أنا أجدها بلادا متقدمة جدا فى أكثر النواحى: فى النظام ، والأخلاق ، والنظافة ، والوطنية ، وحب العمل ، والتواضع ، وجمال الطبيعة .. لاينقصها سوى شىء واحد : اللهو والترف !

« ومنذ دخلت الصين ، نسيت ان هناك حشرة اسمها الذبابة ، اذ لم يقع بصرى على واحدة حتى الآن ! .. ويلبس الجميع ملابس نظيفة للغاية ، وان كانت غاية فى البساطة والبعد عن الترف ، سترة ترتفع حتى الرقبة ، وبنطلونا اسود ـ للرجال والنساء على حد سواء ـ واحذية بدون كعوب للسيدات

« وتقدم البلاد الصناعى يفوق كل ما يخطر بالبال .. كما أن صبر الشعب ، وطول باله ، وهدوءه ، تستحق الاعجاب .. فلا وجود هنا لا « خناق » أو الشراسة ، أو .. أو .. »

* * *

هذه هى الخطوط السريعة .. أو اللمسات . ترى كيف تكون اللوحة الحقيقية ، اذا ما تفرغ اليها الرسام ـ اعنى الكاتب ـ واوضح خطوطه ، واكمل بقية المناظر ؟ !

لقد ظللنا نرتقب الرسالة التى يبدأ بها الأستاذ حلمى مراد بابه الجديد : « رأيت وسمعت لك فى آسيا » ، ولكن آلات الطباعة دارت ، وأخرجت معظم صفحات هذا العدد من « كتابى » ، ولما تصل هذه الرسالة .. فلنترقبها فى العدد القادم ، ان شاء الله ، و .. للغائب اعذاره ، على كل حال !

الفقر .. والغنى !

والآن .. ما رأيك فى أن نبدأ جولتنا بمسرحية مصرية قصيرة ، فقد انقضى زمن طويل دون أن «نقرأ» مسرحية مصرية .. ان المنظر يجرى على احد الجسور «الكبارى» المقامة على النيل ، فى ساعة متأخرة من الليل .. وترفع الستار عن شاب رث الثياب ، يقف مترددا ، لا يكف عن ان ينقل بصره بين صفحة النهر ، والضوء الواهن المنبعث من مصباح قريب ، والظلال المتباينة الكثافة . وفجأة ، يهم بأن يعلو سياج الجسر ، ليلقى بنفسه الى الماء .. وفى اللحظة عينها ، يهرع نحوه رجل بدين ، أنيق ، فى اوسط مراحل العمر

الرجل (فى لهجة آمرة) : قف ! .. ماذا تصنع ؟ **(يكون قد بلغ الشاب فيمسك به)** لقد كنت أشاهدك عن كثب . ألا تعرف ان الانتحار جريمة ، يعاقب عليها القانون ؟

الشاب : القانون ؟ ! .. اننى حر فى نفسى .

الرجل : لا ، بل أنت ملك للدولة !

الشاب : الدولة ؟ .. لماذا لاتفطن الدولة الى هذه الملكية الا حين أنشد الخلاص من تغافلها عنى ؟ .. لماذا لا تسأل الدولة عنى الا عندما تريد القصاص ، ولا تشعر بوجودى وأنا أشقى فى الحياة ؟

الرجل : ولماذا تشقى ؟

الشاب : لأننى لا املك مالا !

الرجل : وهل المال هو كل شىء ؟

الشاب : هكذا هو فى دنيانا ، اذا كنت ــ كما ارى من مظهرك الذى يشى بالثراء ــ لا تدرى .. لقد خبرت هذا بنفسى .. حاولت أن أبدأ عملا حرا ، فاذا المال يقف عثرة فى طريقى ..

وحاولت أن أبحث عن عمل، فاذا الأبواب جميعا تغلق فى وجهى، لأنها لا تفتح الا بالمـال !

الرجل : ان خبرتك ناقصة ، فلقد خبرت المال – من ناحيتى – فلم أجده كل شىء فى دنيانا !

الشاب : انه ذو حدين .. فهو سر المتاعب واليأس للفقير.. ومفتاح الهناء والسعادة للغنى

الرجل : اما انه سر المتاعب واليأس ، فهذا ما أقرك عليه . وأما انه مفتاح الهناء والسعادة ، فهذا ما أخالفك فيه ..

الشاب (فى ضيق) : دعنى وحالى يا سيدى ، فلست فى حاجة الى فلسفة !

الرجل : ما هذه بفلسفة .. انما انا اكبر منك سنا ، واكثر تجربة . ثم اننى .. غنى ..وقد كنت يوما فقيرا ، فأنا ادرى منك بالحالين . وقد هدتنى تجاربى الى ان الفقير قد يكون أسعد من الغنى !

الشاب : هكذا يزعم كل غنى .. أما لأنه يخجل اذ يرى امامه من يحتاج الى كل مليم من الأموال التى يبعثرها وفق هواه .. واما لانه يخشى نقمة الفقير !

الرجل : لست هذا ولا ذاك .. انما أبصرك بالحقائق ، لأننى أود أن أساعدك !

الشاب (ملوحا بيده فى قنوط) : تساعدنى ؟ ! .. هه ! .. ما كان الكلام أو الفلسفة بأداة للمساعدة يوما

الرجل : سأساعدك بالمـال

الشاب : لا تخدعنى ! .. اذا ظننت انها حيلة لصدى عن الانتحـار فقد اخطأت .. منـذ متى يعنى الغنى بمسـاعدة الفقير ؟ !

الرجل : ألم أقل لك اننى كنت فقيرا .. يوما ؟

الشاب : وكم من غنى تنـكر لفقره الماضى ونسيه .. انك

تغالط نفسك يا سيدى .. كيف يتذكر المرفه ، المنعم ، أياما بغيضة الى نفسه ؟

الرجل : اسمع يابني .. انني أعرف غنيا لم يكفل له غناه الهناءة الزوجية ، اذ أن الغنية التى اختارها زوجة ، لم تلبث ان خانته .. وكانت صدمة قاسية ، اذ انه ارتطم بصخرة الواقع الصلدة ، فراحت الحسرة تفرى فؤاده ، وركبه الهم والأسى .. عبثا راح ينشد السلوى والنسيان (**يتنهد فى حزن بالغ**) وفكر فى ان يتخذ زوجة ثانية ، تكون خيرا من الأولى ، فاذا به يشغل عن ذلك بمرض مستعصى ، طاف من اجله بكثير من بلدان العالم ، وعرض نفسه على أشهر اساطين الطب ، فى كل مكان ، دون أن يفلح فى التخلص من الداء اللعين ! .. واستبد به القلق والخوف .. وتهدمت أعصابه .. ودب اليه اليأس ، فلم يجد بدا من الانتحار .. أفرأيت اذن ان المال قد لايكون ذا قيمة لدى الغنى ؟

الشاب (فى سخرية) : اننى انضج عقلا مما ظننت ، فما هذه الا قصة كتلك القصص التى اعتادوا ان ينشروها فى كتب المطالعة بالمدارس

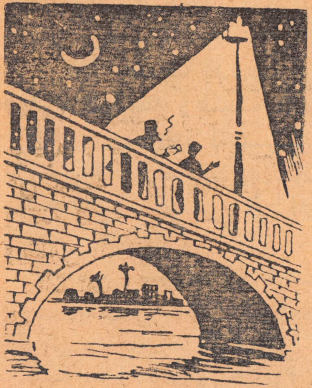
الرجل (بعد تفكير) : أرى أنك لن تقتنع الا اذا جربت . كم يكفيك لتبدأ حياة جديدة ؟ .. خمسون جنيها (يشهق الشاب مأخوذا) .. مائة ؟

الشاب (مغيظا) : يا سيدى دعنى وحالى ، فليس ينقصنى مزاحك !

الرجل (يخرج حافظة نقود متخمة ، فيتناول منها بعض الأوراق المالية ويقدمها الى الشاب) : لست اهزأ يا فتى .. هاك !

الشاب (ملوحا بيده) : أرجوك يا سيدى .. دعنى وحالى!

الرجل : أقسم اننى جاد .. خذ .. بل خذ .. كل ما فى الحافظة من نقود !



الشاب (مبهوتا) : ياسيدى! .. ولكن ، بأى حق ؟

الرجل : انه مالى .. وانا حر التصرف فيه

الشاب (حائرا ، مترددا) : ولكن .. كيف استبيح .. ؟

الرجل : اعتبره قرضا ترده لى حين تتحسن احوالك

الشاب (يتردد ، ثم يتناول الاوراق ويهم بوضعها فى جيبه، ولكنه يتوقف) : ولكنك لاتعرفنى فكيف تأتمننى ؟

الرجل : هناك أوقات ، يشعر فيها المرء بميل الى ان يثق فى شخص غريب ، قد لا يكون رآه فى حياته من قبل !

الشاب : اولا تأخذ صكا بالدين ؟

الرجل : ألم أقل اننى أأتمنك ؟ .. وهبك استحللت المبلغ، انه ليس اكثر من قطرة فى ثروتى !

الشاب : لكنى لا أقبل احسانا ، ولا أخون ثقة .. سأرده اليك !

الرجل : فليكن .. بعد ان تتحسن احوالك

الشاب : ولكنى لم أعرفك بعد .. اسمك وعنوانك ، على الأقل !

(يخرج الرجل بطاقة ، فيخط عليها كلمات سريعة ، ويدفعها الى الشاب)

الرجل : هاك بطاقتى ، على ان لا تقرأ ما كتبت ، الا بعد أن تأوى الى دارك .. هيا ! سأظل واقفا حتى تغيب عن بصرى ، لأطمئن الى انك لن تعاود الحماقة التى كنت مقدما عليها ..

هات يدك وصافحنى يا بنى ، ودعنى اتمنى لك فوق ما احرزت أنا من توفيق !

(يجر الشاب قدميه مبتعدا ، وهو يتحسس جيبه ، ويفرك عينيه ويلتفت خلفه من آن لآخر ، فيرى الرجل يرقبه . ويتجاوز الجسر ، فتلتوى الطريق ، ويغيب الرجل عن عينيه . واذ ذاك يقف الشاب مترددا .. ثم يبدو كمن واتته فكرة ، فيسرع الى اقرب مصباح من مصابيح الطريق ، ويتأمل البطاقة)

الشاب (لنفسه) : ما هـذا ؟ .. ماذا ؟ (يقرأ :) انا هو الغنى الذى عجز ماله عن شفاء قلبه وجسمه ونفسه .. لاحاجة بك الى رد المال ، فسأنتحر !

الشاب (هاتفا فى جزع) : يا الهى !

ويهرع عائدا من حيث اتى ، فلا يرى أثرا للغنى .. ويبلغ البقعة التى كانا يقفان فيها ، فيلتفت يمنة ويسرة ، ثم يطل على النهر .. وعلى الضوء الواهن المتسلل من مصباح الطريق ، يرى طربوش الرجل يطفو على وجه الماء ، وسط عدد من الدوائر المتتابعة ، المضطربة !

كيف تستمع بالحياة ؟

ولقد ذكرنى حديث المال والسعادة ، باستفتاء اجرى فى انجلترا فى سنة ١٩٥٤ . فقد أقدم الصحفى « ريتشار توليير » على سؤال اربعين شخصا ، ممن يوصفون بانهم موفقون فى الحياة ، فاذا بهم يجمعون على ان الناس خرجوا من الحرب العالمية ، وهم « على قيد الوجود » وليسوا « احياء » .. ذلك لأن العبرة فى السعادة ليست بالمال ، ولا بنوع العمل ، ولا بطول العمر ، وانما هى .. بأن تستمتع بالحياة استمتاعا كاملا ، يبعث على الرضى

.. فتعال نقرأ بعض صفحات من الكتاب الذى ضم هذه الآراء ، تحت اسم ((كيف تستمتع بالحياة)) :

البذل والعطاء .. سر السعادة

• **كان** ((أ . مايتوس)) - رجل المسرح العريق ، ومدير أوبرا (مانشيستر) - هو أول من سألته عن النصيحة التى تكفل السعادة ، فقال : ((لا يستهوينى فى الحياة ، سوى شىء واحد .. هو العطاء والبذل دائما ! لقد جمعت ثروة أقرب الى ثلاثة ارباع المليون ، منها الى نصف المليون ، من الجنيهات ، ولكنى لا امتلك منها الآن الا قدرا ضئيلا . فقد اعتدت ان اتخلص منها بأسرع ما يسعنى ! .. اننى لن استطيع أن احملها معى اذا مت ، لذلك فقد كان من اعظم أسباب سعادتى ، أن أتيح لشاب او اثنين بداية طيبة فى الحياة ، بفضل ما جمعت .. وما لم تقم كل فلسفتك فى الحياة على البذل ، فلن تعرف السعادة الحقة !))

اعرف نفسك واستغل امكانياتك

• **وقال** الطبيب النفسى الدكتور كليفورد آلين ، مستشار وزارة المعاشات : ((ان لدينا جميعا مقدرات هائلة فى اعماقنا .. القدرة على الغناء ، والقدرة على الرسم ، والقدرة على اسعاد الغير . ولكن معظمنا لا يعدو ان يكون آلة بديعة التركيب ، تركت تحت المطر لتصدأ ! .. لقد خلقنا - رجالا ونساء - مزودين بعضلات لكى نستخدمها ، ومع ذلك ، فكم منا يقضون اوقات فراغهم بأسرها فى خمول ؟ .. ولقد منحنا عقولا لنستغلها ، ومع ذلك ، فما مقدار الوقت الذى ننفقه فى التفكير الجاد الصادق ، فى الأمور ؟ .. ان السعيد هو الذى يعيش حياته كلها ، الى اقصى مدى يستطيع .. ولكن قليلين منا هم الذين يفطنون الى امكانياتنا ، ومن ثم نجد ان هذه النسبة

الضئيلة ، هى التى يحق لأصحابها ان يسموا : احياء ! »

ويضيف الطبيب النفسى الى ذلك ، أن الامراض الأربعة التى ترهق أبناء القرن العشرين ، هى : الشعور بالذنب ، والملل ، والخوف ، وخداع النفس ! .. ومن أسباب الخوف الذى يخيم على حياتنا ، اننا نادرا ما نضع المال فى الدرجة الملائمة له من الاعتبار .

ثم يستطرد قائلا : « ان من أكبر اخطائنا أننا لانعرف انفسنا حق المعرفة قط . وهذا أمر بالغ الخطورة . قد يكون من المؤلم أن نواجه الحقيقة .. كأن يعترف المرء بأنه جبان ، أو منافق .. ولكن ، فكر فيما تفيده من الاعتراف بالعيوب ، فى سبيل علاجها .. لسوف تجد عدد أصدقائك يزداد وسعادتك الزوجية تتضاعف ، اذا انت عرفت أخطاءك وعيوبك واتخذت الخطوات لعلاجها ! »

الاعتماد على النفس مفتاح النجاح

• **اما** « ارثر ستريت » المزارع الذى غدا من اشهر كتاب ومؤلفى ومذيعى انجلترا ، فيقول « لماذا تحجم ؟ .. ان بوسعك ان تعالج اى عيب او نقص ، بشىء بسيط ، هو : الاعتماد على النفس » .

ولقد بلغ « ستريت » السادسة والستين من عمره ، ولكن حياته تعرضت لانقلاب عجيب ، بعد الأربعين .. اذ كان قد قضى عمره متوفرا على الزراعة واستغلال أراضيه ، الى ان وجد نفسه – فى أصيل يوم مطير – تواقا الى ان يكتب ، فأطاع هذه الرغبة ، وكتب مقالا طويلا عن مشكلات المزارع . وما ان اطلعت زوجته على المقال ، حتى اوحت اليه بأن يرسله الى احدى الصحف .. وشد ما كانت دهشتهما عندما نشر المقال ! .. وأصبح « ستريت » يضع فى كل عام كتابا جديدا ، فضلا عن المقالات الصحفية والاحاديث الاذاعية

ويقول ستريت : « انني مثال لكل من يجد نفسه فى غير وضعه الملائم فى الحياة . لقد بدأت بأن اقبلت على تدوين الآراء التى أشعر بأنها جديرة بالاعتناق ، لا الآراء التى اعتنقها فعلا . ولكن هذا ليس كل شيء ، لأننا نخاف عادة ان نتخذ خطوة نحو ما نرى ان من الجدير بنا أن نكونه ! .. ولعل مصدر الخير لى — فى رأيى — هو اننى ظللت مزارعا ، بعد ان نجحت ككاتب .. فالزراعة هى العمل الذى ألفته وعرفته وأصبح بوسعى ان اعتمد عليه فى اى وقت .. كما ان دأب المزارع وصراحته وجرأته ، هى خير ما يعوز المرء للنجاح ! »

اسعد الناس .. هو الفلاح !

• وحملت هذا القول الى الطبيب النفسى ، الدكتور كليفورد آلين ، أتعرف رأيه فيه ، فقال : ان الفلاح الذى يعمل فى الزراعة ، والذى لم يقدر له قط ان يبرح قريته ، قد يكون اسعد الناس . فمن الواضح انه يحيى حياة كاملة ، من الناحية البدنية والطبيعية .. وهذا اولا ، اما ثانيا ، فهو ان عقله يعمل دائما ، بكل قوته ، اذ يرقب ادق الظواهر التى تلم بأرضه وبذوره ونباتاته .. أى انه يستخدم جسمه وعقله بأقصى ما فيهما من طاقة . وهذا هو سر سعادته » !

عشرة مفاتيح للسعادة والنجاح

• ومن اقوال الاربعين الذين اشتركوا فى الاستفتاء ، يسهل ان نلخص مفاتيح السعادة فى :

١ — تقبل حدودك وارض بها

٢ — استفد من حياتك أكمل افادة ، بأن تعمل بكل طاقتك البدنية والعقلية . وتذكر ان السعيد هو الذى ينصرف بكل نفسه ، الى كل شيء يتولاه

٣ ـ أقبل على التعلم برغبة وميل .. الى نهاية العمر

٤ ـ بكر بالزواج السعيد ما استطعت ، وانشىء لنفسك اسرة . وتذكر ان الزواج السعيد هو الغاية الخلاقة والمبدعة والمنتجة ، التى يسهل على كل امرىء ان يبلغها

٥ ـ لا تقبل أوهاما وافكارا مغررة .. لا عن نفسك ، ولا عن سواك

٦ ـ اختر لنفسك مهنة تستطيع ان ترضى عنها ، وتنصرف اليها بكل قواك ومقدراتك ، دون ان تشعر بأن الحياة قد خدعتك او خيبت آمالك . وافعل كل ما يروق لك ان تفعله

٧ ـ تجنب الأسرار .. سواء من الاصدقاء ، او من الاسرة

٨ ـ لا تحتجب عن الناس ، ولا تعتزلهم . فمن اعظم موارد السعادة ان تجد هواية مثمرة تستطيع ان تمارسها مع اصدقاء لك

٩ ـ لاتستنكف ان تدفع فى مقابل كل شىء تحصل عليه

١٠ ـ لا تزعج نفسك بالفلسفات . وآمن بأن ما ينفع الغير خير ، وما يضرهم شر . واحرص على ان لا تفعل سوى الخير ، وان تتجنب الشر

الى الكواكب ، على أجنحة الكتب !

ولقد قدم ((كتابى)) فى عدديه السابقين قصتين علميتين ، احداهما ((العقل يكفى ـ فى العدد ٦٧ ـ والثانية قصة هـ . ج . ويلز التى تنبأ فيها بوصول الانسان الى القمر ، فى العدد ٦٨ ـ والواقع ان القصص الخيالى العلمى بدأ يطغى على مختلف الوان القصة الاخرى ، فى البلاد الغربية . فهو ((محاولات لتمكين الخيال من ارتياد

ميدان العلم ، على اسس من الحقائق والنظريات القائمة فعلا)) . فهو بهذا ليس خيالا خرافيا ، وانما هو خيال فيه الكثير من الحقيقة . وهذا بحث طريف،استخلصناه لك من عدة مصادر ، اهمها مقال عنوانه ((الى الكواكب على اجنحة الكتب)) نشرته صحيفة ((ايفريبوديز)) ، للكاتب ((بيتر هوبال)) :

تتخذ القصص الخيالية العلمية اشكالا شتى ، ولكن كتابها عامة يعنون بالمستقبل ــ وما قد يجد فيـــه من ثمار العلم وتطورات الحياة والكواكب البعيدة ، والنجوم . ولقد اصبح غزو الفضاء حقيقة مفروغا منها فى هذا اللون من القصص

ولقد ظهر القصص الخيالى العلمى الحـديث ، فى امريكا . ولكن المعروف أن كل الوان الأدب ليست سوى نتاج نبت تدريجا، مستمدا بذوره من اصول الأدب ، ولكنها لاتؤتى ثمارها الا عندما تتوفر لها ظروف مواتية . ومن ثم نجد ان الاساطير ، والخرافات، والقصص المغرقة فى الخيال ، وقصص الذعر والمغامرة .. كل هذه ساهمت فى ظهور هذا اللون الجديد . ولكى نتبين النبتة الأولى فى حقل القصص الخيالى العلمى ــ التى ادت الى الفيض الحديث منه ــ نجدنا مضطرين الى الرجوع الى القرن الثامن عشر .. بل القرن السابع عشر

ذلك لأن ظهور ((رحلات جليفر)) ــ فى سنة ١٧٢٦ ــ يعتبر بداية مناسبة . فقد كتب ((جوناثان سويفت)) هذه السلسلة ليعبر بها ــ فى صورة رمزية ــ عما كان يراه من اوجه النقد للحياة التى كانت قائمة اذ ذاك . وقد شاء ((سـويفت)) أن يجعل سفينة ((جليفر)) تتهشم فى بقاع غير معروفة من العالم ، فأدى به هذا الى أن يصف حضارات وهمية ، من نسج الخيال .. **ولقد ذكر ((سـويفت)) فى ((الرحلة الى لابوتا)) ، كيف قـدر لجليفر ان يصل الى جزيرة صخرية ، وفيما كان يتمشى على**

شاطئها ، اذا بالشمس تحتجب ، واذا به يرى فى الفضاء « جسما هائلا ، معتما » ، لم يلبث ان تبين « لجليفر » ان له قاعا مستويا ، ناعما شديد البريق . تلك كانت (لابوتا) ، الجزيرة الطائرة العائمة»!..



ألا ترى فى ذلك ان « سويفت » سبق العلماء بحوالى قرنين من الزمن ، الى فكرة الطائرة المائية البرية .. او الى الأطباق الطائرة !

★★★

ولقد امتاز القرنان السابع عشر، والثامن عشر، بالاختراع والابحاث والنظريات العلمية . فاخترع « جاليليو » المنظار المقرب ، وابتكر « نيوتن » نظرية الجاذبية الأرضية . . كان ذلك

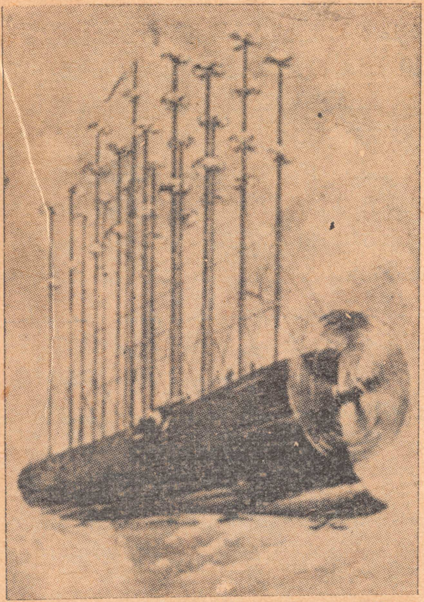
المدفع الذى تصوره « جول فيرن » فى سنة ١٨٦٧ ، لاطلاق قذيفة الى القمر

عصر توسيع آفاق المعرفة الانسانية ، على الأرض وفى الفضاء ، كما كان بداية النظرة المتفائلة .. بداية التطلع الى اطلاق قوى العلم من عقالها ، لكى يستغلها الانسان فى خدمة غاياته .. فظهرت كثير من الكتب عن اقطار غريبة ، ورحلات عجيبة ، وعن ارتياد الفضاء ، والوصول الى القمر . على ان الخيال العلمى اذ ذاك كان لايزال فجا ، أكثر تأثرا بالأساطير والخرافات ، منه الى القواعد العلمية والحقائق التى أثبتها العلماء . ولم يتسن اتخاذ هذه القواعد والحقائق أساسا للقصص الخيالى العلمى ، قبل القرن التاسع عشر

وكانت أعظم مساهمة فى هذا القصص ، هى القصة التى وضعها الكاتب الفرنسى « جول فيرن » بعنوان « من الارض الى القمر » — فى سنة ١٧٦٥ — وزميلتها « رحلة حول القمر » ، التى ظهرت بعدها بعامين

وكانت امريكا هى مسرح القصة ، وقد اختيرت الفترة التى اعقبت حرب الاستقلال الأمريكية ، زمنا لها .. وتمثلت وقائعها فى أن أعضاء « نادى المدفع » — وكلهم من ضباط المدفعية السابقين — سئموا حياة الهدوء والركود ، بعد الحرب ، فاقترح عليهم رئيسهم « ايمبى باربيكان » ان يصنعوا مدفعا له من القوة ما يمكنه من اطلاق قذيفة الى القمر ! .. وقوبلت هذه الفكرة بتحمس واقدام .

ولقد كانت القصص التى تدور حول الرحيل الى القمر — قبل ذلك — خيالية بحتة ، فلم يعن مؤلفوها بأن يوضحوا وسيلة وصول أبطالهم الى غايتهم . ولكن « جول فيرن » حاول ان يقرب قصته الى الواقع ، من الناحية العلمية ، واستشار بعض العلماء فيما توسل به الى هذا الهدف من أفكار . اذجعل طول انبوبة المدفع ٩٠٠ قدم ، وجعله دفينا فى الأرض ، فلا تبدو سوى فوهته على سطحها . وكانت القذيفة مصنوعة من « الألومنيوم » — **الذى كان فى ذلك الحين من المواد الغالية الثمن**



هذه الطائرة تصورها «جول فيرن» فى قصة «قارضـــات السحاب» .. ألا تراها شبيهة بالهليكوبتر ؟

ـ كما تالفت القوة الدافعة لها من أربعمائة الف رطل من البارود . وفى هذه القذيفة ، وضع «جول فيرن» ابطاله الثلاثة ليطوفوا حول القمر ، ثم يعودوا الى الأرض ، فيهبطوا فى المحيط الهادى!

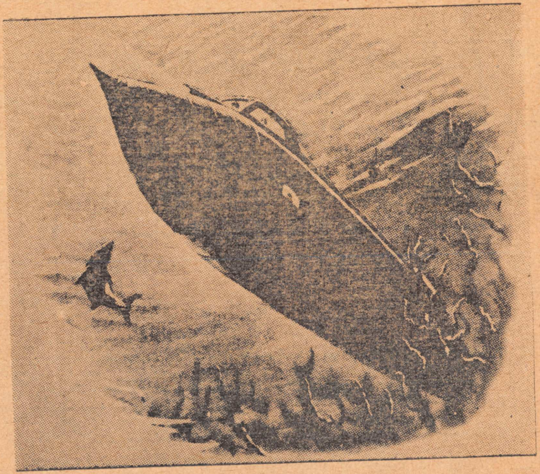
* * *

وفى سنة ١٨٧٧ ، اعلن الفلكى الايطالى « شياباريللى » ، انه استطاع أن يرى على سطح كوكب « المريخ » قنوات . فأثار ذلك جدلا وتكهنات حول ما اذا كان هذا الكوكب مأهولا ، وما اذا كان اهله قد أوتوا عقولا مفكرة ، تستطيع ان تكتسب معرفة تهديهم الى حفر القنوات . وقد مال الروائى الانجليزى « هـ. ج . ويلز » الى الأخذ بهذا الرأى ، فى كتابه «حرب العالمين» ،

الذى اصدره فى سنة ١٨٩٨ . فتصور ان المريخ عالم أقدم عمرا من الأرض ، وابعد من الأرض عن الشمس بحوالى ٥٠ مليونا من الأميال . **وذهب الى ان قدم عهد اهل المريخ بالحياة ، يجعلهم اكثر معرفة وعقلا من اهل الأرض .. ومن ثم فان ذكاءهم لم يلبث ان هداهم الى غزو العالم الأرضى . ولكنهم لم يلبثوا ان هزموا بالرغم من تفوقهم فى آلات القتال ، وفى استخدام الاشعاعات المحرقة .. وكانت « البكتيريا » والأمراض التى تترتب عليها هى سبب هزيمتهم ، اذ تفشت بينهم !**

وهكذا كان « ويلز » يستند فى وقائع قصته الى العلم ، وكذلك فعل فى قصصه الأخرى . وعلى يديه ، قدر للقصص الخيالى العلمى ان يصبح فنا ذا طابع خاص . ذلك لأن « ويلز » اقبل على دراسة امكانيات العلم ، والاحتمالات المترتبة عليها ، ببعد نظر عجيب . ولقد اطلق خياله الى الفضاء ، وراح يحوم ، كجول فيرن ، فى رحلات الى الكواكب . ففى قصته « انسان فى القمر » – التى قدمها لك « كتابى » فى عدده الماضى – فكر فى وسيلة معقولة ، على اسس علمية ، لبلوغ القمر ، فهداه خياله الى الكرة المصنوعة من مادة لا تتأثر بالجاذبية .

وبقدر ما كان تطور القصص الخيالى العلمى بطيئا – فى بدايته – فانه راح يقفز بخطوات واسعة خلال ثلاثين عاما من القلق والاضطرابات والقلاقل .. وهى فترة الحربين العالميتين ، التى تعتبر بداية عصر الاختراع المرعب ، والقسوة الجامحة . فلقد أقبل العلماء – فى هذه الفترة – على تحويل خيال كتاب القرن التاسع عشر واحلامهم ، الى احتمالات عملية . واذا المحركات النفاثة تحدث انقلابا فى تصميم الطائرات ، حتى ان الصور الخيالية لسفن الفضاء المنتظرة فى المستقبل ، لم تعد تبدو غريبة ، أو بعيدة عن التصديق . كما ان الطاقة الذرية ، حققت احلام الكتاب القدامى فى الوقود الذى لا ينفد ، لادارة محركات تلك السفن .



تصور « جون فيرن » الغواصة بهذا الشكل قبل اختراعها بقرن من الزمان

والواقع ان سعار الحرب هو الذى عجل بانتاج هذه المخترعات . ولكن هذا لم يحل دون ان يعنى العلماء باختراعات أخرى كالتليفزيون والعين السحرية والعقل الاليكترونى . على ان كتاب القصص الخيالى العلمى ، كانوا أسبق من العلماء الى هذه المخترعات . فمنذ سنة ١٩٢٠ توالت كتبهم عن المستقبل

وجاء دور الرواية الأولى فى سنة ١٩٣٢ ، حين نشر « ألدوس هكسلى » كتابه : **« عالم طريف »** . انتقد فيها ــ بسخرية لاذعة ــ العالم كما تصوره فى سنة ٦٠٠ ب . ف ، أى « بعد فورد » ! فقد جعل « فورد » رمزا لبداية عصر جديد علمى ، وتصور ان الاطفال يولدون ــ فى سنة ٦٠٠ من هذا العصر ــ

فى أنابيب ، فيظهرون فى الدنيا وهم مهيأون للاوضاع والمراكز التى يشغلونها فى المستقبل .. وتصور ان الفقر والمرض سيمحيان ، وان كل انسان سيكون سعيدا ، سليم الصحة ، راضيا .. حتى الموت يغدو اذ ذاك سارا ، اذ يتم فى قاعات واسعة ، حافلة بالزهور ، وفى مؤخرة كل سرير ستار للتليفزيون !

.. وعندما قدر لمخلوق همجى ، من السلالة المتأخرة — التى هى سلالة عصرنا الحالى — ان يتكون فى أحشاء امرأة ، وليس فى انبوبة ، وأن يعلم نفسه بعد مولده وكبره ، على ماعثر عليه من مؤلفات « شكسبير » .. لم يستطع ان يطيق الحياة ، فانتحر !

وكان الروائى الثانى هو « جورج أورويل » ، الذى أصدر منذ سبع سنوات ، قصة بعنوان **« سنة ١٩٨٤ »** ، كانت صورة مفزعة لدنيا علمية استبدادية ، بناها على ما توقعه من تطورات القوى الراهنة . وقد أذيعت هذه القصة بالتليفزيون منذ ثلاث سنوات ، فأثارت موجة من الذعر فى انجلترا .

أما الفيلسوف الذى كتب عن المستقبل ، فهو « اولاف ستابلدون » ، الذى نشر كتاب : **« اول البشر وآخرهم »** ، فى سنة ١٩٣٠ . وكان كتابه نموذجا للقصص العلمى الحق — الذى يعنى بالأفكار والآراء ، وليس بالأشخاص — ولكنه كان من الناحية الادبية الفنية ضعيفا . وقد تصور الكاتب فيه ان آخر البشر قدر لهم ان يعيشوا — بعد عصرنا بألفى مليون سنة — فى كوكب « نبتون » ، بعد أن هاجرت سلالة منهم اليه . واستطاع واحد منهم ان يتحدث ، خلال الزمن ، الى شخص ممن كانوا يعيشون فى عصرنا هذا

كل هذه الجهود المركزة ، ساعدت على ظهور القصص الخيالى العلمى الحديث ، الذى بدأ يسود أسواق الأدب فى الغرب ، ويتجاوزها الى بقية الأسواق الأدبية فى العالم . فقد انطلق انتاج هذا القصص زاخرا وافرا . **وهو يعتبر مظهرا للحالة**

النفسية فى العالم ، التى تدعو أهله الى أن ينشدوا مهربا من الواقع ، فيلجأوا الى المستقبل الموهوم .على انه في الوقت ذاته، يعتبر أداة لنقد الأوضاع الحاضرة ، والسخرية من النظم الاجتماعية غير السليمة .

ومع ذلك ، فان هذا اللون من القصص لا يزال ناشئا رغم عنفوانه وقوته،ولو انه وجد عقولا وأقلاما ذكية ترعاه ،لاستكمل السيادة التامة على بقية ألوان القصة .. بل وعلى كثير من فروع الأدب !

رافاييلا ... فتاة المرسم !

وبعد ان تحدثنا طويلا عن القصص العلمى الذى يكتبه أدباء ، تعال بنا الى قصة أدبية طريفة ، كتبها عالم .. واقصد بها قصة «رافاييلا» التى كتبها الدكتور «اكسل مونتى» .. والمؤلف طبيب « لا تمت حياته الا للواقع ، ولا تتيح له هدوءا لكي يستغرق فى الخيال » على حد تعبيره .. واذا كان قد اخذ قصة « رافاييلا » عن الواقع ، فانه قد سما بها الى ما يفوق القصص المأخوذة عن الخيال .. بل أثبت بها أن الواقع يفوق الخيال !

كانت الصورة من أفضل الصور فى قاعة العرض بأسرها ، وكان اسم الرسام الشاب على شفتى كل انسان .. ودائما كانت الصورة محوطة بجمع من المعجبين المفتونين بجمالها . فقد كانت الفتاة ترقد فيها على أريكة أرجوانية ، وقد أحاط بها حسنها كأنه وهج من شمس ربيع الحياة ، ولقد انتهى الناقدون الفنيون ذوو الخبرة ، الى أن سنها كانت لا تعدو السادسة عشرة . فقد بقيت فضلة من بهاء الطفولة عالقة بأطرافها الملتفة المتناسقة .. وكأنما كان ثمة قناع من البراءة يحميها !

ترى من كانت هذه العذراء ذات الأطراف المتناسقة والرأس

النبيل القسمات ؟ .. أفحقا ماتهامست به الشائعات من أن صاحبة هذه الصورة الباهرة ، كانت تحمل اسما من أعظم الأسماء فى فرنسا ، وان حسناء رفيعة المحتد ، من حى (سان جيرمين) ، هيأت للفنان — دون أن يكون على معرفة بحقيقتها — أن يرى فيها المثال الذى كان يصبو اليه ، دون ان يعثر عليه ؟ .. من هى ؟

وكان الطبيب قد وقف هناك برهة ، ينصت الى تمتمات الاطراء التى كانت تشهد بفوز الفنان ، ثم شق طريقه فى تؤدة — بين الحشد الراقى — واتجه نحو الباب ، فوقف هناك لحظة أو اثنتين يرقب العربات وهى تدرج على طريق (الشانزليزيه) ، ثم سار وئيدا عبر ميدان (الكونكورد) ، ونفذ الى طريق (سان جرمين) . ودقت الساعة معلنة السابعة ، وهو يمر بكنيسة (سان جيرمين) ، فغذ السير ، اذ كانت أمامه مسافة طويلة ، وعرج على احد الشوارع الصغيرة ، بالقرب من حديقة النباتات ، فلم يلبث ان خيل اليه انه قد خلف باريس وراءه ، اذ اخذت الشوارع تزداد ظلمة ، وضاقت حتى أصبحت أزقة ، وتضاءلت المتاجر الكبيرة فغدت حوانيت صغيرة ، وتحولت المقاهى الى مشارب متواضعة .. وازدادت ندرة المعاطف البديعة ، بينما تكاثرت الأقمصة و « البلوزات » . وكانت الساعة قد قاربت الثامنة ، وهو موعد المسارح فى الطرقات الرئيسية المتألقة ، أما هنا ، فلم يكن يشاهد سوى جماعات من العمال ، يجرون أقدامهم سعيا الى بيوتهم بعد العمل .. وكانوا يبدون متعبين ، مثقلى القلوب ، فقد كان العمل شاقا ، وكان الناقوس يدق — فى تمام السادسة من الصباح — فى المصانع و « الورش » ، كما ان كثيرا منهم كانوا يضطرون الى السير ساعة لكى يصلوا الى هذا الحى .. **وهنا وهناك ، كان ثمة شخص يقف فى اسمال ، يمد يده للسؤال ، دون ان يحمل على صدره وصفا يبين كيف اصبح اعمى ، ودون ان يروى كلمة واحدة من قصة بؤسه ..**

لم تكن به حاجة الى ان يفعل ذلك ، فى هذا الحى ، لأن اولئك الذين كانوا يمنحونه درهما ، كانوا فقراء مثله ، وقد عرف معظمهم الجوع والمسغبة !

واخذت الأزقة تزداد قذارة ، وقد تخلفت فى البالوعات ركامات من الكناسة والفضلات .. فما كان لهذا وزن هنا ، حيث لم يكن يقيم سوى الفقراء !

★ ★ ★

ودخل الطبيب منزلا قديما متهدما ، فتحسس طريقه صاعدا السلم المظلم ، الزلق . حتى اذا بلغ اقصى الدرجات ، استقبلته لدى الباب امرأة عجوز ، فكأنما كان وصوله مرتقبا . وهمست العجوز ، وهى تضع اصابعها على شفتيها : « صه ! صمتا !.. انها نائمة » . وفى همس شرحت الجدة له تطورات الحال منذ الأمس .. فلم تصب « رافاييللا » بهذيان خلال الليل ، بل ظلت طيلة اليوم راقدة فى سكون ودعة ، وان أخذت بين وقت وآخر تطلب رؤية الطفل .. ثم لم تلبث أن راحت فى سبات ـ منذ فترة قصيرة ـ والصغير فى احضانها . فهل يرغب السيد الطبيب فى ايقاظها ؟ .. لا ، لا داعى لذلك . واتخذ مجلسه فى صمت ، الى جانب العجوز ، على مقعد خشبى عريض . ما اوثق الصداقة التى كانت بين هذين الشخصين ! .. وكان الطبيب يعرف قصة الأسرة المحزنة !

كانت الاسرة من (سانت جيرمانو) ، وهى قرية بين الجبال ، فى منتصف الطريق بين (روما) و (نابولى) ، تفد منها معظم الفتيات الايطاليات اللائى يعملن نماذج للرسامين . ولقد وصلت الاسرة الى باريس منذ فترة لم تبلغ العامين ، فاذا بالأم تصاب بالحمى وتموت بعد شهرين من وصولها ، وصار على الجدة والحفيدة ان تدبرا شئونهما بنفسيهما فى المدينة الغريبة ! ..

وقدر لرافاييللا ان تغدو نموذجا للرسامين ، ككثير من الفتيات .

ورسم فنان شاب صورتها .. رسم الرأس الجميل المحتفظ بنضارة الصبا .. رسم الصدر الناشيء ، ثم تساقطت ثيابها البائسة ، فرسم حلاوة العذراء فى تفتح برعومها ، وفى طهر الوداعة الناجمة عن نوم الشهوات !

وأتم الشاب لوحته الأخيرة ، فدخل المجد مرسمه ، وغادرت المرسم فتاة .. بل طفلة محطمة !

ولقد افترقا كما يفترق خير الأصدقاء ، فكتب الرسام عنوان نموذجه ، بقطعة من الفحم ، على جدار المرسم .. ثم ذهبت لتقف أمام رسام آخر . وتنقلت من مرسم الى مرسم .. ولم تعد براءتها تحميها !

وفى ذات يوم ، وقفت الجدة فى ذلة أمام باب مرسم فخم ، وقالت ـ بين الشهقات الباكية ـ ان رافاييللا كانت موشكة على ان تغدو أما ! .. وهتف الرسام : « آه ، اجل ! » . فلقد تذكر الفتاة الحسناء فأودع يد العجوز بعض قطع ذهبية ، ووعد بأن يحاول أن يفعل شيئا من أجلها !

ولقد بر بوعده ، اذ عرض على زملائه ـ فى مساء اليوم ذاته ـ ان يتبرعوا من أجل طفل رافاييللا ، وزعم ان لا حق هناك لأحد فى أن يرفض .. ولم يكن بينهم من يحق له ان يرفض ، فجادوا جميعا بما كان فى وسعهم ان يجودوا به ، فمنهم من قدم مبلغا ضئيلا ، ومنهم من سخا فى العطاء ، ومنهم من أفرغ كيس نقوده فى القبعة التى دارت عليهم ، من أجل طفل رافاييللا .

ولقد رثوا جميعا للفتاة الجميلة ، اذ اصابها نكد الحظ . وتساءلوا عما سيؤول اليه امرها . فلقد كان من المحتمل ان تواصل العمل كنموذج ، ولكنها لن تكون قط كشأنها من قبل ! وأجمع المثالون على ان خطوط الخصر لن تصمد لهذه المحنة ، كما ادرك الرسامون تمام الادراك ، ان النعومة العذبة التى اتسم بها لون لفتاة ، قد ولت الى الابد !.. وكان من الممكن ـ طبعا ـ ان يعهد بالطفل الى حاضنة فى الريف ، وقد كان المبلغ الذى



جمع ، كافيا للانفاق عليه عاما كاملا . ولم يكن من خطل الرأى ان يلتمسوا من صديقهم ــ ذلك الطبيب الذى كان شديد الشغف بالايطاليين ــ ان يمنح رافاييللا شيئا من رعايته، فقد يكون ذا نفع فى كثير من الطوارىء المقبلة !

* * *

ولقد اكثر الطبيب ــ الذى كان شديد الشغف بالايطاليين ــ من التردد على الفتاة ، فلقد برح المرض برافاييللا .. اشتد بها حتى انها ظلت فى بحران الحمى اياما وليالى ، وكانت هذه أول مرة ــ منذ وقت طويل ــ تنعم فيها بنوم هادىء !

لا ، من المحقق ان الطبيب لم يكن راغبا فى ايقاظها ، بل انه جلس صامتا الى جوار الجدة العجوز ، مغرقا فى التفكير .. كان يفكر فى قصة « رافاييللا » . لم تكن جديدة عليه ، تلك القصة ، فكم رواها له ذلك الحى الايطالى الفقير ، وكم قرأها فى الكتب .. بل لكأنما كان ما رآه فى الحياة أبسط وأدعى للحزن مما قرأه فى الكتب ! .. وما كان فى قصة رافاييللا شىء غير عادى ، ولا جد مثير . لم يكن فيها عرض كبير للمشاعر ــ أسى كانت هذه المشاعر او قنوطا ــ ولا اتهامات ، ولا تهديد بالانتقام ،ولامحاولة للانتحار . بل ان كل شىء سار فى بساطة ، على نمط ما يجرى فى كل يوم من امور .. فما وقفت الجدة العجوز رافعة الرأس، متقدة العينين، أمام ذلك الذى يقع عليه وزر زلة الفتاة الصغيرة، وانما وقفت ببابه فى استسلام ذليل ، ودعت « العذراء » أن

تجزيه خيرا من احسانه . **ولقد كان للعجوز البائسة عذر فى ذلك ، اذ انها لم تكن تقوى على ان ترفع رأسها ، لأن الحيــاة أحنت ــ من زمن طويل ــ عنقها تحت وطأة العمل اليومى ! .. وما كان فى وسع عينيها ان تنقدا وعيدا ، لأنهما كثيرا ما اضطرتا الى ان تتسولا الخبز ! .. ولا كانت تعرف كيف توجه اتهاما ، لأنها ــ هى نفسها ــ كانت مذنبة ، حكم عليها الجور دون ان ينصت لشكواها ! .. ولا كانت تدرى كيف تطلب الانصاف ، لأن الحياة لديها كانت احتمالا طويلا للمظالم ! .. لقد امتدت طريقها وسط الظلماء والبأساء ، فلم تر شمس الحياة الا لماما ، ونمت افكارها معتمــة ، خلف جبين مجعد مغضن ! .. كانت بليــدة الذهن والجسم ، كحيوان عجوز انهكته الأثقال !**

ثم .. لعل الشاب الذى أغوى حفيدتها لا يزيد عن كثيرين غيره لؤما وعدوانا ! .. ولقد بذل مافى وسعه ليكفر عن خطيئة كان من العسير ــ فى رأيه ــ ان تعتبر جد شنيعة ، فقد كفل من المال ما يكفى عاما كاملا ــ طفلا لم يكن يمت اليه بصلة ، كما قال .. فما الذى يسعه ان يفعله فوق ذلك ؟ .. ولقد سأل الطبيب عما اذا كان قد عرف يوما فتاة تعمل نموذجا للفنانين ، وهى محتفظة بعفتها ، فأجاب الطبيب : « لا » ، لأنه لم يكن يعرف نموذجا محتفظة بعفتها !

* * *

وسـقط الضوء على السرير القذر ، فنظر الطـبيب الى مريضته . أجل ، لقد كانت تشبه الصورة فعلا . لولا شحوب اعترى وجهها عن ذى قبل

كان فنانا بارعا ! .. كل ما هنالك أن وجهها أصبح شاحبـا عن ذى قبـل . ومن المحتمل ان ذلك الظل الأليم الذى كان يعلو جبهتها ، لم يكن يظهر للعين فى ذلك المرســم الموفور الضياء ، حيث رسمت الصورة .. ولكن تلك الهالات الداكنة ، المحيطة بالعين ، لم تكن مما يلائم قاعة العرض !.. **وفيما عدا ذلك ، كان**

لوجه المريضة ، ما لوجه الصورة ، من كمال فى القسمات ، ونبل فى شكل الرأس ، واستدارة ناعمة تجعـــل الخدين اقرب الى خدود الأطفال .. وكان لها عين الخصلات المجعدة المحيطـــة بالجبين الجميل .

ولقد صدقت الهمسات – فعلا – فقد كانت الفتاة تحمـــل على جبينها سمة النبل .. لا نبل ضاحية (ســـان‌جيرمين) ، وانما نبل الاغريق .. كانت لها قسمات « فينوس » !

وراقب الطبيب الأم الشابة التى كانت تنام فى امان ، وطفلها بين ذراعيها . ثم تأمل العجوز التى جلست بجواره ، واصابعها تعبث بالمسبحة . وفى حزن متشائم ، راح يتطلع الى المستقبل الذى كان يرتقب هؤلاء الثلاثة المساكين !

* * *

آه . حقا ! .. سرعان ما تحسنت رافاييللا ، اذ راح شباب الطبيعة فيها صحة . ولم تعد الى العمل كنموذج للرسامين قط، لأنها لم تكن تستطيع ان تترك طفلها . لا ولا هى تزوجت، لأن قومها لايغفرون لفتاة ان تصبح اما ، بفضل « سيد » من أهل المدن . وراحت تهيم – والطفل على صدرها – بحثا عن عمل .. اى عمل !

ونفدت آخر المدخرات . . ولم تساعدها دور الاحسان العامة، لأنها كانت اجنبية .. ولم تعرف المساعدات الشخصية سبيلها الى رافاييللا . **وصار عليها ان تختار بين التضور والعوز ، وبين ان تبيع جسدها فى الطرقات . ولكن الطفل قدر له ان يعيش ، فاختارت العوز . ولم يجزها المجتمع او يكافئها عن هذا الخيار، لأن الفضيلة تجوع وتتجمد بردا ، فى احياء باريس الفقيرة . وانتهت رافاييللا الى العمل فى كنس الطرقات وتنظيفها !**

ولقد محا الفقر جمالها ، واصبحت قسماتها تحمل سمات العوز والعناء .. ولقد أحدث الأسى فى جبينها اخاديد غائرة ، ولكن طابع النبل ما زال يعلوه !

الا ارفعوا القبعات وحيوا الفضيلة فى الأسمال !.. انها لأعظم من الفضيلة فى حى النبلاء !

اعترافات .. واعترافات

بقيت كلمة ، أحب أن أقولها لفريق من اولئك الذين يتصدرون صفحات الأدب فى صحفنا ، فيلقون الكلام جزافا ، ولا يدركون ما لوضع الناقد من جلال وقدر.. ان الناقد الأدبى قاض ، والقاضى النزيه هو الذى يحرص على ان لا يصدر الحكم الا بعد روية وتفكير ، ورجوع الى تفصيلات القضية ، ومراجعة لما ورد فى القوانين .. ثم يقف طويلا ، ليسائل نفسه : أترانى مرتاح الضمير ازاء الرأى الذى خرجت به من دراساتى.. وهل اظل مرتاح الضمير اذا ما أصدرت حكمى ؟

أقول هذا بمناسبة ما حاوله بعض الناقدين من تجريح دار « كتابى » ــ بمناسبة اصدارها « اعترافات جان جاك روسو » ، التى توالت بها أعداد « مطبوعات كتابى » ــ فزعم ان الدار غررت بقرائها حين اعلنت ، ان اعترافات « جان جاك روسو » ــ التى عنوانها « اعترافات فتى العصر » ! ــ تترجم الى العربية لأول مرة ، فى حين أنها ترجمت منذ عشرين عاما !

وأسرة تحرير «كتابى» لايسعها الا أن ترثى ــ بقلوب دامية ــ لهذا التحامل .. ترثى بقلوب يدميها الأسى لما أصاب الأدب ، على أيدى نقاد لايتحرون الدقة ، ولا يجشمون أنفسهم عناء الاطلاع الذى يطالبون به قراءهم.. **ذلك لأن اى قارىء عادى ، على شىء من سعة الاطلاع ــ وليس أى ناقد أدبى ــ يدرك ان « اعترافات فتى العصر » من تأليف الشاعر الفرنسى « الفريد ديموسيه » ، الذى عاش فى زمن غير زمن « روسو » .. ومن ثم فان اعترافاته لاتمت بصلة الى « اعترافات جان جاك روسو » !**

ولقد وجد أحد هؤلاء النقاد الشجاعة الأدبية لأن يعترف بذلك . ملقيا الذنب على ذاكرته التى « خانته خيانة لعينة ، قبحها الله » ! .. ولكن أسلوب «الناقد» اثبت انه لم يبغ باعترافه سوى تدارك خطأ ادرك ان القراء كانوا خليقين بأن يفطنوا اليه فيعيبوه .. اما الاعتذار للدار المصرية التى حملت رسالة ثقيلة ، مرهقة ، اشفقت من حملها كثير من الدور الكبرى ، ذات الامكانيات والموارد .. أما الاعتذار للدار التى أخذت على عاتقها نقل شوامخ الكتب العالمية الى العربية ـ فى ترجمة دقيقة ، أمينة ، كاملة ـ والتى تحامل عليها دون مبرر أو سند ، فهذا ما تغافل عنه « الناقد » !

على كل حال ، فلسنا نرجو سوى ان نهيب بالزملاء النقاد ، أن يدركوا فداحة العبء الذى تطوعنا لحمله ، وان يقدروا فداحة الأمانة التى فى أعناقهم اذ يتبوأون مقاعد النقاد

وفيما عدا ذلك ، فنحن مطمئنون الى تقدير قراء العربية لجهودنا ، واثقون من خطواتنا ، مرتاحو الضمائر الى عملنا .. وستظل « مطبوعات كتابى » تفخر بأنها حملت الى القراء اول ترجمة عربية دقيقة ، امينة ، كاملة ، لاعترافات جان جاك روسو .. وستظل دار « كتابى » تزهو دائما بأنها تقدم أدق الترجمات لشوامخ الكتب العالمية !

نكث الأمومة!

قصة مصرية بقلم:
نجيب محفوظ



عندما أخذ قطار الصعيد يهدىء من سرعته كان الفجر الأزرق الحالم قد اكتسى بحلة فضية من ضوء الصباح المنير ، وقد فتحت السيدة روحية هانم عينيها مع بزوغ أول شعاع من أشعة الشمس ، ولبثت لحظة مستسلمة لتراخى النوم ، ثم اعتدلت فى جلستها فى الصالون وأدارت عينيها الزرقاوين الفاتنتين فى أنحاء الصالون حتى استقرتا على وجه الأستاذ عاصم الذى كان يغط فى نوم عميق ، فلاحت فيهما نظرة حب وحنان ، وكان من الضرورى ايقاظه لدنو القطار من محطة مصر ، الا أنها لم توقظه قبل ان تقوم الى المرآة الصغيرة الموضوعة بين صور « الكرنك » و « أجاممنون » ، فتسوى شعر رأسها وتمسح خديها وجيدها بالبودرة المعطرة .. **وتنبه النائم على لمس أناملها ذات الأظافر الأهرامية الحمراء .. وكان اول ما مس احساسه من عالم اليقظة رائحة انفاسها الزكية وهى تطبع على شفتيه قبلة شهية ..** وفتحت النافذة وأطلت منها برأسها الذهبى كأنها شمس تشرق من الأرض ، فرأت بناء المحطة يدنو من بعيد ، فالتفتت الى الأستاذ وقالت وهى تتنهد : « وآسفاه انتهت سفرتنا ! » .. فقال لها وهو يتمطى : « هذه نهاية كل رحلة .. أما الحب فلا نهاية له ! »

فقالت بصوت جعله الشوق والوجد كلحن من الموسيقى الخافتة : « أين اسوان أين ؟ .. أين خلوة الصحراء تحتوينا معا ؟ أين جدران المعابد تستر علينا ؟ أين زورق النيل يجرى بنا على سطح الماء ؟ أين أنا وأنت لانفترق ونشهد معا وجوه اليوم من الفجر والصباح فالضحى والأصيل ثم المساء .. واها ! » .. فتنهد الشاب تنهدة هادئة لا كتنهداتها الحارة وقال : « سنعود الى اسوان فى الشتاء القادم . أما من الغد فالى عش غرامنا



المعهود فى شارع سليمان باشا» .. فقالت : « هيهات ان تعوضنا هذه الساعات التى ننتهبها انتهابا ، عن ذلك الشهر السعيد الذى كنا فيه جسما واحدا وروحا واحدة » .

وحاول ان يجيبها بمثل حماسها ، ولكن خذلته نفسه الهادئة الملولة فقنع بقوله « صدقت ياعزيزتى » ثم قام الى النافذة الأخرى ففتحها ، وكان القطار قد بلغ المحطة واخذ يرسل صفيره المدوى فى جوفها العظيم ، فأرسلا بناظريهما الى افريز الاستقبال ، وكان مزدحما بالجمهور . وسمعت الأستاذ يقول : « هاهم أولاء .. زوجك وحياة ومدحت » .

فقلقت عيناها بين الرؤوس المشرئبة حتى اطمأنتا الى رأس حياة الذهبى، فرق قلبها جنانا ، وتحولت عن النافذة وانطلقت تعدو خارجة ، والأستاذ فى أثرها . **وعلى الأفريز هرع اليها مدحت وحياة وهما يصيحان : « ماما » فتعانقوا عناقا حارا ، ولما تخلصت منهما ، رأت زوجها الشيخ وهو فى عباءته الفاخرة ، وطربوشه مائل الى الخلف يبدى عن شعره الخفيف، فجمدت عيناها ، وتقدمت اليه ، ومدت يدها فسلم عليها واجما ، ووضع يده ايضا فى يد الأستاذ عاصم** .. وساروا جميعا الى الخارج ، الزوج فى المقدمة وخلفه الزوجة ـ بين مدحت وحياة ـ ومن وراء الجميع الأستاذ.. واستقلوا السيارة التى انطلقت بهم فى طريق الزمالك ...

* * *

وجلس الزوج وزوجه وحياة فى ناحية ، وجلس فى الناحية

الأخرى المقابلة الأستاذ ومدحت . واستطاع عاصم أن يرى حيــاة عن كثب لأول مرة ، اذ أنها لم تكن تقابله فى زياراته المتكررة لوالديها .. يا للعجب للشبه العظيم الذى بين الأم وابنتها ، فلم يكن يفارق بينهما الا ما يفارق بين نضارة الشباب الأولى ونضوج الأنوثة الكاملة ، فكانت الفتاة كالياسمينة العبقة فى الغصن وأما الأم فكالوردة النادرة فى الزهرية !

وظلوا صامتين جميعــا حتى قال الزوج : « كيف كانت الرحلة ؟ لعل صحتك تحسنت يا هانم ؟ » .. فأحنت المرأة رأسها وتمتمت : « الحمد لله » . وقال الاستاذ : « قل ان تغيب الشمس فى اسوان وهى أنجع دواء للهانم » .. فأبتسم الرجل عن اسنان ذهبية صناعية وقال : « يسرنى أن أسمع هذا ، وعسى ان تسرا بدوركما لانبائنا ، فتهنئا حياة بخطبتها القريبــة .. »

واحمر وجه الفتاة وخفضت عينيها حياء ، والتمعت عينا الأم وبدا عليها الاهتمام ، وردت نظرها بين حياة وزوجها وسألت بلهفة ودهشة :

« وهل تمت هذه الخطوبة ؟ » .. فقال الرجل : « لا يجوز أن تتم خطوبة فتاة فى غياب امها ... ولكنها ستتم قريبا باذن الله ! »

ونظر الأستاذ الى الفتاة وقال مبتسما : « مبروك » . أما الأم فسألت :

« من هو ؟ » . وأجابها الرجل : « طلعت ، ابن شريكى » .. وسأل المحامى : « هل هو موظف ؟ » ، فقال الرجــل بزهو : « نعم وكيل نيابة ! » .

وأطبقت روحية هانم شـفتيها فلم تفـه بكلمة اخرى ، واستسلمت لأفكار غامضـة فغابت عن الحاضرين ، وانتهت السيارة الى الفيلا ودخلوا جميعا ومعهم الأستاذ عاصم .

ولـكنه استأذن بعد قليل وانصرف الى بيته القريب

* * *

كان السيد محمد بك طلبة من كبار تجار الشاى المعروفين بمصر وقد ربح من تجارته ثروة عظيمة تقدر بمئات الألوف من الجنيهات ، وكان فى أخلاقه صورة من رجال طائفته الناجحين فى حسن التدبير وعلو الهمة والحرص ، وبالرغم مما تحفل به حياته من التجارب والمخاطرات ، وبالرغم مما صادفه فيها من ويلات المحن وفرص النجاح ، فانه مايزال يعد زواجه أخطر حادث فى حياته ، وهذا هو اعتقاده الدفين وان لم يصرح به!..
وقد وقع هـذا الحادث الخطير منـذ عشرين عاما — وهو فى الخامسة والأربعين — اذ كان يقوم باحدى رحلاته التجارية بسوريا ، وقد التقى هناك بأسرة زوجه وتعرف الى والديها ، وكان الأب سوريا والأم أمريكية . **ورأى ابنتهما الشابة الفاتنة ساعة فوقع فى حبها وجن جنونا وتحركت فى اعماقه غريزته التجارية غريزة الأمتلاك فخطبها الى والديها ولم يستدر ذلك الشهر حتى تم زواجه منها ، وعاد الى مصر « بأعظم ربح وأجمل امرأة فى الوجود » كما قال لنفسه حينذاك ...**

بدأت الحياة الزوجية بنجاح لا بأس به ، وأثمرت على مر الأيام طفلين جميلين مدحت وحياة . فبشر مقدمهما الأسرة بدوام السعادة والعشرة .. ودارت السنون دورة سريعـة فوجد البك أنه أخذ يجتاز الحلقة السابعة ، ويقنع من الدنيا بمشاهدة مدحت وحياة ، ويكتفى من الحب بتذكر أحلامه المنطـوية ... **وأما المرأة فالفت نفسـها فى مكتمل الأنوثة ونضوج الشباب فلم تحمل نفسها القناعة من الدنيا بالأبنـاء والأحلام ، اذ كان شبابها عنيدا جبارا دائب الثورة على الزمن .. فتصدع ائتـلاف الزوجين ، وعجزت شيخوخة الرجـل عن كبح هذه الحيوية الثائرة فانكمشت امام سـيلها العارم وخلت لها المنحدر وانزوت مطعونة باليأس مذعنة بالتسليم .**

واتفق أن كان الاستاذ عاصم المحامى - صديق الزوج وجاره - السبب المباشر فى انفجار هذه الثورة الحيوية العنيفة، وقد تحيرت (صالونات) الزمالك فى تحديد علاقته بروحية هانم ، فمن قائلة ان هذا المحامى الجميل ليس الا صديقا للأسرة ، ومن هامسة بأنه عشيق الزوجة ومتغفل الزوج ، ومن مؤكدة انه عشيق الزوجة على علم وتسليم او - على الأقل - تغاض من الزوج . وظل كل فريق على رأيه حتى ذاع خبر تلك الرحلة الشتوية الى اسوان ، التى قيل فى تعليلها ان الاطباء نصحوا للهانم بانتجاع الصحة فى مصر العليا ، وأن الزوج الذى تمنعه اعماله فى مثل هذا الوقت من السفر - عهد بالزوجة الى صديقه المخلص المحامى الذى يسافر فى يناير من كل عام الى اسوان ... هنالك قطع الشك باليقين واتفقت الآراء ...

وكانت روحية هانم لا تهتم بشىء اهتمامها بشبابها ، فكانت لاتنى عن العناية به والتفكير فيه حتى غدا ذلك وسواسا ومرضا ينغصان حياتها بالمخاوف والأوهام ، وكانت كلما تقدم بها العمر يوما تزايدت وساوسها واشتدت مخاوفها، ذلك انها كانت تحس فى اعماقها ببلوغ قمة الشباب التى لا يعقبها الا الانحدار ، وكانت تعلم ان شبابها هو سعادتها لأنها بدونه لا تستطيع أن تجذب اليها الرجل الذى تحبه والذى تعلم - مع الألم الشديد - أنها تكبره بما لايقل عن عشرة أعوام ...

ولطالما تذكر ما قالت مرة امرأة - تعلن لها الود وتكتم العداوة - فى مجلس لأخرى وهى تعنيها بالذات ، من ان النساء اللاتى يحافظن على شبابهن بعد فوات عهده يهرمن مرة واحدة بلا تدرج .. واها ! .. كم سخرت من رأى هذه المرأة وكم ارجعته الى الحسد الذى تحمله لها ، ولكن .. لا سخريتها ولا تظاهرها بالاستهانة افادا شيئا فى مغالبة الذعر الذى استولى عليها والرجفة التى استحوذت على اعصابها .. ففدت

كالمجنونة يخفق قلبها جزعا واشفاقا كلما طرقت اذنيها دقات الساعة .

وجعلها ذلك فى حيرة بين حبها لمدحت وحياة وبين الخوف منهما ، فهما بلا شك لذة الأمومة التى تخفق فى صدرها ولكنهما آيتان على كذب شبابها ، أما حياة فقد بلغت السادسة عشرة من عمرها وهى تخطو الى النضوج بخطى سريعة تدل عليها معانى العينين ونهوض الثديين ، وأما مدحت فتعذيبه لها أشد اذ أن هذا الشاب ـ الذى لم يجاوز الثامنة عشرة ينمو نموا خطيرا ، فهو فارع الطول جاهر الفتوة عريض المنكبين ، والأدهى من هذا كله غرامه بشاربه ومطاوعة الشارب له ، فالشاب يحب الرجولة ويستزيد منها حب أمه الشباب واستزادتها منه .. وقد كانت حريصة على استصحابه كلما خرجت حتى قالت لها مرة امرأة من صاحباتها : « ما أحرى الذى يراكما بأن يقول ما أسعدهما من زوجين ! » ولم تدر ما اذا كانت المرأة تثنى على شبابها أو تغمزه وعلى كل حال لم تستصحب فتاها بعد ذلك أبدا ..

* * *

على انه لاح فى أفقها الآن ما يستخف بجميع همومها السابقة ، اذ ما مدحت وما شاربه الى زواج حياة المنتظر ؟ !

لقد بغتها الخبر ، وكانت البغتة من الشدة بحيث لم تدع لها فرصة للتدبر ولا للتفكير ولا حتى للتظاهر بالفرح أمام ابنتها اذ هما بالسيارة .. فلما ذهبوا الى الفيلا خلت الى نفسها بحجرتها معتذرة بتعب السفر ، وفى عزلتها عاودت التفكير فى هدوء وامعان فتوالت عليها الفروض والتصورات ، فهى لا تشك فى أنه لولا الحياء لغنت حياة فرحا وسرورا ، وأى فتاة لا تفرح للزواج ؟ وخاصة اذا كان الشاب فى عنفوان شبابه وجيها فى بحبوحة من الغنى والجاه سيدا فى وظيفة تتيه على جميع

الوظائف ، فلعلها باتت تغرد فى قلبها أطيار الحب وتحلق فى جوها الطاهر أحلامه العذبة ، فهى جد سعيدة بحاضرها ،جد آملة فى مستقبلها ، ولا شك أنها تنتظر الآن أن تستعيد أمها راحتها من وعثاء السفر وأن تذهب اليها لتطبع على خدها الوردى قبلة التهنئة فتعلن رضاها وموافقتها فتتم الخطوبة وتكمل السعادة .

ولكنها اذا فعلت فستغدو الابنة زوجة ، وتمسى أما . فتسمع عن قريب من يناديها بقوله : « جدتى ، جدتى ! » . لقد نطقت بهذه الكلمةالشنعاء ، فدوت فىأذنيها دوى التصويت والنواح فارتجلها جسمها البض وخفق لهولها قلبها العاشق .. وأحست ببرودة الخوف تسرى فى أعصابها سريان الجفاف فى الغصن الرطيب .. وخيل اليها الوهم انها تجلس الى مقعد وثير والى جانبها ابنتها وعلى حجرها غلام وكأنها تسمعه بأذنيها يهتف بها : « يا جدتى ! » . **ورأت نفسها وقد ذوى جمالها وتغضن جبينها وغارت عيناها ورق خدها وابيض شعرها .. فانتفضت واقفة وكتمت صرخة رعب كادت تفلت من شفتيها ، وهزت رأسها بعنف لتطرد عن خيالها الأطياف المرعبة . حتى اذا عاودها اطمئنانها صاحت « ابدا .. أبدا .. لن يكون هذا ! »**

ولبثت ملازمة لحجرتها غير عابئة بما عسى أن يحدثه غيابها فى نفس ابنتها العزيزة ، حتى ثقل الأمر على البك فاستاذن عليها ودخل ،وجلس قبالتها وجعل يرمقها بعينيه الحادتين وهو يرجو ان تفاتحه بالحديث ، ولما لم يدع له اصرارها أملا قال : « أرجو أن تكون أسوان قد شفت أعصابك » .

وأغضبها قوله ، وظنت أنه يتهكم عليها فنظرت اليه نظرة حمراء ، ولما شاهدت عينيه الحادتين وقر فى نفسها أنه هو الذى سعى الى هذه الخطوبة وأنه سعى اليها تأديبا لها وانتقاما منها ، فهو أعرف الناس بها وأعرفهم - على وجه الخصوص - بما يسرها وما يسوؤها ، واشتد بها - عند ذاك - الغضب ،

فعضت على شفتها السفلى وأهملت الرد عليه ، فقال كالدهش: « مالك ؟ لست كعادتك .. والأعجب من هذا أنك لم تفرحى لما بشرتك به ! » .. فاهتاجها الغيظ وقالت محنقة غاضبة : « لن تتم هذه الخطبة ! » .. فبدا على وجه البك الانزعاج وقال : « ماذا تقولين يا هانم ؟ » .. وأجابته بصوت صارم : « اقول انه لن تتم هذه الخطبة .. ! »

ــ كيف ؟ .. ولمه ؟ ..

ــ ان « حياة » ما زالت صغيرة السن .

ــ ولكنها بلغت سن الزواج القانونية .

ــ ماذا يفيد القانون اذا كان الزواج المبكر يؤذى صحتها ؟

ــ لقد تزوجت يا هانم فى مثل سنها ومع هذا فان كل من يراك يشهد لك بالصحة والنضارة ..

فضربت الأرض بقدميها وقالت محنقة مغيظة : « أنا دائما أشكو من أعصابى » .. فضيق عينيه ورفع حاجبيه وقال فى تهكم : « ربما كان ذلك لعلة غير الزواج .. ! »

فغلبها الغضب واشتد بها الانفعال وقالت بصوت متهدج : « باختصار لن تتم هذه الخطبة » . ولكن الزوج صر على أسنانه الصناعية وقال :

ــ لقد أطلقت لك الحبل على غاربه وملكتك حريتك الكاملة وقلت لك منذ عامين « أنت وشأنك » .. ولكنى لم اتنازل عن حقوقى كوالد ولا أفكر فى التنازل عنها ، وانى لأشفق من أن تضيع على ابنتى مثل هذه الفرصة الذهبية ، ولذا فانى اعلنك ــ وانى اعنى ما أقول ــ بأنى سأعقد هذه الخطبة !

فقامت غاضبة وأشارت اليه بيد مرتجفة وصاحت : «وأنا أؤكد لك بأنها لن تتم »

فهز الرجل كتفيه استهانة وغادر المكان وهو يقول «سنرى» .

* * *

وصبرت الهانم حتى عاودها شىء من هدوئها ثم دعت اليها

ابنتها ، وحدثتها حديثا طويلا عن حبها لها وحدبها عليها وتوخيها ما ينفعها واشفاقها مما يضرها ، ثم خلصت الى ما دعتها — فى الحقيقة — من أجله ، فأعلنتها بأنها لاتوافق على زواجها وانها ترغب فى تأجيله بضع سنين خوفا على صحتها ، ورجتها رجاء حارا ان ترفض يد ذلك الشاب وألا تذعن لارادة والدها .

وصمتت الفتاة صمتا بليغا ،ولاذت بهمن الرفض او القبول، وعبثا حاولت المرأة أن تخرجها عن صمتها ولكنها فهمت منه، ومما طالعت فى وجهها من الحزن والاستياء ما أشفى بها على اليأس والقنوط .. ولبثت الفتاة فى حضرتها مالبثت ثم غادرت الغرفة ولم تنفرج شفتاها عن غير التحيتين .. تحية اللقاء التى نطقت بها فى مسرة وفرح ، وتحية الوداع التى قالتها فى صوت خافت بارد .. وجن جنون الأم وازدادت تشبثا وعنادا، ووقفت من الزواج موقف المقاطعة والتحدى .. فلما جاء الشاب الخطيب لزيارتها أبت أن تقابله كما رفضت مقابلة أهله من بعد . واضطر البك الى انتحال الأعذار الكاذبة لها ، وبذل الرجل ما فى وسعه لاقناعها بالتحول عن عنادها وتوسل اليها باسم ابنتها ، ولكنها ركبت رأسها وأبت أن تصغى اليه حتى انفجر مرجل الرجل واقدم على الافضاء بالحقيقة الى شريكه — والد الخطيب — وشكا اليه قسوة امرأته التى تضحى بسعادة ابنتها فى سبيل شبابها الكاذب .. وطلب اليه ان يعاونه على اتمام الزواج — رغم ارادة الأم — انقاذا للفتاة



من انانية أمها المتوحشة !

وذاعت هـذه الكلمة التى قيلت سرا فى جميع الأوساط الراقية ، وتحدثت بها (الصالونات) حتى بلغت أذنى الأستاذ عاصم المحامى الذى حملها بدوره الى روحية هانم نفسها ، ولكن لم يكن هذا ـ ولا ما أصبح يبديه مدحت وحياة من الاستياء والنفور ـ الا ليزيدها عنادا واصرارا .. ووجدت المرأة أن كل ما قيل وذاع لم يغن فتيلا فى عرقلة الساعين الى اتمام الزواج ، وكانت ترى فى نجاح مسعاهم القضاء الأخير على سعادتها وشبابها وغرامها ، فانبرت للدفاع عن نفسها دفاع البائس المستميت واهتدت ـ فى قنوطها ـ الى فكرة جهنمية شريرة لا تخطر على قلب أم أبدا ، وسارعت الى تنفيذها بقلب أعماه الخوف والجنون عن البصر بالعواقب ، فقصدت يوما الى عشيقها وطلبت اليه أن يقنع ابنتها بالعدول عن الزواج ، وقد دهش الرجل وحق له أن يدهش وقال لها : « وما لى أنا ولهذا ؟ .. ثم انه لم تسبق لى معرفة وثيقة بالأنسة حياة فلا أدرى والحالة هـذه كيف يجوز لى أن أحادثها فيما هو من صميم شئونها الخاصة ؟ .. »

ولكن المرأة استهانت باعتراضاته وكذبت عليه فقالت : « حقيقة أنك لم تسبق لك بها معرفة وثيقة كما تقول ولكنها تعلم أنك صديق والديها ، وقد سمعت فى بعض المجالس ثناء كبيرا على نبوغك فى المحاماة فهى لا شك تقدر رأيك حق قدره وتنزله من نفسها منزلة سامية » . فتورد وجه الشاب وذكر وجه الفتاة الجميل الذى سعد برؤيته ساعة فى السيارة صباح العودة من اسوان . فلم يستطع أن يرفض ولكنه قال متسائلا : « فكيف لى بمقابلتها على انفراد لأحادثها فى هذا الشأن الخطير ؟ واذا قابلتها فكيف أفاتحها به ؟ » . فتنهدت المرأة ارتياحا وقالت :

ـ لقد دبرت كل شىء ، سأستصحبها يوم الأحد القادم لشراء بعض الحاجات ، وعليك أن تقابلنا ـ مصادفة طبعا ـ

فى شارع سليمان باشا الساعة الخامسة مساء ، وتقترح علينا التنزه قليلا على جسر قصر النيل فأتركها معك وأعدك بأن ألحق بكما بعد دقائق ، وتنتظرانى ساعة على الأكثر فان لم أعد تأت بها الى شيكوريل حيث تجدانني ، وفى أثناء ذلك تستطيع أن تطرق الموضوع بلباقة المحامى وتفضى اليها برأيك فى الزواج المبكر .. ما رأيك الآن ؟ »

وقبل الشاب بسرور خفى ، فتركته المرأة وذهبت الى الفيللا على عجل ، وأغلقت على نفسها حجرتها وأحضرت ورقة وقلما وكتبت ما يلى بيد مضطربة وبخط جهدت أن تخرج به عن مألوف خطها :

« سيدى الأستاذ .. أنت شارع فى الزواج من كريمة محمد بك طلبة ولكن ينبغى قبل ذلك أن تذهب بنفسك كل يوم الى جسر قصر النيل الساعة الخامسة مساء وخصوصا ايام الآحاد » .

ثم كتبت على الغلاف عنوان الخطيب ووضعت الخطاب فيه ، وترددت لحظة رهيبة ثم نادت خادما وامرته بوضع الخطاب فى صندوق البريد ..

★ ★ ★

وجاء يوم الأحد وخرجت الأم وابنتها وحدثت المقابلة مع الأستاذ ، وتم لها ما أرادت من تركها معه ، وذهبت بمفردها الى شيكوريل وابتاعت حاجاتها ولبثت تنتظر حتى حضر الأستاذ وحياة وقد اعتذرت اليهما قائلة : « أوه .. لقد تأخرت عليكما لأن المحل مزدحم كما تريان . لا بأس ، أظن أنه ينبغى أن نذهب الآن . نستودعك الله يا أستاذ .. »

وفى الطريق لازمت المرأة الصمت وقد انتظرت طويلا أن تفاتحها الفتاة بالكلام ، ولكنها ظلت واجمة كأنها تجهل اللغة التى تتكلمها أمها ، واختلست المرأة منها نظرة فألفتها جامدة باردة لا تعير وجودها أدنى اهتمام فانقبض صدرها وتذكرت ـ

آسفة حزينة ـ كيف كانت فى حضرتها لا تمل الحديث والضحك والمداعبة ، وضاق صدرها بصمت الفتاة فقالت تحملها على الكلام : « كيف كان التنزه .. ؟ وماذا قال لك الأستاذ ؟ »

فأجابتها بايجاز قائلة : « تحدثنا أحاديث عامة تافهة لا تستحق الاعادة ! »

ـ وما رأيك فيه ؟

ـ **هو جنتلمان .**

وكانت ترجو أن تعرف من اجابة الفتاة الأثر الذى تركه حديث الأستاذ فى نفسها ولكنها لم تستطع أن تدرك شيئا ..

ولما خلت الى نفسها ذلك المساء تنهدت وقالت « ان حياة لا تحاول اخفاء نفورها منى » .. نفورها ؟ ! وما النفور الى جانب ما صنعت هى ؟ أى فعلة شنعاء ! أى اثم منكر ! انها تعرف نفسها اكثر مما يعرف الناس ، وهى تعلم أنها سيئة التصرف ، كثيرة الأخطاء متسرعة هوجاء ، ولكن لم يسبق لها أن أخطأت خطأ منكرا كهذا الخطأ . وما لها تسميه خطأ ؟ ولماذا لا تسميه باسمه الحقيقى فتقول اثم وجريمة ؟ **فهو جريمة شنعاء لأنه ليس أقل من محاولة تلويث شرف ابنتها والقضاء على مستقبلها فى سبيل شهواتها هى . يا للفظاعة ! لو امكن فقط ان يبقى هذا سرا مكتوما ، ولكنه لن يبقى كذلك لأنها فى الحقيقة وان كانت فكرت تفكير شيطان الا انها دبرت تدبير أطفال ، فالرسالة التى كتبت قد تكفل لها فسخ الخطوبة ، ولكن من يضمن لها ألا يتصل خبرها بزوجها ؟ ومن يضمن لها الا يسأل الرجل ابنته عما جاء فيها ؟ واذا صارحت الفتاة أباها بأنها هى ـ أى أمها ـ التى تركتها مع المحامى ذلك اليوم فما عسى ان يحدس الرجل ؟**

أواه ! قد لا تكترث لغضب زوجها ، ولكنها على وشك ان تفقد محبة ابنتها الى الأبد ، بل ابنها وابنتها معا ، لأنه لا مدحت ولا أى ابن فى الوجود يستطيع أن يبر بمثل هذه الأمومة

المتوحشة . وأحست عند ذاك بقشعريرة تسرى فى جسدها واستولى عليها ذعر لم تشعر بمثله من قبل وباتت فريسة الآلام والمخاوف ..

ولأول مرة منذ أن سمعت بنبأ خطوبة « حياة » اتجه تفكيرها نحو الخير وودت لو تستطيع ان تكفر عن خطيئتها ببذل التضحية الغالية ، وظلت تفكر صادقة مخلصة حتى قطعت عليها تفكيرها الحوادث . فعند أصيل يوم من الأيام رأت المرأة ابنتها ترتدى معطفها وتتأهب للخروج ، فسألتها برقة : « الى أين ؟ » وأجابت الفتاة قائلة : « الى السينما » ، فسألتها بتعجب : « بمفردك ؟ » ، فأجابتها ببرود : « مع الاستاذ عاصم » .

واصاب الجواب منها مقتلا فاستولى عليها ذهول شديد ، وقالت دهشة : « ولكنك لم تستاذنى احدا ؟ » . فقالت الفتاة بشىء من الجفاء : « استأذنت بابا وأذن لى » .

— وهل طلب الأستاذ اليك أن تذهبى معه الى السينما ؟

— نعم — متى .. وأين ؟

— على جسر قصر النيل ذلك اليوم ..

وغشيت عينيها سحابة ظلماء فجمدت فى مكانها لا ترى شيئا . ولما أفاقت كانت حياة قد غادرت البيت ..

★ ★ ★

وتيقظت غريزتها مرة اخرى ، فطغت على عواطف الخير التى تحركت فى قلبها منذ حين قليل ، وخنقتها كما يخنق الماء الأجاج الورد اليانع ، فذهبت توا الى زوجها وقالت له غاضبة : « لم أذنت لحياة بالذهاب مع الأستاذ ؟ »

فقال الرجل بلهجة تهكمية : « ولم لا ؟ أليس هو الصديق الصدوق لأمها وأبيها ؟ »

فاهتاجها الغضب لتهكمه وقالت وهى تنظر الى وجهه نظرة

غيظ وكراهية : « انى أعجب من تصرفك هذا ، أيجوز أن تأذن لهـا باصطحاب الأستـاذ وانت تسـعى لتزويجها من رجـل آخر ؟ »

فهز الرجل كتفيه وقال : « فسخ الرجل الآخر خطبته ! »

فخفق قلبها واصفر وجهها وتساءلت : « ترى هل علم شيئا من الرسالة ؟ » .. واستطرد الرجل قائلا :

ـ عليك تقع تبعة ذلك ياهانم ، فرفضك ـ وما ذاع عنه ـ زهد الشاب فى الفتاة .

ترى هل اكتفى الشاب بالانسـحاب دون ان يطلع زوجها على الخطاب ؟ ليت ذلك يكون ؟ .. وعاد زوجها يقول بقسوة لم يستطع اخفاءها :

ـ وقد أخبرتنى حياة بأنك تركتها مع الأستاذ عاصم ساعة فى قصر النيل فظننت أنك تفضلينه على الشاب الآخر ، فلما استأذنتنى فى الذهاب معه أذنت لها . وقلت لنفسى لا على من هذا ، فعاصم شاب جميل ونابغ فى فنه ..

عنـد ذلك لم تستطع صبرا فولت مدبرة تترنح فى مشيتها كالمصاب فى مقتل .. وتذكرت المثل القائل « على الباغى تدور الدوائر » ، فقد فعلت ما فعلت ، وارتكبت ماارتكبت ،وفقدت ما فقدت لتحافظ على حب الرجل . وها هى ذى توشك ان تفقد ـ بمسعاها هى دون غيرها ـ الرجل وحبـه . يا له من ألم ساخر ! ليتهـا أبقت على الخطيب الأول أو ليتها تستطيع أن تسترده بأى ثمن !

ولم تنم من ليلتها سـاعة واحدة . وعند الصباح حـدثت المحامى بالتليفون وقالت كما تعودت أن تقول دائما « مسـاء اليوم فى عشنا .. هه ! » ، فأجابها بغير ماتعود ان يجيبها به .. قال : « آسف جدا يا عزيزتى .. انا مشغول جدا هـذه الأيام » . وصدمها اعتذاره صدمة شـديدة وخيب آمالها ، ولم يفتها مغزى قوله «هذه الأيام» ،ولكنها لم ترض بالهزيمة،

فقالت بسخرية مريرة : « ومع هذا فأعمالك الكثيرة لا تمنعك من الذهاب الى السينما ؟ » .. ماذا يستطيع أن يقول ؟ قال انه بالأمس فقط كان لديه متسع من الوقت أما الآن فلا .. !

ورأت أنه لا يكلف نفسه حتى الاعتذار المقبول ، ولماذا يكلف نفسه ؟ .. انما يهتم بانتحال الأعذار من يهمه شخص المعتذر . وقد غدت عنده شيئا رخيصا أو لا شيء مطلقا . أواه ! أهكذا تتقلب القلوب ؟ أهكذا ينسى الانسان ؟ أمن الممكن أن يضحى حب كحبهما ذكرى وحلما فى لحظة سريعة ؟ ألا من تدرج ؟ ألا من رحمة ؟

* * *

ولم تنقطع منذ ذلك اليوم المقابلات بين حياة والأستاذ عاصم وشاهدتهما معا متنزهات القاهرة وخلواتها وملاهيها حتى توقعت الأم يوما بعد يوم أن يتقدم الشاب لطلب يد الفتاة ، ولكنه كان أحزم من أن يرتكب مثل هذه الهفوة ، لأنه كان خبيرا بأخلاق روحيةهانم ، عليما بطباعها وعنادها وغرامها به، فرسم فى عقله خطة محكمة وعزم على تنفيذها بارادة لا يثنيه عنها شيء . **ولبثت روحية هانم فى حيرة من أمرها تعانى أشد الآلام النفسية والقلبية ، وتأسى بكراهية ابنتها لها ، وتحديها لعواطفها وتتمزق ارادتها نهب الأمومة المحتضرة والأهواء العنيفة** .. حتى كان مساء لاينسى اذ دخل على هذه زوجها يهز خطابا فى يده ثم يرميه فى حجرها وهو يقول بلهجة الغاضب : «اقرأى!»

فتناولت الكتاب بقلب مذعور متطير ، وقلقت عيناها بين الأسطر الآتية :

« **سيدى المبجل : يصلك هذا الكتاب ونحن نستقل القطار الذاهب الى بورسعيد حيث نبحر الى أوربا أنا وعروسى — كريمتكم — لقضاء شهر العسل . وانى أقر آسفا بانه لم تجر**

العادة بأن تعقد الزيجات على هذا المثال الغريب ، ولكن الظروف الدقيقة التى لا تجهلونها ، لم تدع لى فرصة للاختيار ، وانى كبير الأمل أن تقدروا سلوكى تقديرا عادلا ، ولست أقل أملا فى نيل عفوكم القريب .

« ودمتم للمخلص : عاصم عادل »

زاغت عيناها وحجبت غاشية الغضب الكلمات عن بصرها فظلت منكسة الرأس لا ترى شيئا ولا تعى شيئا والقنوط يتسرب الى قلبها كالغاز السام . ولم تحاول قط أن تقاوم نفسها المنهارة امام زوجها كأنها نسيت وجوده نسيانا تاما ، وكان الشيخ يحدجها بنظرة قاسية متشفية ، فلما وجدها تتهدم وتضمحل ولاها ظهره وذهب .

ولبثت فى غيبوبة الحزن حينا طويلا ثم رفعت راسها المثقل فوقع بصرها على صورتها فى المرآة فارتاعت وجفلت ، لأنه خيل اليها أنها ترى جمالها يذوى وينضب وتغشاه سيماء الهرم !



لافاييت

المركيز الذى هجر نعيم البلاط الفرنسى ليخوض الحروب من أجل الحرية والحق

للمؤرخ الأمريكى : دونالد كيلروس بيتى

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

الحرية .. بين الأمس واليوم !

◆ ما أشد ما تغيرت نظرة الغرب الى الحرية خلال المائة والثمانين عاما التى انقضت منذ اللحظة التى تبدأ بها أحداث هذه السيرة !.. كانت – اذ ذاك – أمريكا ، التى تتزعم اليوم حركة السطو على حريات الشعوب ، تنهض لتحرر نفسها وتأخذ مكانها فى التاريخ ، كدولة ، بعد أن كانت عددا من الولايات المستعمرة ، التى أرهقها عنت بريطانيا والدول الاوربية .. وكانت ، اذ ذاك ، فرنسا – التى تصر اليوم على المضى فى معركة خاسرة ، ضد الجزائر المجاهدة فى سبيل حريتها – بوتقة تتفاعل فيها المشاعر التواقة للحرية والعدالة والاخاء .. حتى ان أبناءها راحوا اذ ذاك يتحمسون للأمة الفتية التى كانت تحارب من أجلها !

وكان « لافاييت » – الذى نسوق اليك سيرته فيمايلى – هو المجاهد الذى اجتمعت فيه حماسة الشعبين اللذين كانا منذ أقل من قرنين رمزا للجهاد النبيل – الجهاد فى سبيل الحرية والحق – فأصبحا اليوم رمزا للجهاد .. ضد الحرية والحق !

محب للحرية .. فحسب !

● يتشاءم كثير من الغربيين من يوم « الجمعة » ، كما يتشاءمون من الرقم ١٣ .. ويتحول التشاؤم الى جزع قريب من الذعر ، اذا اجتمع الاثنان معا ! ومع ذلك ، فان يوم الجمعة الثالث عشر من شهر يونيو سنة ١٧٧٧ ، كان من أسعد أيام الدولة الأمريكية فى فجر نشأتها ! .. ففى ذلك اليوم ، رست عند ساحل (كارولينا) سفينة حربية تحمل العلم الفرنسى ، ثم هبط منها قارب ، أخذ يسعى الى البر ، حتى اذا بلغه ، قفز من مقدمته ، الى رمال الشاطىء الساخنة ، فتى فى التاسعة عشرة من عمره ، أسرع فوضع يده على مقبض سيفه ، وأقسم يمينا ان يعمل فى سبيل الفوز باستقلال أمريكا ، أو يستشهد من أجلها !

وكان هذا القسم هو اول تحية قدمها « لافاييت » للأرض الأمريكية !

ولقد اشتهر «لافاييت» بأنه قائد عسكرى مبرز ، وسياسى عظيم ، ولكنه طيلة حياته ظل يعتد بأنه «مجرد محب للحرية» ! وقد اثبت خلال ثورات تحررية ثلاث — هى حرب الاستقلال الامريكية ، والثورة الفرنسية الكبرى ، وثورة سنة ١٨٣٠ فى فرنسا — ان ابن العز والترف ، يستطيع ان يكون فى طليعة جنود النور والحرية

يهجر الترف لينضم الى الجيش

• **ولد** «مارى جوزيف بول ايف روش جيلبير دو موتييه» — مركيز لافاييت — فى سنة ١٧٥٧ لأسرة من أعرق الأسرات الفرنسية . وما ان بلغ الثالثة عشرة من عمره ، حتى آل اليه ميراث ضخم ، لم يلبث أن ضاعفه بعد ثلاث سنوات ، اذ تزوج من « ادريين دى نوايى » ، فاذا به يغدو من أصهار الأسرة المالكة ، ومن أغنى أغنياء طبقة النبلاء فى فرنسا

وكان بوسعه ان يركن الى حياة العز والترف ، وان يعيش — كنبلاء عصره — متقلبا فى احضان اللهو والنعيم ، بين مقر سيادته الاقطاعية فى الريف ، وبين قصره المنيف فى باريس ، لولا انه كان يشعر بأنه لم يخلق عبثا ، وان حياته لا ينبغى أن تضيع فى خمول .. **كان يحس بفورات غريبة تعتمل فى أعماق عقله ، وقلبه ، ونفسه .. كان ينزع الى حياة لامعة ، لا فى بلاط فرنسا و « صالونات » الطبقة الرفيعة ، وانما .. فى ميادين الحرب والأمجاد العسكرية .** ولقد اشتدت هذه الفورات فى عين العام الذى تزوج فيه ، فاذا به ينتزع نفسه من أحضان عروسه الشابة ، وينضم الى الجيش !

وأخذت اهدافه فى الحياة تتبلور شيئا فشيئا ، فاذا به لا يطمع فى أمجاد عسكرية جوفاء ، وانما كان يهفو الى الحرب فى سبيل

مبدأ . فقد كانت النفوس والعقول ـ فى تلك الفترة من التاريخ الأوربى ، والتاريخ الفرنسى بوجه خاص ـ تطرح عنها ظلمات الاستسلام لطغيان الحكام المغرقين فى الفساد ، الممعنين فى الاستبداد .. **وهكذا اتجه نزوع « العروس » الغنى ، صاحب الألقاب والقصور ، الى مناصرة « الحرية » و « الحق » . وما ان ترامت الى فرنسا ـ فى تلك الأثناء ـ أنباء الحركة التى دبت فى العالم الجديد ، للتخلص من ربقة الاستعمار ، حتى هفت نفسه الى ان يكون جنديا من الجنود المجاهدين فى سبيل الحرية!**

ولقد أثبتت الأحداث التى توالت بعد ذلك ، انه لم يتحمس لحركة الاستقلال الأمريكية لمجرد انها كانت موجهة ضد انجلترا ، الغريمة اللدود لفرنسا فى ذلك الحين .. ولا لنعرة قومية توحى باقصاء انجلترا ، ليخلو الجو فى الدنيا الجديدة لفرنسا وحدها . ولقد كانت هذه العوامل دوافع لكثير من الفرنسيين على التحمس للقضية الأمريكية ، ولكن هذا لم يكن شأنها مع « لافاييت » بالذات . وكان الأمريكيون اول من تأكد من صدق اخلاصه فى كفاحه من اجل الحرية والحق ، فقرر «الكونجرس» الامريكى يوما ، اعتباره وجميع سلالته ـ الى نهاية الحياة على الأرض ـ مواطنين شرفيين فى الولايات المتحدة !

يهربون من ملك فرنسا

• **وكانت** اولى المعارك التى خاضها «لافاييت» ، هى معركة الوصول الى أمريكا .. فمع ان الشعب الفرنسى ، الذى كانت مبادىء ثورته الكبرى قد بدأت تختمر وتفور ، تحمس لنهضة الولايات الامريكية الثلاث عشرة لانتزاع حريتها ، حتى حملته انفعالاته النفسية المكبوتة الى ان يجد فى هذه الحركة انعكاسا لما كان يجول فى نفوس افراده من توق الى التحرر مما كان يحيق به من مظالم وجور ، ومن ثم فانه تحمس لها .. بالرغم من ذلك ، فان الهيئة الحاكمة فى فرنسا اذ ذاك ، رأت غير هذا

الرأى . وبادر الملك لويس السادس عشر باصدار مرسوم منع فيه تكوين الحملة التى كان صهره الشاب يعمل على اعدادها

على ان هذا لم يفت فى عضد المركيز الشاب ، فراح يعمل فى الخفاء ، متكتما خططه وحركاته ، حتى على زوجته نفسها !.. ووفق الى ان يجمع حوله أحد عشر نبيلا آخر ، من التواقين الى المغامرة ،واصطحبوا عسكريا ممن خبروا الحروب وخاضوا المعارك ، يدعى « دى كالب » ، وانطلقوا .. يختبئون فى النهار، ويسعون فى الليل ـ على صهوات الجياد ـ الى البحر .

ولكن غياب هؤلاء النبلاء عن المجتمع الباريسى الراقى ، ماكان ليمر ببساطة ، لا سيما وقد كانت ثمة عيون متربصة . فسرعان ما علم لويس السادس عشر بالنبأ ، فثارت ثائرته ، واطلق فى أثر المغامرين الذين خالفوا ارادته ، كوكبة من الفرسان ، كلفهم بأن يعيدوا النبلاء الهاربين الى باريس ، وان يلقوا القبض على « لافاييت » !

واستطاع النبلاء الشبان أن يخدعوا مطارديهم ، وان يتخطوا الحدود الفرنسية الى اسبانيا ، فيصلوا الى ميناء (لوس بارساجيس) ، حيث كانت فى ارتقابهم سفينة اشتراها « لافاييت » وأعدها لهذا الغرض ، واطلق عليها اسم « النصر » !

واذا كان المغامرون الشبان قد ظنوا انهم قد أفلتوا ، فانهم لم يلبثوا ان تبينوا خطل ظنهم . اذ أن غضب لويس السادس عشر لم يقف عند الحدود الفرنسية ، أو عند حافة البحر .. بل انه اطلق أسرع سفنه فى اثر « النصر » تتعقبها وتحاول ان تصدها عن غايتها .. وفى الوقت ذاته ، كانت السفن الانجليزية تتربص بدورها لسفينة لافاييت ، تحاول الايقاع بها .

خطاب الى الزوجة الشابة المهجورة

• **ولكن** الحظ كان فى ركاب المركيز الشاب ، فاستطاعت « النصر » ان تفلت من الذئاب التى انطلقت فى اعقابها ، او

تربصت فى طريقها .. وبعد رحلة استغرقت شهرين مفعمين بالاخطار ، وصلت السفينة الى ساحل (كارولينا) الجنوبية ، واستقل « لافاييت » زورقا سعى به الى الشــاطىء ، حيث أقسم اليمين .

وكان اول ما شغل به ــ بعد أن اطمأن الى وصوله الى هدفه ــ هو الحنين الى زوجته وأولاده .. وكان قد أرسل خطابا الى زوجته خلال رحلته ، ولكنه خشى أن يكون قد وقع فى أيدى الانجليز . لذلك فانه لم يكد يصل الى مدينة (تشارلستون) ، حتى بادر الى الكتابة مرة أخرى ، فى ١٩ يونيو سنة ١٧٧٧ . وقد جاء فى رسالته :

« .. **ان** لى من الثقة فى كوكب سعدى ، ما يجعلنى آمل فى انها (يعنى رسالته الأولى) ستصل اليك . فلقد والانى هذا الـكوكب السعيد ، الى درجة أذهلت كل امرىء هنا . فثقى انت الأخــرى به ، واطمئنى الى انه خليق بأن يسرى عنــك كل مخاوفك .

« لقد هبطت الى البر ــ هنا ــ بعد ان جست بالسفينة أياما ، محاذيا ساحلا زاخرا بالسفن المعادية . واذ وصلت ، قال كل أمرىء ان السفن الحربية البريطانية ستستولى على سفينتى لا محالة ، اذ كانت ثمة اثنان منها ، تسدان الطريق الى المرفأ . **ومن ثم فاننى ارسلت الأوامر الى الربان ــ برا وبحرا ــ لـكى ينزل الرجال الى الشاطىء ، ثم يشعل النار فى السفينة ، اذا لم تكن الفرصة قد ضاعت . وبفضل حظ من أعجب الحظوظ ، هبت عاصفــة اضطرت السفينتان البريطانيتان ــ بسببها ــ الى أن تخرجا الى عرض البحر فترة قصــيرة .. واذ ذاك ، دخلت سفينتى المرفأ فى الظهيرة ، دون ان تصادف صديقــا أو عدوا !**

« أشعر بأننى راض كل الرضا عن الاستقبال الذى لقيته هنا ، وان لم استحسن أن اكشف أية تفصيلات عن تدابيرى وخططى ،

اذ أننى أرجو أن اجتمع بـ « الكونجرس » اولا . وآمل ان اذهب الى (فيلادلفيا) بعد يومين . ولما كانت طريقنا تمتد لأكثر من مائتين وخمسين فرسخا — فى البر — فسنقسم انفسنا الى جماعات صغيرة . وقد ابتعت جيادا وعربات خفيفة للرحلة ..

« قبلى هنرييتا ، ودعينى أقبل فى حنان اولادنا .. ان أبا هؤلاء الأطفال البائسين جواب آفاق ، ولكنه فى قرارة قلبه طيب وأمين .. انه أب صالح ، يحب أسرته أعظم الحب .. وانه زوج صالح ، يحب زوجته بكل قلبه !

« اذكرينى لأصدقائك ولأصدقائى ، ولجماعتنا الحبيبة ، التى كانت يوما جماعة البلاط والحاشية ، ولكنها بمرور الوقت أصبحت جماعة .. السيوف الخشبية ! .. اننا معشر انصار الحرية نرى ان فى هذا خيرا .. لقد اكتهل الليل . والحر لايطاق .. ان الحشرات تنهشنى ، ومن ثم ، فها أنتذى ترين أن لأفضل البلاد ، عيوبا ومساوىء .. »

« لافاييت » يلتقى بواشنطن



• **ولكنه** لم يرحل قبل عشرة ايام او أكثر من كتابة هذه الرسالة .. ذلك لأن آمال «الكونجرس» كانت قد خابت فى المتطوعين الذين كانوا يتدفقون من اوروبا ، وهم يجرون خلفهم ألقابا ضخمة ، وسمعة مدوية . فلقد تبين أن معظم الضباط الأجانب ، انما جاءوا طامعين فى استغلال الفرص .. لم يكن منهم الا كل مفلس ، أو هارب من الدائنين ، أقبل ينشد الثراء ،

او يقتنص القرص الى الجاه ، أو يلوذ بالبلد البعيد من مطاردة الدائنين .. لذلك تلكأ « الكونجرس » فى الاكتراث بلافاييت وزملائه، فاذا معظم هؤلاء الزملاء يغضبون لكرامتهم ، فينكصون على اعقابهم محنقين !

ولكن « لافييت » تشبث بالصبر . وفى الرابع من شهر يوليو ، انطلق ـ اخيرا ـ على صهوة جواده ، خلال الغابات ، فى طريقه الى معسكر قيادة « جورج واشنطن » .

وفى فيلادلفيا ، التقى الرجلان : النبيل الشاب الظامىء الى الجهاد من اجـل الحرية واستقلال الأمة الناشئة .. والشيخ النبيـل ـ بفطرته وعواطفه ـ الذى تولى قيـادة مجاهدى المستعمرات الثلاث عشرة . ووقف كل منهما يتأمل الآخر ، ويسبر غوره ! واستطاع الشيخ المحنك ان يكتشف فى الشـاب روحا متقدة ، مخلصة .. كما استطاع الشاب ان يعزز الثقة فى شخصه ، اذ عرض خدماته دون ما مقابل من اجر او امتياز ! فعين قائدا على رأس القوات التى اقبلت من القارة الأوربية !

المركيز .. صديق الجنود !

• **وسرعان** ماتبخرت البقية الباقية من هواجس «واشنطن» نحو «الفتى» ـ كما اصبح يلقب لافاييت ـ عندما رآه فى معركة (براندیواين) الحامية ، يندفع نحو البريطانيين ، وهو الذى لم يكن قد خاض من قبل معركة ، ويواصل حملاته عليهم ، فى الوقت الذى كان سواه قد آثر الانسحاب ، ويمضى فى القتال ـ رغم انه جرح فى قدمه ـ حتى فقد وعيه ، ونقل من الميدان محمولا على الاكتاف !

ومنذ ذلك اليوم ، الذى اراق فيه « لافاييت » دمه ، اكبره الأمريكيون ، ورفعوه باعجابهم الى أرقى مكانة .. فكانت جموعهم تحييه اينما ســار .. وعند ما ذاع انه كان يتلهف شوقا الى رسالة من زوجته ، التى كانت توشك ان تضع له طفلا جديدا ،

شعر كل جندى وكل زوجة جندى ، بنفس اللهفةوعين القلق
ثم جاء معسكر وادى (فورج) - الذى حشدت فيه قوات واشنطن - فاذا المركيز الشاب يقضى ليلة فى جولات يتفقد فيها الحرس ، ويعنى خلالها بتعرف حال كل جندى ومطالبه، حتى أطلق عليه الرجال لقب « صديق الجنود » .. وتوثقت الاخوة بين لافاييت وواشنطن ، عقب معركة (مونماوث) ، التى تقاسما شرف الانتصار فيها !

بين الاعتقال والانتصار

• وفى سنة ١٧٧٩ ، عاد « لافاييت » الى فرنسا ليستحث قومه وحكومته على مضاعفة سرعتهم ونشاطهم فى مناصرة الدولة الناشئة ، التى كانت تناضل فى سبيل استقلالها . **ولكنه لم يطأ ارض وطنه ، حتى اعتقل متهما بعصيان أوامر مليكه .. وحددت اقامته فى قصره ، وبدلا من ان ينفض عنه الناس ، اذا بنبلاء فرنسا وعظمائها يتوافدون على القصر .. واضطر لويس السادس عشر - ازاء هذا الاجماع - الى ان يدعوه ثانية الى البلاط . وهناك ، سنحت الفرص للشاب كى يواصل الالحاح والالحاف ، محاولا ان يخرج الملك عن تردده ازاء مناصرة الولايات الامريكية**

وأخيرا ، استطاع « لافاييت » ان يطمئن الى نجاح جهوده ، فاذا الحنين الى النضال لا يدع له سبيلا الى اطالة البقاء فى وطنه، وبادر يودع زوجته ، ويقبل ابنه الوليد « جورج واشنطن لافاييت » .. ورحل فى ابريل سنة ١٧٨٠ ، مصطحبا النجدة والامدادات .

وكان الجيش الامريكى قد تضاءل فى تلك الاثناء ، فأصبح ٦٠٠٠ رجل مهلهل الثياب ، جائعين ، مثخنين بالجراح ، لاينفكون عن المطالبة بأجورهم ، دون جدوى ، فقد كانت البلاد موشكة على الافلاس ، وكان الأمل يزداد خبوا واضمحلالا ..

فلما بدت قطع الاسطول الفرنسي ــ عند الافق ــ ذكت جذوة الامل الخابى فجأة ، فتوهجت وامتد ضياؤها فشمل البلاد .. وادرك « واشنطن » ان « الفتى » قد وفق ، فما ان رآه حتى استقبله ودموعه تجرى تأثرا ، واحتضنه فى حب اكيد .. حب رجل لرجل ، وحب وطن لوطن ، ثم .. حب مشترك للحرية والحق !

يترك النصر لسواه !

• **وتولى** « لافاييت » قيادة المجاهدين ، فى جبهة (فرجينيا) .. وكان غريمه « جنرال » بريطانى واسع الخبرة ، لم يعرف الهزيمة قط . واضطر « الفتى » الى التقهقر أمام الذئب العجوز « كورنواليس » ، الذى راح يتعقبه وهو يضحك هاتفا فى نشوة : « لن يستطيع الفتى ان يفلت ! » .. ولكنه استيقظ فجأة من نشوته ، اذ ألفى نفسه محصورا فى شبه جزيرة ، عند (يوركتاون) ! .. فلقد تسلل « الفتى » تحت ابط « الجنرال » الخبير ، بعد أن استدرجه . وبعد ان كان مطاردا ، اذا به يحاصر قوات الجنرال فى « عنق زجاجة » .. ولم يكن من منفذ أمام البريطانيين سوى البحر .. ولكن الأسطول الفرنسى اسرع الى (تشيسابيك) ، فسد فوهة الزجاجة !

وكانت أعظم الفرص سانحة امام « لافاييت » .. فرصة الفوز بمجد يطبق الآفاق . ولكن الحب ــ لدى الشاب ــ كان أقوى من الفخر ، والقضية افضل من المجد ، ومن ثم فقد آثر ان يمسك عن الهجوم ، لكىلايستأثر بالفضل ، واوفد من استدعى « واشنطن » ، الذى كان يتربص للاعداء اذ ذاك ، فى (نيويورك) ! .. وما ان اقبل « واشنطن » ، حتى تنحى « لافاييت » عن مكانه ، وقنع بأن يكون قائد كتيبة ، تقدمها بنفسه فى معركة مع البريطانيين بالسلاح الابيض .. وكانت

تلك المعركة هى آخر معـارك الثورة الأمريكية ، وقد كاد « واشنطن » ان يتساهل فيفسح الطريق لكورنواليس كى ينسحب بجنوده مغادرين الأراضى الأمريكية ، ولكن « الفتى » أصر على ان لا يدع البريطانيين حتى يسلموا تسليما تاما ، دون قيد ولا شرط

فى سبيل حقوق الفرنسيين

• **وآن** للمركيز الشاب أن يعود الى « آدريين » زوجته الجبيبة ، والى اطفاله الصغار .. ولكن عودته لم تكن تعنى الاستسلام الى الدعة ، والاستغراق فى الترف .. بل انه علق فى صدر بهو قصره — فى باريس — نسخة من وثيقة « اعلان استقلال امريكا » ، وترك الى جوارها فراغا . وكان اذا سئل عن سر هذا الفراغ ، أجاب : « انه محجوز لوثيقة اعلان الحقوق الفرنسية » !

وبدأ وفريق من النبلاء دعوة للاصلاح الداخلى فى فرنسا .. الاصلاح الذى كان يقضى — أول ما يقضى — على امتيازات النبلاء أنفسهم ! .. وكان هـذا الفريق هو أول من دعا الى المبادىء الثلاثة التى اتخذتها الثورة الفرنسية شعارا ، فيما بعد : « الحرية ، والمساواة ، والاخاء » . ومن اجل هذه الدعوة التحررية ، اطلق على « لافاييت » وزملائه ، فى البلاط الملكى ، اسم « الامريكيين » .

وما لبثت غيوم الثورة الفرنسية ان بدأت تتلبد فى الأفق ، واذ ذاك ، اخذت الأفكار التحررية واصحابها يلتفون حول المركيز الشاب ، الذى راح يحمل علانية على ما كان يتفشى فى طبقة النبلاء — الطبقة التى ينتمى اليها — من بذخ وفساد .. وانطلق يدعو الى معاملة نزلاء السجون على أسس من الروح الانسانية ، ويدعو الى اعادة الحريات المدنية الى البروتستانت ، الذين كانوا مضطهدين فى فرنسا .. رغم انه كان كاثوليكيا !

ثم توج هذه الجهود ، بأن نشر وثيقة لحقوق الانسان ، فاذا المدينة تتخاطف نسخها ، واذا المبادىء التى اشتملت عليها تروج فى كل الأوساط والأحياء الباريسية .. ولم تنقض أيام ثلاثة ، حتى هاجم أهل المدينة سجن (الباستيل) المنيع .. مركز أبشع ارهاب عرفته الانسانية فى العصر الحديث !

وأصبح عامة الناس فى فرنسا يدينون بالاعجاب لهذا الشاب وحده ، دون طبقة النبلاء بأسرها ، حتى انهم اوشكوا أن يعبدوه ، وحتى انهم ما كانوا ليترددون عن ان يستجيبوا لرغبته ، اذا ما توسط لانقاذ بعض المتعوسين الذى جنى عليهم انتمائهم الى هذه الطبقة !

الشعب يطالب برأس معبوده

• **وكان** « لافاييت » اذ ذاك يتولى قيادة الحرس الوطنى الباريسى ، ولو شاء ــ فى تلك الفترة بالذات ــ لأصبح صاحب الأمر المطلق ، والسلطان الأوحد فى المدينة . ولكنه كان .. « مجرد محب للحرية » ! .. كان كل همه ان يحمى حقوق الأقليات .. حتى حقوق الملك الغبى الأرعن !

وما كان انبراؤه للدفاع عن حرية الملك ، مراعاة منه لشخص الملك ومركزه ، وانما كان يصدر فى ذلك عن روح الانتصار للضعيف .. وكان الملك ضعيفا .. شابا حمل أوزار الملوك الذين سبقوه ، وبهر عينيه الفساد والنفاق اللذان نشأ فى احضانهما ! .. ولكن الشعب الهائج لم يستطع ــ فى غضبته ــ أن يقدر للافاييت وجهة نظره هذه ، فطالب برأسه ..

واضطر « لافاييت » الى ان يفر الى المانيا .. ولكن المانيا تلقته كثائر يؤلب المحكومين على الحكام ، فسجنته !

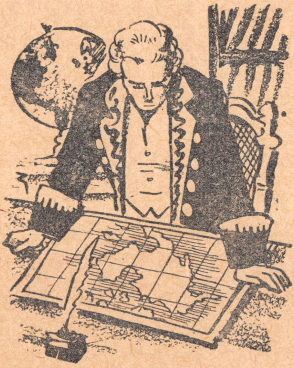
وكان نابليون قد تولى السلطة فى فرنسا ، عند ما قدر للافاييت ان يسترد حريته ثانية ، فما ان عاد الى وطنه حتى رد اليه نابليون أملاكه . **بيد ان هذا لم يصرف المركيز الثائر**

عن حبه الأول .. حب الحرية والحق . فلم يكن يتورع عن ان يحمل على ديكتاتورية نابليون واستبداده . وظن العاهل الفرنسى ان فى وسعه ان يبتاع « لافاييت » ولكنه لم يفلح !

وهوى نابليون عن عرشه ، فعاد آل «بوربون» الى العرش، ثم أقصوا عنه من جديد .. وأخذ مقام « لافاييت »فى فرنسا يزداد تعذرا .. ولكنه ظل مكينا فى حبه للحرية ، صامدا فى مناصرته للحق ، وان راح يبحث لنفسه عن وطن آخر !

وكانت الجمهورية الناشئة ، التى ساعد على تحررها وقيامها ، هى أول قبلة يولى وجهه شطرها

وشعر « لافاييت » بأنها اجدر الأوطان به ، فتولاه الشوق الى الأرض التى روى تربتها يوما بدمه ! .. ونمى أمر هذا الحنين الى « الكونجرس » الامريكى ، فعرض ان يوفد سفينة حربية الى فرنسا لتقل « ضيف الشرف » تكريما له . ولكن « لافاييت » ظل يكره المظاهر ، ويصر على التواضع ، ومن ثم فانه رحل على سفينةعادية، فهبط (نيويورك) فى ١٤ اغسطس سنة ١٨٢٤ ، حيث استقبل استقبالا أثلج صدره .



وراح يجوس خلال الجمهورية الناشئة ، من (بورتسماوث) الى (تشارلستون) ، ومن (سينبسيناتى)الى (نيواورليانز) وكأنه بطل يعود مظفرا من ميدان القتال. واجتمع «الكونجرس» بمجلسيه ، فى جلسة مشتركة فقرر منح البطل مائتى الف دولار ، كتعويض عن النفقات التى جاد بها بسخاء لنصرة قضية الحرية الأمريكية

سر الصندوق الغامض

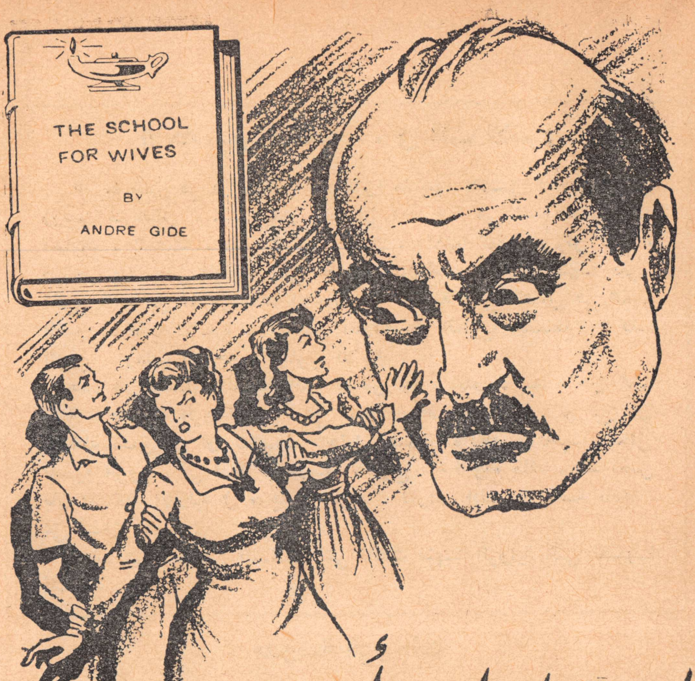
• **وهكذا** كان « لافاييت » موضـع تكريم اينما ذهب .. ولم يقتصر الأمر على تزاحم الزعماء والكبراء على تقديم مظاهر الود والتقدير اليه ، بل ان الشعب كان يحتشـد فى كل مكان لتحيته .. وكان هو يقبل على هذه الحشود فيحيى أفرادها وكأنهم اخوة وصحاب .. وحدث ان شاهد فى (بروكلين) طفلا فى السادسة من عمره ، اندس وسط الجموع متحمسا لرؤيته، فأقبل عليه ، ورفعه بين يديه وقبله .. وقدر لهذا الطفل ان يغدو فيما بعد أعظم شعراء الطبيعة فى أمريكا ، وهو « والت ويتمان » .

ثم حن الى فرنسا ، فاذا أمريكا تودعه وداعا شعبيا حافلا .. وكان بين الأمتعـة التى رفعت الى ظهر البـاخرة لترافقـه ، صنـدوق ثقيل الوزن ، محكم الاقفال ، ظـل أمره سرا على الجميع .

... ...

وعند ما وصلت أنباء وفاة « لافاييت » الى أمريكا ـ وقد بلغ السابعـة والسبعين من العمر ـ أمر رئيس جمهوريتهـا « جاكسون » بأن تقدم لتكريمه من المراسم العسكرية ما لم يقدم لغير « واشنطن » عند وفاته .

وكشف ـ اخيرا ـ سر الصندوق الذى اصطحبه من امريكا فى عودته من رحلته الأخيرة ، فاذا به ملىء بتراب من الارض الامريكية .. واذا « لافاييت » قد اعده ليثوى فيـه جثمانه عقب وفاته .. وقد كان !



اعترافات أسرة

(مدرسة الزوجات)

أروع ما أنتج الكاتب الفرنسي الأشهر:

اندريه جيد

الأحاسيس الخفية .. فى قلب الأسرة

◆ ما السر فى أن زواج الحب كثيرا ما يبوء بالفشل ؟.. وهل كل زوجين مترابطين ، سعيدان متحابان ؟.. وما هى تلك العواطف الدقيقة ، الرقيقة ، التى لا ترى بالعين ، ولكنها تملأ جو كل بيت ، فتشعر بها بعض القلوب التى تضمها جدرانه ، وتتغافل عنها قلوب أخرى ؟.. بل ما هى تلك الأحاسيس الخفية التى تتفاعل فى القلب الكبير – قلب الأسرة – فتعكس آثارها على القلوب الصغيرة : قلب الزوج ، وقلب الزوجة ، وقلوب الأبناء ؟

هذه هى المشكلة الدقيقة التى تعرض لها « أندريه جيد » حين كتب قصة « مدرسة الزوجات » ، على لسان امرأة متزوجة .. ثم تبين ان المشكلة أعمق من أن تتكشف بتحليل نفسية الزوجة ، فأقبل يحلل نفسية الزوج ، فى قصة « مدرسة الأزواج » .. ومع ذلك ، فقد أحس بأن المشكلة الأزلية فى حاجة الى مزيد ، فأردف القصتين بقصة ثالثة ، على لسان الابنة !

وهذه هى القصص الثلاث التى تألفت منها الرواية التى نقدمها لك معا

مدرسة الزوجات

اول اغسطس سنة ١٩٢٨

◆ **سيدى** : رأيت – بعد كثير من التردد – أن أرسل اليك اليوميات التى خلفتها أمى . ولقد توفيت الأم فى ١٢ اكتوبر سنة ١٩١٦ ، فى مستشفى قضت فيه خمسة أشهر فى العناية بصرعى الأمراض المعدية . فاذا رأيت ان الاطلاع على هذه الصفحات قد يعود بالنفع على بعض الشابات ، فانشرها ، واطلق عليها اسم « مدرسة الزوجات » ، اذا لم تر ان من غير اللائق استعمال هذا الاسم ، بعد أن اطلقه « موليير » على احدى مسرحياته

« جنيفييف د . »



٧ اكتوبر سنة ١٨٩٤

• **صديقى :** يبدو لىاننى انما اكتب اليك انت ، فما اعتدت قط ان احتفظ بيوميات ، أو أن أكتب شيئا ، اللهم الا بضع رسائل قلائل .. ولكنى اذا مت قبلك ـ وهذا ماأرجوه ، لأن الحياة بدونك صحراء مقفرة ـ فأرجو أن تقرأ هذه السطور . ولكن ، كيف أفكر فى الموت والحياة كلها منبسطة أمامنا ؟ .. لقد لاحت لىالحياة ـ مذ أحببتك ـ جميلة ، نافعة ، ثمينة ، حتى اننى أبغى أن أصون كل صغيرة من دقائق سعادتى

وأى شىء أملك أن أفعله فى كل يوم ، بعد اذ فارقتنى ، سوى أن أتمثل وجودك ، وأعيش ـ مرة أخرى ـ فى تلك اللحظات التى انطوت سراعا ؟! .. لقد كنت اشعر بالتعاسة ـ قبل أن ألقاك ـ اذ أرى حياتى بلا هدف . فما كانت لترضينى حياة بلا غرض مجرد من الأنانية ! .. ولقد فكرت فى أن أغدو ممرضة أو راهبة ، ولكن والدى عارضا فى ذلك . وكانا على حق حين فكرا فى ان كل هذه النوازع لن تلبث ان تتلاشى عندما التقى بالرجل الذى ترتاح اليه نفسى . ترى لماذا يأبى أبى ان يفهم وأن يقر بأنك انت ذلك الرجل ؟

يا الهى ! .. ساعدنى حتى لا أعصى والدى ، فأنت تدرى اننى أحب روبير ، ولا استطيع أن أكون لسواه ! .. انما يعجبنى فيه انه لا ينسى كرامته وقدر نفسه قط !

• **١٢ اكتوبر سنة ١٨٩٤ :** سافر روبير اذ سمع عن أمه

أنباء سيئة .. لكم يختلف فى تصرفاته عن بقية الرجال ، فان تصرفاته « مبتكرة » .. « فذة » ، « خاصة » ، « ممتازة » .. وهذه أصلح الكلمات للتعبير ، وكم كنت أتمنى لو أنها لم تستخدم فى وصف انسان قبله ! .. **ولعل امتيازه هذا ، راجع الى شخصيته .. الى نفسه وحدها . فهو لا يستحيى من أهله ، ومن انهم ينتمون الى الطبقة المتوسطة . ولقد كان ابوه من رجال الاعمال ، ومات مخلفا اياه فى طفولته .. وانى لأراه شديد الشغف بأمه ، وقد قال لى فى باكورة علاقتنا : « انها الشخص الوحيد الذى يحق لك ان تغارى منه ! »**

لكم أصبحت أسأم المجتمعات ، وأفضل أن أمكث فى خلوة هادئة مع روبير .. لقد كنت أحفل كثيرا بامتداح الناس لموهبتى فى العزف . اما الآن ، فلم أعد أهتم لذلك ، لأن روبير لا يميل الى الموسيقى .. انما هوايته الرسم ، وان لم يجد وقتا لممارسته . ويبدو لى انه ميال الى الاشتغال بالسياسة ! .. والذى احبه فيه ، هو انه لا يستطيع العيش بدونى ..

لقد انقضت ستة أشهر وثلاثة أيام ، منذ التقيت به فى ٧ أبريل سنة ١٨٩٤ ، حين كنا فى (فلورنسا) . وكنا قد تركنا والدتى فى (باريس) ، ونزلنا فى (بنسيون) ، كان نزلاؤه يتناولون الطعام جميعا على مائدة واحدة .. وكان هناك ثلاثة من السويديين ، واربعة من الامريكيين ، واثنان من الانجليز ، وخمسة من الروس ، وسويسرى واحد . وكنا الأسرة الفرنسية الوحيدة بينهم .. كما كان روبير اكثرهم أناقة ، وافضلهم صفات . ولكن أبى كان يضيق به . وقد زاده فتورا نحوه ، تناقض آرائهما السياسية !

على ان النقرس لم يلبث ان اضطر والدى الى ملازمة الفراش ، واذ ذاك أتيح لى أن أقابل « روبير » وحدى ، وأن أتحدث اليه ، وأن أعجب به . على اننى أخفيت كل هذا عن أبى .. ولقد اعترفت للقس - بعد ذلك - بالأمر ، وبالعلاقة التى

ربطتني بروبير ، ولكنه اكد لي أن ابي لن يقر هـذه العلاقة ، لما بينه وبين روبير من اختلاف في الآراء !

ولقد استأذن روبير والدى فى ان يزورنا ، بعد عودتنا الى (باريس) .. ودهشت اذ فوجئت به يطلب يدي بعد زيارتين اثنتين !

• **١٣ اكتوبر** : وصل اليوم خطـاب من روبير ، باسم أمى قال فيه :

« ارجو ان تصفح عنى ايفيلين ، فلست أحب أن أحدثهـا عن أحزانى .. لقـد ماتت من رأيت النـور ــ لأول مرة ــ فى احضانها وما دمت قد حرمت منها ، فانى أرجو ان تسمحى لى بأن اناديك بيا .. أمى »

يا حبيبى البائس ، لكم اود أن أشاطرك حزنك . ولـكننى لا اسـتطيع أن أشقى ، لأن كل شعور أشـاطرك اياه ــ حتى الأسى ــ يملأ فؤادى غبطة وهناء !

• **١٥ اكتوبر** : عاد روبير .. لكم هو جميل ومهيب فى حزنه! .. لقد تركت له امه ثروة ، ولكن .. كم يؤسفنى أن الأب بريدل ــ الذى ينفر منـه أبى ــ قـد علمنى ان المـال ليس وسيلة للسعادة ، وانما هو يجلب معه عبء العمل على انفاقه فى الخير !

ان لوالدى آراء غريبة ، هى التى منعته من ان يحبذ خطبتى ، وان لم يعارض فى زواجى وسعادتى ، مكتفيا بأن يقول : « كل ما أتمناه هو الا تندمى فيما بعد ! »

• **١٩ اكتوبر** : سألت أبى عما يأخذه على روبير ، فقال: « لست ارى فيه عيبا ، ولكنى لا أحبه .. على انه استولى على مشاعرك ومشاعر أمك والأب بريدل ! »

• **٢٦ اكتوبر** : يرافقنى روبير ــ رغم حزنه ــ فى زياراتى للأصدقاء ، وفى ترددى على الملاهي ، والحفلات ، والحوانيت ..

ان حبه أقوى من حزنه!.. انني لأخال ـ احيانا ـ انه يقدرني فوق ما استحق ، ولكني سأحاول ـ مااستطعت ـ أن أرقى بنفسي الى المستوى الذي يراني فيه .. وهو بصبره واناته معي ، يبذل لي أكبر العون!

• **٣٠ اكتوبر** : ما أعجب روبير ! .. انه يعرف كل المشاهير والمبرزين ، في كل طبقة ، وانه لينتزع الاعجاب من كل انسان، لقدرته على الحديث في كل موضوع ، وكأنه قد توفر على دراسته خصيصا!

وهو يسعى الى ان يفاجىء أبي بأن يحصل له على وسام ، وهو أمر يراه سهلا ، لأنه يعرف السكرتير الخاص لوزير التربية ! .. وكم يعجبني منه أنه يفكر في أبي ، ولا يطلب الوسام لنفسه ! .. انني حين أسمعه يتكلم الى المبرزين من القوم ، وهو يقدمني اليهم ، اتبين جهلي ، واخشى أن أخزيه !
.. ومن ثم فاني أسأله أن يرشدني الى الكتب التي يجب أن ألم بها ، ولكن .. متى ؟ . لقد قررنا ان يكون الزفاف في نهاية شهر يناير ، وسنذهب بعده مباشرة الى تونس ، حيث يتفقد روبير بعض مصالح زراعية له هناك .

• **٣ نوفمبر** : دعونا الرسام « بورجفايلسدورف » للعشاء بالأمس . انه شاب فقير ، محترم ، يعطف عليه روبير ويبتاع كل لوحاته من قبيل الاحسان . وكنت قد صارحت روبير بأن من مجانبة الحكمة ان يشجع فاشلا لا أمل فيه ، كهذا الرسام . ولكن روبير احتد في دفاعه عنه . حتى اذا رأى الدموع تترقرق في عيني ، عاودته رقته ، وقبلني ، واقترح أن أتعرف الى الرسام . كي أحكم له أو عليه . فوافقت ، ودعوناه . ولقد تبينت صواب روبير ، فبدلا من أن أرى شخصا بوهيميا ـ كما توقعت ـ اذا بي أجد سيدا مهذبا ، يكاد يكون انيقا ، بادي الأدب وحسن الخلق وسحر الحديث

• **٢٢ نوفمبر :** أبديت اليوم ضعفا .. وهل أقوى على أن أرفض طلبا لروبير ؟ .. **لقد فاجأنى وانا اكتب يومياتى ، فأصر على ان يقرأها ، وحملنى على أن أعده بأن لا يكتم أحدنا عن الآخر سرا ! .. وبهذا تلاشى السحر الذى كنت ألقاه فى شغفى بالكتابة !**

ولم يكتف بهذا ، بل سبب لى ألما ثانيا ، حين أبى ان يطلعنى على يومياته هو .. ومع ذلك ، فلا مناص من أن أكف — من الآن — عن الكتابة ، اذ لم يعد ثمة غرض أصبو اليه من ورائها ! .. لقد كنت أطمع فى ان يقرأ روبير يومياتى ، بعد وفاتى !

٢ — بعد عشرين عاما

أركاشون فى ٢ يوليو ١٩١٤

• **أحضرت** معى هذه الكراسة ، لأنفق فيها الوقت ، فى فترة العلاج .. وان لم اعد اكتب من اجل روبير ، لانه يعتقد انه منذ الآن يعرف كل ما يمكن أن يخالجنى من مشاعر أو افكار ! .. على أن الكتابة ستساعدنى على ان اتبين حقيقة ما يدور بذهنى من سوانح وشوارد ! .. **والحق اننى أكتب ما أود أن يقرأه ابنى وابنتى ، لقد أصبح تقديرهما اياى، هو أعز ما اصبو اليه . وانى لآمل ان يجدا فى هذه اليوميات تبريرا — أو تفسيرا ، على الأقل — لتصرفاتى ، اذ انهما سيلقنان ، دون شك ، كيف يقسوان فى الحكم على !**

اننى اذ اهجر روبير ، اضع نفسى فى موضع المخطئة ، امام الناس ، على أننى أخشى ان يحرمنى من الحياة مع ولدى تحت سقف واحد ، وليس بوسعى أن أقبل الحياة بعيدا عنهما .. ومع ذلك ، فليس فى استطاعتى أن أعيش مع روبير ! .. اننى — اذ أكتب هذا — أشعر بكراهية نحوه .. ان له أسلوبا فى الحديث عن الواجبات ، يجعلنى امقت كل مايتعلق بالواجبات .. وطريقة فى استغلال الدين ، تلقى الشك على كل دين ،

وبراعة فى العبث بالمشاعر النبيلة تجعل المرء يشمئز من هذه المشاعر

• **٣ يوليو :** كيف أصبحت اخطاء روبير لاتطاق، فى نظرى؟.. أيكون ذلك لأن الأمور التى تضايقنى منه اليوم، هى عينها التى فتنتنى منه بالأمس؟ .. اواه! من اية سماء هويت؟! .. ان أسعد الذكريات غدت اليوم مشوهة، حتى اننى لا أكاد أتعرف الى ما كتبته فى هذه الكراسة منذ عشرين عاما! .. اننى أحاول تعقب تاريخ ما أعانى منه من ضياع ثقة .. **لقد بدأ ذات يوم، بعد زمن غير طويل من زواجنا، حين اعجب ابى بنظام روبير فى تنسيق اوراقه، فأجابه روبير فى ابهام واستعلاء . ولم اعلق على الأمر أهمية اذ ذاك، ولكنى لم ألبث أن علمت ان هذا النظام مقتبس عن متجر معين لأدوات الكتابة، فلم أر مبررا لما أبداه روبير من استعلاء وضن، كأنه مخترع أو مبتكر أنفق جهدا فى الكشف عن هذه الطريقة، فهو يستنكر أن يبوح بها جزافا!**

ان الذى يضايقنى هو ان أبى، الذى كان يبدو واضح البصيرة – فى البداية – عندما كنت مبهورة البصر، والذى كانت آراؤه عن روبير تحزننى، خلال الخطبة، أصبح الآن يميل اليه، ويقف فى صفه فى كل خلاف يدب بيننا! .. انه طيب، فى حين ان روبير ماهر . أما أمى .. ان هناك أياما أشعر فيها بوحدة قاسية، حتى اننى لم أعد أقول مابخاطرى لغير هذه الكراسة! .. ان روبير يظهر انه يعرفنى، فلا يخطر له ان لى حياة خاصة، غير حياته . انه لم يعد يرانى سوى عالة عليه، وجزءا من رفاهيته فحسب!

• **٥ يوليو :** ما ان يظهر شخص جديد فى حياتنا، حتى يحتويه روبير فى قبضته .. اننى ألمس فى قرارة عقله رغبة فى أن يجعل الغير يشعرون بأنهم مدينون له بالفضل . ولكم كانت تفلت منه، فى أوائل زواجنا – قبل ان يتعلم كيف يأخذ الحذر

مني ـ عبارات مثل : « ما أقل الجزاء الذى أكافأ به عن مشاعرى الطيبة » ، وكأنما الشعور الرقيق لا يبدى الا طمعا فى جزاء !.. كان من البراعة بحيث يظهر انه يخدم الناس ، فى حين انه كان يفيد منهم !

• **٦ يوليو :** اظن ان « مارشان » هو الذى نبهنى الى ان « جوستاف » ، ابنى ، قد ورث خصال ابيه ، اذ ان عيوب روبير تظهر فى الصغير الذى حولت اليه كل أفكارى وآمالى ، بعد أن فقدت حبى لزوجى .. **فهو محب لذاته ، وانه ليهمل فى مدرسته كل دراسات لا يخشى ان يسأل فيها ، كما انه لا يدرس لمجرد الرغبة فى الدرس ، بل انه لا يحفل بمعرفة الشىء ، ما دام بوسعه ان يوحى بأنه يعرفه !** .. وعند ما اقمت ـ فى العام الماضى ـ حفلة للأطفال ، استجابة لرجائه وأخذا برأى روبير ، كان بين المدعوين ابن وزير ، وابن أخ عضو فى مجلس الشيوخ ، وكونت صغير .. اما الصديق المخلص الوحيد لجوستاف ، فلم يكن مدعوا ، لأنه فقير .. رغم نبل شخصيته !

• **١١ يوليو :** ان الأب « بريدل » يلقى اللوم على عاتقى ، اذ يرى أن من واجبى ان اخفى عن الناس ما أراه من نقائص زوجى .. ولقد جرت دموعى ، وانا اشعر بقلبه يفيض عطفا نحوى ، كما انه أدرك اننى انصعت لنصحه ! .. لكأنما قدر على أن أكرس نفسى لخدمة كائن لم أعد أحبه أو أقدره ، لأنه لا يقدر ما أضحى به من أجله !

لقد حاول الأب عبثا ان يصور لى قيمة انكار الذات لدى الله . فلقد تبينت فى أساى اننى لم أعد أومن بالله ، مذ كففت عن أن أومن بروبير ! .. لقد تكلمت عن الانصياع ، ولكن هذا لم يكن حقيقة ، فلست أشعر بغير القنوط ، والتمرد ، والغضب للكرامة .. ان الراهب يصف هذا بأنه : « كبرياء » ، فليكن !.. اننى اؤمن بأننى أعظم قدرا من روبير !

• **يوليو** : تلقيت برقية مزعجة من أبى ، تستدعينى الى باريس ، لأن روبير أصيب فى حادث . فتركت جوستاف فى رعاية صاحب النزل والطبيب

• **باريس فى ١٤ يوليو** : الحمد لله ، فان روبير لايزال حيا ، ويؤكد الدكتور مارشان والجراح ان لا داعى هناك للقلق .. ولكنى لا املك الا ان ارى ان الحادث انذار من السماء ! .. **لقد كان من الممكن ان تمر عليه عجلات السيارة التى صدمته ، ولكنها ــ بمعجزة ــ لم تمر الا على ذراعه اليسرى ، مخلفة كسرا من الميسور جبره !**

وعندما حاولت أن أقبل وجهه الذى غطت الضمادات نصفه ، قال : ((لا تقبلينى ، فاننى قبيح المنظر !)) . فجثوت بجوار سريره أبكى ، وأشكر الله لأن روبير لم يطلع على شكاياتى الجاحدة منه !

• **١٨ يوليو** : ان مارشان عاجز عن ادراك حال روبير ، فهو لا يكف عن الشكوى من آلام فى رأسه ، فى حين أن صور الأشعة أكدت ان الجمجمة لم تصب بشىء .. ولقد اصبح يستعمل من العبارات ما يستعمله كل موشك على الموت ، رغم انه أيقن من انه لن يموت . وبهذا فهو يستمرىء التأثير على أبى وعلى الراهب .. ولكنه يلجأ الى الحيطة مع الطبيب ، ومعى ، ومع ابنتنا ((جنيفييف)) !

* * *

• **١٩ يوليو** : كيف لم يتسن أن ألاحظ من قبل ان ((جنيفييف)) لا تحب والدها ؟ .. اننى لم اوجه اليها اى اهتمام ، لأننى انصرفت بكل نفسى الى ((جوستاف)) !

ولقد ندمت على اننى هيأت لها فرصة التعلم ، بعد ان سمعتها تجهر بأنها لن تقبل الخضوع لقوانين الزواج ، التى

تجعل الزوج كل الغنم، وانها قد اعتزمت ان تجعل من الشخص الذى تحبه شريكا وزميلا ، ولكنها لن تتزوج منه قط ! ..
ولقد حاولت أن أحملها على ان تخفض صوتها ، حتى لا يسمعها أبوها ، فصاحت بجرأة : « ليسمع .. بل انقلي اليه ما أقول !»

٢٠ يوليو : لا شك فى ان « جنيفييف » تاثرت اذ رأت الأسى الذى يتولانى ، فجاءت الى مخدعى فى المساء ، وارتمت فى احضانى ، وهى تقول : « لقد اشقيتك يا أمى الحبيبة ، ولكنى ادرك انك تفهمينني ، كما اننى أفهمك أكثر مما تريدين .. ان هناك أمورا علمتنى أن أفكر فيها ، دون ان تجسرى انت على ان تفكرى فيها ، او تؤمنى بها ! » .. وبقيت صامتة واذا بها تسألنى : **أمن أجلها وجوستاف ، ظللت وفية لأبيهما ؟ .. واذ انكرت ان فكرة خداع زوجى داخلتنى يوما ، قالت انها تعلم اننى كنت أحب الرسام بورجفايلسدورف »! .. فقلت : « اذا صح هذا ، فلا بد اننى لم افطن اليه ! » .. فاجابت : « أما هو ، فأوقن من انه كان منتبها اليه ! »**
واذ تابعت صمتى عادت تقول : « ما ابدع الرواية التى تستطيعين ان تساهمى فى كتابتها .. وما أجدرها بأن تسمى « واجبات الأم » ، او « التضحيات غير المجدية » .. لا لأنك جعلت من نفسك جارية لواجبك » ، ثم استدركت : « لواجب وهمى .. لا ، لا تحتجى ، فما كنت لأحبك لو اننى كنت ملزمة بهذا الحب .. ان فضيلتك أمر يخصك ، ولكنى لا أتقيد بها !»

ولم انم فى هذه الليلة ، فقد ظلت عبارات « جنيفييف » تدوى فى رأسى ، اذ اننى لم أعد أعرف ، أهى التى كانت تتكلم ، أم أنا نفسى ؟ ! .. عبثا يثور عقلى ، فانا ما زلت منصاعة مستسلمة .. مازلت مرتبطة بروبير ، وولدى اللذين هما ولدا روبير ، بالرغم من نفسى ! .. وانى لأتلفت حولى انشد مفرا ، ولكنى ادرك اننى اذا نلت الحرية التى أصبو اليها ، فلن ادرى

ما الذى ينبغى أن أفعله بها !

• **٢٢ يوليو :** لقد كان احترام ولدى لى ، عمادا أتكىء عليه، ولكن جنيفييف سلبتنى هذه التكأة .. ولست أناضل الآن الا نفسى ، فما انا الا سجينة فضيلتى وحدها ! .. لم يعد ثمة حب يستهوينى ،وانما كل بغيتى هى أن أتركه .. أترك روبير! .. ترى من الذى أسأله النصح ؟ .. ان أبوى أصبحا مولعين بروبير ، كما أصبح الأب بريدل أكثر كهولة من ان يفهمنى !.. لسوف ألجأ الى روبير نفسه !

• **٢٣ يوليو :** كنت أتأهب لمفاتحة روبير ، حين أقبل والدى يبدى اشفاقه مما يلاحظه على من أسى .. وصارحته بكل شىء فارتاع ، وناشدنى أن أبحث عن حل آخر .. **بل انه اعترف بأن ظنه قد خاب فى زواجه ـ هو الآخر ـ ولم يجد فى امى الشخص الذى يفهمه ، ولكنه ـ مع ذلك ـ لا يزال يعيش معها !**

لقد فرج عن نفسه اذ باح لأول مرة بما كان يثقله ، ولكنه خلفنى أشد قنوطا من ذى قبل !

• **٢٤ يوليو :** لعبت بالأمس بآخر أوراقى ، وخسرت ! .. لقد حدثت روبير بكل شىء ، وما ان صارحته برغبتى فى الانفصال عنه ، حتى سألنى بصوت مرتجف : « أأفهم من هذا يا ايفيلين ، انك لم تعودى تحبيننى ؟ » . فتجلدت فى عناء ، لأقول : « لقد كان الرجل الذى تدلهت فى هواه ، مختلفا عن الرجل الذى اكتشفته فيك » .. وهنا حدث امر غريب .. كان يبكى حقا ، بنهنهة تهز جسمه ، ودموع حقيقية ، وهو يردد : « ان زوجتى لا تحبنى ! »

واقتربت منه ، فوضعت يدى على جبهته ، ولكنه رفع وجهه فى الحال ، قائلا : **«فلماذا تزوجتك اذن ؟ .. قد لا أكون الرجل الذى رجوته ، ولكنك أيضا لم تكونى المرأة التى خلتها**

.. وكيف يتسنى لامرىء ان يعرف ان شخصا ما ، هو عين ما يرجوه ؟ .. ان أحدا منا لايستطيع ان يبقى دائما فى الآفاق العليا التى يبتغيها .. اعنى ان المرء مضطر دائما الى ان يهبط بمثله العليا الى المستوى الذى تصبح عنده فى متناوله ! »

وخنقت العبرات صوته ، فألقيت راحتى على ذراعه ، ولكنه هتف : « لا ، انك مخطئة .. لو انك لا تزالين تكنين لى أضأل قدر من الحب ، لفهمت اننى لست سوى مخلوق بائس ، أكافح ككل انسان ، وأحاول قصارى وسعى ان أغدو أفضل قليلا مما أنا عليه » .. وانحنيت لأقبله ، ولكنه دفعنى فى عنف قائلا : « لا .. دعينى .. انما أرى ، بل ألمس انك لم تعودى تحبيننى » .. وتركته .. غادرته بقلب مثقل بشقاء جديد ، شقاء يواجه شقاءه الذى كشف عنه بنفسه ! .. واأسفاه ، انه لايزال يحبنى .. ومن ثم ، فليس بوسعى ان أهجره !

خاتمة ، فى ... سنة ١٩١٦ : بعد حديثى مع روبير ــ بأمد قصير جدا ــ اجتاحت اوربا بأسرها أحداث رهيبة .. فقد قامت الحرب !

ولقد ظننت ان روبير مقتنع بأن من واجب كل امرىء ان يذود عن فرنسا ، ولكنى لم ألبث ان تبينت انه دبر خطته ، بحيث حصل من اللجنة الطبية على اذن باعفائه من الخدمة ! .. وفى هذه الاثناء بالذات ، كنت قد تطوعت للخدمة فى مستشفيات الميدان ، ولكنى كنت مضطرة الى الحصول على اذن من زوجى .. ولقد رفض ان يأذن لى ، بكل قسوة وجفاء قائلا اننى لم أك أبغى التطوع ، الا لألحق به الخزى والعار !

واضطررت الى ان اصبر ، وان اقنع بالمساهمة فى مصح بباريس ، أقضى فيه الليالى . ومن ثم لم اعد ارى روبير الا لماما ! .. ثم فوجئت برؤيته فى الزى العسكرى ، اذ ان المامه بالانجليزية ، اغرى لجنة امريكية للنجدة ، بأن تضمه اليها ، وبذلك

اكتسب المظهر العسكرى ، دون ان يكون فى الجيش .. ولكن الحظ خانه ، فان احاديثه الحماسية ادت الى اختياره للخدمة فى (فردان) ، فاضطر الى القبول ، والى الامعان فى التظاهر ، حتى ظفر بوسام « صليب الحرب » !

ولكنى فوجئت به ـ منذ يومين ـ فى باريس مرة اخرى ، زاعما ان الحرب اوشكت على نهايتها ، وانه رأى ان وجوده فى باريس ، أكبر نفعا من وجوده فى (فردان) ، اذ يمكنه من العمل على رفع الروح المعنوية .. ولقد اعتدت ـ منذ تصارحنا الأليم ـ ان اتقبل منه كل شىء ، دون ان انبث بكلمة .. والواقع اننى لا ازدرى اعماله ، بقدر ما ازدرى الحجج التى يبرر بها هذه الأعمال ! .. ولعله قرأ الاحتقار فى عينى ، فازداد تشبثا بتظاهره بالبطولة ، واستعلاء بوسامه . فما كان منى الا ان دبرت الأمر مع الدكتور « مارشان » ، وحصلت على عمل فى مستشفى وراء الخطوط !

ولم تعلم بالامر سوى جنيفييف .. ولقد ارادت ان تصحبنى ، ولكنى رفضت قائلة : «ان امامك حياة حافلة ومستقبلا باهرا» .. لشد ما أحبها ! .. اننى اكتب هذا من اجلها هى ، اذا ادركتنى المنية ولم اعد !



رسالة من روبير

• **سيدى :** بالرغم من السخط الذى شعرت به ، حين

قرأت ((مدرسة الزوجات)) ، الا اننى لن أنساق الى الحقـد عليـــك !

افيدهشك كثيرا ان اقول لك اننى لست الشخص الوحيد الذى أخفق فى تعرف شخصيتى فى ذلك الرجل المغرور ، الضحل ، عديم التقدير ، الذى صورته زوجتى ؟ .. **اننى لا احمل القلم لأدافع عن نفسى – فان احدا لم يعرف اسمى الحقيقى – وانما امسكه لأظهر الحقيقة فحسب ! .. وما دمت قد اسبغت حمى اسمك على ((مدرسة الزوجات)) ، فها أنذا أقدم اليك ((مدرسة الأزواج))**

على اننى أهيب بكل امين صادق ، أن يقول : ما الذى يراه فى فتاة تستولى على الأوراق الخاصة بأمها – بمجرد وفاة هذه – فتطلع على ما فيها ؟ .. اننى لأرى – فى جرأة ابنتى المخزية – نتيجة التعليم المتحرر الذى ظنته زوجتى صالحا لولدينا .. لقد كانت غلطتى الكبرى ، اننى تســـاهلت معها – كما كانت عادتى – نفورا من ان ابدو مستبدا ، وكراهية لجدال بشع !

ولا يخال احد اننى سأتناول كل مسألة ، مما اوردت زوجتى ، على حدة ، لا سـيما تلك المتعلقة بالشـجاعة ، والوطنية ، والسـلوك ابان الحرب .. كما اننى لن اتهمها بأنهـــا زيفت شخصيتى وخلقى عن تعمد وقصد ، فلست اتهمها بشىء البتة ، ولكننى اعتقد ان قدرا من التحيز للافكار الراسخة فى عقولنا ، يجعلنا نسمع من الغير ما نتوقع منهم ان يقولوه ، ولو لم يقولوه ! .. والذى اذكره تماما ، هو ان ((ايفيلين)) بلغت حدا لم تكن تملك عنده سوى ان تعتقد ان ما كنت اقول .. كذب !

افكان ذنبى ان ظنتنى ((ايفيلين)) فى البداية موهوبا فوق ما كنت فى الواقع ؟ .. وهل للمرء أن يحقد على شخص أنه لم يكن عبقريا لمجرد أن فتاة أعماها الحب ، فرأته عبقريا ؟ .. اننى اعتقد أن هذا هو سبب خيبـــة الرجاء القاسية ، التى تصيب الكثيرين فى الصداقة ، وفى الحب .. ان من الغبن ان

لا ترى المرء على حقيقته ولهذا فأنت تتخذ منه الها ومثلا أعلى، ثم تحنق عليه لأنه لم يكن يملك ان يصل الى المستوى الذى وضعته فيه !

وعلى هذا الاساس ، لم أعرف ــ انا الآخر ــ «ايفيلين» على حقيقتها ، فى البداية .. بل اننى لأوكد انها لم تعرف نفسها ! .. لقد حاولت ــ طالما ظلت تحبنى ــ أن تتشبه معبودى ، فكانت تتحلى بالفضائل التى اعتقدت انا انها كانت لديها ، والتى اعتقدت هى انها ترضينى .. لم تكن طيلة حبها اياى ، لتحفل بأن تعرف نفسها ، بل كانت رغبتها الوحيدة هى ان تفقد نفسها فى انا !

* * *

• **ان** طفولتى لم تكن سعيدة . فقد كان والدى صاحب متجر للحديد ، ثم مات وانا فى الثانية عشرة ، ولم تكن أمى تحذق التجارة ، كما كان مساعد ابى غير امين .. ولم يكن لى أصدقاء ، اذ كنت أشعر بأن زملائى أغبياء ! .. **أما انا ، فكنت متوسط الذكاء ، أقدر ما على من واجبات ، واتردد مع امى على الكنيسة**

وكنت فى الثامنة عشرة من عمرى ، عندما انتهيت من دراستى الثانوية . ولقد كان باستطاعتى أن أستكمل دراستى فى باريس، لولا اننى فكرت فى وحدة أمى ، ففضلت أن أتعلم فى (تولوز) لأكون قريبا منها . **ولقد كانت (تولوز) توفر كثيرا من الفرص، للشباب المفسود .. وهنا أحب أن أستنكر ــ كما لم يفتنى أن أستنكر قط ــ النظرية الحديثة التى تنحو الى الحط من قدر فضائلنا ، اذ تزعم ان الرغبات الوحيدة التى يمكن مقاومتها، هى تلك التى ليست ــ فى الواقع ــ من القوة بدرجة تذكر ! .. انما اميل الى الاعتقاد بأن معونة الدين امر لاغنى عنه لمغالبة الضعف الانسانى** . وبفضل الدين استطعت ان اتحاشى الملاهى الخطرة ، والصحبة الفاسدة ، والكتب المتبذلة .

وما كنت لأذكر كل هذا ، لولا اننى رأيت ان أهيىء فـكرة عن القيمة التى كنت اعلقها على فتاة الاحلام ، اذا ما قدر لى أن ألتقى بها ! .. وانى لأتبـين ـ الآن ـ مدى الخطر الذى يترتب على ارتقاب فتاة الاحلام ! .. ان الشاب الطاهر يتعرض ـ عندما يركز كل افكاره فجأة على امرأة واحدة ـ لخطران يفرط فى تقدير مثالية هذه المرأة !

ولقد اتممت دراستى بتفوق ، ولكنى لم أجد فى (تولوز) ما يشبع نهم عقلى .. وكانت فكرة الواجب تسيطر على حياتى منذ طفولتى ، فشـعرت بأننى وان كنت مضطرا ان اراعى واجباتى نحو امى ، الا ان على واجبات ـ لا تقل عنها قداسة ـ نحو وطنى .. وبالتالى ، نحو نفسى ، اذ كان همى الأوحد ، هو ان اخدم بلادى . **لذلك فقد رأيت ان دورى الملائم فى الدنيا ، هو أن أكون ذا عون لغيرى من الناس كى يفيدوا من انفسهم اعظم فائدة ، وان يساهموا فى انتصار الآراء التى ارى انها ذات قيمة حقيقية . فشرعت ابحث عن النفع الذى يمكن ان أسديه فى الحياة . ولهذا بدأت اختلط بأهل باريس ، وأتعلم منهم !**

ولكى اوضح مجال نشاطى ،اضرب مثالا واحدا : فكثيرا ما خطر لى ان خير الكتب ، تجد عناء كبيرا فى الوصول الى النخبة التى تسـتحقها من الرأى العـام ، وان عـددا كبيرا من القراء ـ ذوى القصد الطيب ، والذين ينقصهم الارشاد ـ يتجاوزون عما هو غذاء حقيقى للعقول ، ويقبلون على مالا يفيـدهم من الكتب .. ومن ثم رأيت اننى قد اكون ذا نفع للجانبين ـ القراء والكتاب ـ وألفت لجنة من المؤلفين والناشرين ، تضم اصحاب ارقى العقول فى ايامنا ، لتنتقى فى فترات منتظمة اجدر الكتب بأن تقرأ !

* * *

• **ولـكن** هذه الخدمات لم تكن تجد تقديرا من زوجتى ،

للاسف .. فان «ايفيلين» لم تكن تبدى اية رغبة فى قراءة الكتب المنتقاه .. ولست اذكر تماما متى بدأت « ايفيلين » تبدى روح التذمر وعدم الانصياع ، وهى روح تستحق اللوم دائما ، لا سيما لدى المرأة ! .. ولقد كانت ايفيلين – فى سنى زواجنا الاولى – تعتنق آرائى وتتقبل افكارى ، دون جدال ، بل وفى تحمس. وكانت ميولها للادب والرسم تتطلب ان اشكلها واهذبها . وقد كنا على اتفاق فى هذا ، فلم افطن الى ان هـذا الاتفاق قد اضطرب الا بعد فوات الاوان . اذ أن ايفيلين أخذت تنصت الى احاديث الغير ، من ذوى الآراء المتحررة ، الذين اخطأت اذ دعوتهم الى بيتى .. ومن ثم فقد بدأت تعرض عن احاديثى ، ولا تحفل بأحاديث الأب بريدل ، التى كانت خليقة بأن تكفل لنا حياة سعيدة !

* * *

ثم قام الجدل بيننا حول تعليم طفلينا .. عبثا حاولت ان اقنعها بما رأيته فى الحياة ، من اضرار التعليم المتحرر ! . فلقد شهدت – فى كثير من المناسبات – الدمار الذى كانت توقعه الأفكار المتحررة بالحياة الزوجية ، وما كانت تخلقه من خلافات بين الزوجين .. والزوج هو الذى ينبذ – فى العادة – عقيدة الاباء ، وينساق فى الانحلال والرذيلة . ولكنى كنت اعتقد ان الشر يزداد – بالنسبة للاطفال – اذا كانت الأم هى المتحررة فى أفكارها . ولقد حاولت – عبثا – أن أبصر ايفلين بذلك .. أما « جنيفييف » – التى كانت أشد شغفا من جوستاف بالتعلم – فقد تبعت امها، وانزلقت معها الى الكفر . وكانت ايفلين تشجعها على قراءة مواد كانت تبعث الاسى فى نفس الاب بريدل، مما دفعنى الى ان اعارض التعليم الذى يتاح للمرأة فى ايامنا هذه. **اذ انه قليل النفع لها ، كما ان عقلها لم يهيأ لهذا النوع من الغذاء ، ومن ثم فهو لايملك الترياق الذى يقيه ما فى هذا التعليم من سموم !**

أجل ، اننى اعتبر ان دور المرأة فى البيت ، وفى الحضـارة عامة ، يجب ان يكون دورا محافظا ، وليس متحررا .. ولـكم شعرت بأن الوضع الذى اتخذته ايفلين كان يعرقل تقدم ذهنى، اذ انه كان يضطرنى الى ان اقوم ــ فى حياتنا الزوجية ــ بدور كان من الواجب ان يكون دورها هى . وان كنت ــ من ناحية اخرى ــ اشكر لها انها بذلك شجعتنى على ان امارس واجباتى ــ الدينية والاجتماعية ــ وعملت بتحررها وكفرهـا ، على تعزيز ايمانى !

على انها لم تقف عند حـد اعتناق آراء مناقضة لما كنت انصحها به ، وانما حاولت ان تغرس بذور هذه الآراء فى ذهنى طفلينا . ولو اننى فطنت الى الشر فى الوقت المناسب ، لعمدت الى تصرف أكثر شدة ، ولكنى كنت اظن واهما ان التغاضى عن الشر ، كاف لتجنبه ! .. ولقد اكتشـف الهوة التى أصبحت تفصل بيننا ، عندما اشرفت على وضع طفلنا الثالث

* * *

• **وهنا** احب ان اذكر اننى اعتقد ان ايفلين تبينت خطأها فى اواخر ايامها ، فتابت الى الله كما اننى احب ان اصحح خطأ وقعت فيه .. فلقد ذكرت أن ايفيلين كانت تغرس بذور الأفكار المتحررة ، فى ذهن جنيفييف . ولكنى ــ فيما بعد ــ تبينت ان جنيفييف هى التى نقلت ، بروحها المتمردة ، عدوى التمرد الى امها .. أما « جوستاف » ، فكان اذا ما حاولت امه ان تبث فى ذهنه روح الشك والكفر ، قاومها قائلا : « لا .. ان بابا يقول غير ذلك » !

ومن المدهش حقا أن تستطيع فتاة صغيرة ــ كجنيفييف ــ أن تكون ذات سلطان على أمها . على اننى اعتقد ان ايفيلين كانت تجد تشـجيعا من الدكتور « مارشان » والرسـام «بورجفايلسدروف» كذلك .. فان تمردها فى البداية لم يكن

ملموسا ، بل كان يحذو حذو كفر «بورجفايلسدروف» وتحرره .. أى أنه كان يتستر وراء فضيلة ، هى الوفاء والاخلاص !.. فبدأت ايفيلين تدخل الوفاء فى ميدان الاخلاق ، من وجهة نظرها .. **كانت ترى أن الشعور بالوفاء والاخلاص ، كاف لأن يجعل المرء أهلا للثناء ! .. وبالتالى ، كانت ترى ان الوفاء لما فطرت عليه ، اجدر من السعى الى ان تكون شخصا آخر ، أفضل واحسن ! .. وكانت تعتبر محاولتى لأن اكون افضل من فطرتى ، نوعا من الرياء ! ..** واسمح لى بأن اضيف هنا ، ان هذا الوفاء ، بل هذه العبادة للنفس ، لا تلبث ان تحملنا على ان نستسلم لغرائزنا ، فنغدو مشتتى النفس موزعيها .. وما أقسى عذاب الرجل الذى يرى حبيبة قلبه تهوى قدما الى حضيض الضلال ، يوما بعد آخر !

على ان هذه المحن والآلام ، كانت تضاعف من تقربى الى الله ! .. وعندما تعرضت ايفلين – فى أواخر حملها الثالث – للخطر ، رجوت ان تقربها فكرة الموت من الله ، وأن تشعرها بضلالها . ولكنها عندما اشرفت على الموت – اثر حمى اصابتها فى ثامن اشهر الحمل – حاول الأب بريدل أن يعظها وأن يهديها ، ولكنها قالت له : **« اطمئن أيها الأب الى اننى لا اضمر فى نفسى تمردا أو عصيانا لله ، ولكنى لا اؤمن بوجود حياة ابدية ! »**

ولقد ولد طفلنا الثالث ميتا ، وقدر لايفيلين ان تنجو من الموت .. ولكنها خرجت من هذه المحنة أجمد قلبا من ذى قبل ، فلم تعد تعترف بالله ذاته ! .. ثم عادت من (اركشون) – حيث كانت تستجم – وهى اشد امعانا فى الكفر والالحاد ، واكثر تأففا من كل ارشاد كنت ازجيه اليها ، حتى اننى أصبحت اخشى من الصلاة أمامها !

ولقد كان الحاد ايفيلين سببا فى تعزيز ايمانى .. ولست أقسو عليها باللوم ، بل اننى أصرح بأن فطرتها كانت أفضل من فطرتى .. كانت فاضلة بطبيعتها ، وكنت انشد الفضيلة .

ولكنها احتقرتنى ، وازدرت جهادى فى سبيل أن أغدو شخصا أفضل ! .. **لقد أعماها الحب – فى البداية – عن ان تبصر عيوبى ونقائصى ، ولكن .. هل من الانصاف ان تحقد على – فيما بعد – اذا أنا كنت أقل ذكاء ، وأقل رقة ، واقل فضيلة ، وأقل شجاعة مما توهمتنى فى البداية !**

يا لايفيلين المسكينة ! .. انها لم تكن تصبو الى سماء ، ولا الى حياة اخرى فكيف كان بوسعها ان تساعد على تحقيق البيت المبارك ، لا على الوصول الى النعيم الذى يمكننا الدين من ان ننال قبسا منه .. حتى هنا ، على الأرض ؟ ! .. وكيف آمل ان التقى بها فى السماء ، وهى لم تكن تؤمن بها ؟ !

• • • • • • •

• • • • • • •

• **بعد** ان نشرت « مدرسة الزوجات » ، و « روبير » ، تلقيت جزءا من مخطوط اشتمل على قصة تعد مكملة للسابقتين .. وبعد ان انتظرت بقيتها طويلا ، لم اجد بدا من نشر هذا الجزء على حاله ، مع الخطاب الذى جائنى معه ، كمقدمة له

« اندريه جيد »



اغسطس سنة ١٩٣١

• **أرسل** اليك – مع هذا – كتابا ، آمل ان تسبغ عليه حماية اسمك ، كما فعلت بيوميات أمى ، وجواب أبى عليها ..

ولقد تجده على غير ما تعودت نشره ، فان فكرك يحلق دائما فى آفاق « المطلق » ، فى حين اننى اصارع « النسبية » .. فالأمر بالنسبة لى ، لا يتمثل فى السؤال العام ، المبهم : ماالذى يتسنى للانسان ان يفعله ؟ .. وانما هو يتمثل فى وضع مادى محدود ، هو : **ما الذى تتوقعه المرأة – فى ايامنا الراهنة – وما الذى تأمله ؟** .. ولسوف تقر معى بأن هذه « المشكلة » ، خليقة بأن تبدو لمن كانت مثلى – فى مقتبل العمر – ذات أهمية رئيسية ؟ .. على انها رغم أهميتها ، لم تبرز الا فى عهدنا هذا . فان الناس لم يفطنوا – الا منذ الحرب ، التى اثبتت فيها كثير من النساء أنهن اكثر قيمة ونشاطا مما كان الرجال يظنونهن – الى السعى الى فضائل ليست محض سلبية ، كالوفاء والطاعة والامانة .. الوفاء للرجال ، والطاعة للرجال ، والأمانة للرجال !

لقد كانت الفضائل الايجابية وقفا على الرجال ، وحقا موروثا لهم وحدهم ، ولكننى لا أظن أن ثمة من يمارى فى أن مركز المرأة قد تغير منذ الحرب ، ولعلنا كنا فى حاجة الى شىء لا يقل عن هذه الكارثة المفجعة ، لتمكين المرأة من اثبات احرازها صفات ، كانت – حتى قيام الحرب – تعتبر استثنائية ، او نادرة ، بين النساء .. وبالأحرى ، لتمكين المرأة من ان تثبت قيمتها وقدرها !

ولقد كان كتاب أمى موجها الى جيل سابق . فقد كانت المرأة – فى شباب أمى – تهفو الى الحرية .. اما الآن ، فقد أصبحت الحرية فى متناول المرأة ، وعليها ان تمد يدها اليها ! .. ولكن ، كيف ، ومن أجل أية غايات ؟ .. هذا ما أريد الحديث عنه !

* * *

• **عندما** بلغت الخامسة عشرة من عمرى – فى سنة ١٩١٣ – أرسلتنى والدتى الى المدرسة الثانوية ، رغم اعتراض أبى ..

فقد كان والدى ـ رغم مظاهر سلطته ـ ضعيفا ، اعتاد ان يسلم على طول الخط ، وان يعزى نفسه عن ذلك بالنقد الذى لا ينقطع . وكان تعلمى المدرسى ، هو المسئول ـ فى نظره ـ عن « اخطائى الفكرية » ، ثم عن « مسلكى الخاطىء » !

ولقد ورثت عن أمى حبا للعمل ، واقبالا على توسيع مداركى ، وزادت هى من تنمية ذلك بأن تظاهرت بالرغبة فى استئناف الدراسة عن طريقى ، فكانت تساعدنى فى واجباتى المدرسية ، وتستذكر معى دروسى . وقد اعتدت أن أرويها كل ما أسمع فى المدرسة . ولعل هذا هو الذى أوحى اليها بأن تأثيرى عليها كان أقوى من تأثيرها على ! .. وما كان ثمة ما يعزز اعتدادى بنفسى ، وثقتى فى ذاتى ، قدر هذا الايحاء الذى نقلته الى !

وأدين لأمى كذلك ، بالرغبة الجامحة فى أن أكون نافعة .. ولو ان هذه الرغبة كانت كامنة فى اعماقى ، فان أمى هى التى نجحت فى ايقاظها وتنشيطها . ولقد كانت هذه الرغبة تتغذى ـ عند أمى ـ على حب عجيب للفقراء والمعذبين وكل من كان والدى ـ وليست والدتى ـ يسميهم : « الطبقات الدنيا » . وما يدعونى الى قول هذا ، سوى أن أبى وأمى أغفلا ذكره . وبقدر ما كانت أمى تعانى من وفائها للآخرين ، فانها كانت لا تنفك تجهد فى اخفاء جهودها وكل ما يعود عليها بالثناء . وهذا الافراط فى التواضع والتوارى ، كان السبب فى أن أحدا من جيرانها لم يشعر بأفضالها. أما أبى ، فكان ـ على النقيض ـ يتوق بلا انقطاع الى أن يظهر جهوده ، وكان يعلق على الظهور بمظهر الفاضل ، أهمية تفوق ما كان يعلقه على الفضيلة ذاتها ! .. وما أظنه كان دعيا أو مرائيا أو متخاذلا عن أن يعمل على الوصول الى ما يتظاهر بأنه بلغه ، ولكن كلماته وأعماله كانت تسبق انفعالاته العاطفية وأفكاره ! .. وكانت أمى تعانى الكثير من جراء ذلك ، وقد كنت أحبها الى درجة جعلتنى لا أمقت أبى !

• **وكانت** الفتــاة التى تجـاورنى فى الفصل الدراسى ذات منظر جذب انتباهى .. كانت ذات شعر اسود مجعد يمتــد الى فوديها وجزء من جبينها ، وذات بشرة سمراء ..ولم تكن جميلة ـ بمعنى الكلمة ـ ولكنها أوتيت فتنةخاصة اجتذبتنى، وان لم تشاطرنى الفتيــات الاخريات هــذا الشعور ، بل كن يصفنها بأنها تشبه النوريات (الفجر) ! .. وكانت « سارا » ـ وهذا اسمها ـ تبدو شاردة الذهن ، اثناء الدرس ، لا تنصت الى ما يلقى علينا .. فاذا سؤلت ، توترت عضلاتهــا ، وبدت فجأة أكبر منا سنا ـ رغم انها كانت تناهزنى عمرا ـ ثم لاتلبث ان تغمرها نوبة من ابتهاج ، بعــد لحظة ، فاذا بالبشر يردها الى مظهر الطفولة !

وتنازعتنى فى البداية طائفة من المشــاعر المضطربة نحوها ، حتى اننى كنت أعجب : أأنا التى كنت أحس ذلك ، او شخص غريب تقمص جسدى وعقلى ؟ .. وكانت سارا فى تلك الاثناء لا تكاد تعيرنى انتباها ، كما كانت لاتحفل بالدروس ،ولا باحراز أى تفوق مدرسى .. ولــكنها كانت ذات براعة فــذة فى القاء المقطوعات الشعرية ، زادت من اعجابى الفياض !

وكتبت اليها مرة فى قصاصة : « اود ان اغدو صديقتك »، فتقبضت يدها على الوريقة ، ثم لم تلبث أن سوتها ، وكتبت عليها : « **تعالى الى مسكننا فى الساعة الثالثة من بعد ظهر الاحد القادم** » . ورقص قلبى طربا ، فسألتها عن العنوان .. ومرة أخرى كتبت : « سارا كيلر ـ ١٦ شارع كامبانى بريمبير »

وفى ذلك اليوم ، وجدتنى أتعجل العودة الى الدار ، لأنبىء أمى بالأمر ، اذ اننى لم أكن واثقة من انها تقبل أن تدعنى أذهب وحيدة الى أى مكان ، اللهم الا المدرسة . ولم يــكن من عادتى أن أكتم عن أمى سرا ، ولكن تحفظا عجيبــا جعلنى اتحاشى أن

اكلمهـــا ــ من قبل ــ عن « ســـارا » ، وافضيت لأمى بأمر الدعوة ، وسألتها ان تسمح لى بتلبيتها ، ولكنها رغبت أولا فى أن ترى « سارا » وان تعرف شيئا عن اهلها ، ومن ثم تعمدت ان تنتظرنى عند باب المدرسة فى اليوم التالى ــ وكان يوم السبت ــ فى موعد الانصراف .

وحاولت فى ذلك اليوم أن أحمل « ســـارا » على ان تسوى شعرها ، أو تصلح من ملابسها المهدلة ، فسرعان ما فطنت الى الغرض ، وقالت : « لســت اعبأ كثيرا بهذا الفحص ! » . ومع ذلك فانها لم تتفاد لقاء أمى ، التى أبدت لها تلطفا ، وسألتها أن تلقى عليها شيئا من الشعر ، فلما اختـــارت قصيـــدة بودلير « موت العاشقين » ، قالت أمى : « ماظن هذه القصيدة تلائم طالبات المدارس » . **وما ان علمت أمى أن أباها رسام ، حتى هتفت : « أحقا انت ابنــة الفريد كيلر ، الذى حظيت صوره بالاعجاب فى معرض العام المــاضى ؟ » .. ثم زعمت لهـــا اننى مرتبطة بموعد يحول دون أن ألبى دعوتها ، يوم الأحد .. حتى اذا فارقتنا الفتاة ، قالت أمى : «لماذا لم تخبرينى بأنها يهودية؟»** .. على انها لم تلبث أن أبدت أملها فى أن تستطيع دعوة «سارا» الى دارنا ، ارضاء لى . واســتطعت أن أرى ان نفور أمى من صديقتى ناشىء عن عوامل اجتماعية ، أكثر منه عن مشــاعر شخصية . واذ لاحظت ألمى وشقائى ، أغرت أبى بأن يكتب الى والد « سارا » يدعوه وابنته الى زيارتنا فى احـــدى امسيات الخميس من أى أسبوع .

ولم يكن لنا يوم مخصص لاستقبال الزائرين ، فقـــد كانت والدتى لا تحفل بالمظاهر الاجتماعية ، مما جعل أبى ينسب اليها السبب فى فشـــله ، اذ كان يرى ــ ككل من لم يؤتوا قيمـــة شخصية تذكر ــ ان كل شىء فى الدنيا ، ميسور المنـــال عن طريق العلاقات الاجتماعية . **واعتقد أن الشطر الرئيسى ممـــا كان يدعوه فى خيلاء : « عملى » ، كان يتألف من تقديم واجبات**

الاحترام للغير ، وتقبل مثلهـا منهم . وانى لأفهم السر في أن أمى لم تـكن ترضى عن ذلك ، اذ انهـا كانت تعتبره اذلالا للشخصية ، وقتـلا للنبوغ ! .. ولهـذا كنت أراها جديرة بالاحترام ، وكنت أعرض عن أبى ، ولا أحفل بأقواله ، لاسيما عندما كنت اسمعه يناقض آراءه ، ويدين بآراء أؤمن بأنهـا لم تكن آراءه الخاصة ، ويبدى ماينم عن ضعف شخصيته.. وكانت هذه عين أسباب سخط أمى عليه !

* * *

• **ولست** أدرى كم من القراء سيمتعضون لحديثى عن أبى بهذا التحرر .. غير اننى عاهدت نفسى على أن أكون صريحة ! وانى لأومن بأن معظم عيوبنا ترجع الى الجهل ، وان العلاج الأوحد لها ، هو فى أن نلقى عليها أضواء كاشفة ، وان نقدرها فى غير تحرج ولا مداراة !

ومع اننا لم نكن نخصص يوما من ايام الاسبوع لاستقبال الضيوف الا اننا اعتدنا ان ندعو الى مائدة العشـاء ــ فى ايام الخميس ــ بعض الأصدقاء ، بينهم الدكتور مارشان وزوجته ، اللذان تبينت انهما كانا صديقى أمى اكثر مما كانا صديقى ابى . ولقد انبأتنى امى ــ فيما بعد ــ أنها بحثت مع ابى ما اذا كان والد كيلر يدعى الى مأدبة رسـمية ، أو الى مأدبة عادية .. كانت الأولى ــ بما يحضرها من علية القوم ، بثياب السهرة ــ خليقة بأن تبهره ، ولكن والدى خشى ان لايبـدو « كيلر » بالمظهـر الذى يشرفه ــ أى أبى ــ امام المدعوين . على انه لم يلبث ان رأى ان دعوة الرجل الى مأدبة كبيرة ، يعزز ما يتظاهر به ابى من العطف على اصحاب الآراء المتحررة .. غير ان كيلر رد الدعوة قائلا : « ما اعتـدت أن أذهب الى أى مكان بدون زوجتى » .. فوجهت الدعوة الى مدام كيلر كذلك !

ولم يكد كيلر وزوجته وابنته يلجون قاعة الاستقبال ، فى ذلك

المساء ، حتى تبدى جليا ــ حتى لعينى طفلة مثلى ــ انهم لم يكونوا من طبقة المدعوين .. **وعرفنا بعد ذلك ان والدى سارا لم يكونا مرتبطين بزواج شرعى ، وانما كانت ام «سارا» نموذجا لدى كيلر ، ثم عاشرته دون زواج .. وكان والدى يستهجن أن يتزوج الرسام نموذجه ، فلما علم بأنهما كانا يعيشان دون زواج ، ازداد امتعاضا منهما !**

وبدت مدام كيلر ــ فى نظر امى ومدام مارشان ــ مبتذلة ، فقد كانت تقهقه ، وتميل برأسها الى الوراء كلما ضحكت ، فى تلك الليلة .. وان تأكدت ــ فيما بعد ــ من انها كانت طيبة القلب ، رغم جهلها !

ولم نلبث ان تلقينا من والدى « سارا » دعوة ، كانت فى مقابل دعوتنا . فقال والدى : **« ان هذه الفتاة ممثلة ، ولن تلبث ان تصل الى المسرح . ولست أحب ان تخالطى هذا النوع من الناس ! »** .. على انه لم يكن ثمة بد من ان تلبى الدعوة ، فاعتذر هو بموعد سابق ، وتركنى وامى نذهب بمفردنا ، وكان هذا ما تمنيت !

ولقد كانت الحفلة هائلة ، جمعت عددا كبيرا من الفنانين والكتاب . وذكرت لى امى ــ فى اليوم التالى ــ بأنها بدت وكأنها «تائهة» بين هؤلاء القوم ، اذ انها لم ترتح اليهم ولا الى مسلكهم ، رغم عقليتها المتحررة ! .. واستطردت : « ومع ذلك ، فان صديقتك فاتنة .. وانها لذكية موهوبة ، ولكن مواهبها تختلف عن مواهبك ، ولسوف أدهش اذا دامت صحبتكما طويلا ! »

* * *

• **وكانت** ثمة زميلة من زميلات المدرسة فى الحفلة ، هى « جيزيل بارمنتيه » ، لم يكن يجذبنى اليها سحر مادى ــ كما هى الحال بالنسبة لسارا ــ وانما كان يجذبنى اليها شىء لا سبيل الى وصفه .. واذ خلوت الى الفتاتين ، قالت سارا :

« ان جيزيل تحاول ان تحب كل انسان ، ولكنى لا اسمى هذا حبا ، وانما ميلا انسانيا » .. واستطردت قائلة : **« ان ثمة الوانا جد متباينةللحب .. فانا ـ مثلا ـ لاظننى اصلح للحب الزوجى ! .. اعنى اننى لن اقع يوما فى حب رجل اضحى من اجله بميولى ، وحياتى .. واعنى بأن أروق له ! »**

وراحت تبين كيف انالانثى اذا ماتزوجت، لم تعد تجد وقتا لأى شىء ممـا كان يطيب لها من قبل ، بل يستغرق بيتهـا واولادها كـل اهتمامها ..وان من الحكمة ان لا تتزوج الفتاة . فلما قلت لها ان حياة الوحدة غـير سارة ، قالت : « ليس من المحتوم على الفتاة ان تعيش وحيدة ! » .. وندت من جزيل صيحةاستنكار ، فقالت سارا: «انكلاتخالفينني الا لأن جنيفييف تعارض مثل هذا الرأى » . وبدون ان افقهاو اعى ، وجدتنى أهتف : « بل انا اقرك عليه يا سارة ، فلا تخشينى ! »

وأشتد بى الاضطراب عقب ذلك ، فراحت جيزيل تمسح شعرى ، بينما اخذت اغالب دموعى . واذ ذاك قالت سارا : **« حسنا ، اذن فلنؤلف ـ ثلاثتنا ـ جمعية سرية ، نسميها : جمعية النساء المستقلات » . وشرعنا نقسم اليمين على ان لانبوح بأمر الجمعية الى امهاتنا ، واذ ذاك قالت سارا : « لابد للجمعية من اموال .. لمساعدة الأمهات غير المتزوجات مثلا ! »**

ولم اشأ ان اسأل عن هؤلاء الأمهات ، خشية اناتهم بالجهل . ولـكنها كانت المرة الأولى التى اسـمع فيها عن « امهـات غير متزوجات » ، فاذا بالفكرة تزعجنى .. **ولقد كنت ادرك ان الأولاد ثمار العلاقات الطبيعية بين الجنسين ـ فقد وجدت أمى ان لا بأس من ان تعرفنى بذلك ـ ولكنى كنت اربط هـذه العلاقات بالزواج دائما ، ولم أكن اتصور قيامها بدونه . ومع ذلك ، فقد كنت اعرف ان ثمـة رجالا ونساء يعيشون بدون زواج .** وكان اتفه تفكير فى هذا ، كفيلا بأن يفتح عينى ، ولكنى لم افكر فى الأمر قط . ومن ثم، لم اشأ ان اقسم يمين الجمعية،

وسألت الزميلتين ان تمهلانى .. وكذلك ابدت جزيل ترددا . وشاء الحظ ان نحرم فى تلك اللحظة من خلوتنا !

وفى عودتنا ، دعت امى « جيزيل » الى ان ترافقنا ، اذ كانت تسكن على مقربة منا . وما ان فارقتنا الفتاة ، حتى احتضنت امى فى عنف ، فهتفت : « ماذا بك يا جنيفييف ؟ » فأجبت : « أرى اننى بدأت الليلة ادرك مدى رقتك وعذوبتك ! »

* * *

• **واذا** كنت لم اذكر شيئا عن اخى، فذلك لأنه وان لم يصغرنى بأكثر من عام ، الا انه لم يكن ذا قيمة فى حياتى . وكان مدللا اكثر مما كنت ، لضعف صحته .. ولست آخذ عليه سوى نوع من الملق والمداهنة كان يبديه لوالدى كى ينال ما يبغى . ولم يحدث قط ان رفع ابى يدا على جوستاف ، فى حين اننى لن انسى البتة انه صفعنى مره . وكان قد فرغ من توجيه النصح لنا بأن نقتدى بالنملة .. وكنت اذ ذاك فى التاسعة من عمرى ، فقلت : « انك يا بابا لا تفتأ تنصحنا بأن نتصرف كالحيوانات ! »

وليس يثيرنى انه صفعنى ، وانما ما اتضح لى من انه لم يصفعنى الا لأنه لم يجد ردا آخر ، فكأنه عاقبنى اذ لاحظت افتقاره الى البيان ! .. اما جوستاف ، فلم يكن يسأله بيانا ، بل كان يقتدى به ويحذو حذوه فى كل شىء ! ..

وأعتقد ان ما كان يعجبه فى ابى ، هو انه كان لا ينفك يبدل آراءه بسهولة ، وكأنها ملابس ! ولذلك فان جوستاف كان لايفتأ يقتبس اقوال والدى ويستشهد به ! .. **ولم يكن بيننا اى توافق فى الآراء او الميول ، حتى لقد كنا نادرا ماننبادل الحديث . بيد اننى لم احدس قط ان ثمة عداء يتخمر فى صدره نحوى ..** الى ان حدث ذات يوم ان عرضت صورة من رسم كيلر ، لفتاة عارية اخفت وجهها امام مرآة . وأطرت

الصحف الصورة ، وذكرت ان النموذج الذىاستخدمه الرسام، لم يكن سوى ابنتـه ! .. فما كان من جوستاف الا ان اوغر صدر ابى ضدى ، لأننى كنت التقى بسارا

ولم نكد نفرغ من الغداء فى ذلك اليوم ، حتى صرف ابى « جوستاف » ـ وان عرفت ان هـذا ظل خارج الحجرة ، ملصقا أذنه بثقب مفتـاح الباب ـ وما لبث ابى ان قال انه لم يعد يحتمل اختلاطى بابنة كيلر ، فتساءلت امى فى صوت بالغ الهدوء : « هـل تعتزم اقصاءها عن المدرسة ؟ » .. فأجاب بصيغة الجمع ، وكأنه يشرك امى معه : « سنقصيها اذا دعت الضرورة .. على اننى ـ فى الوقت ذاته ـ اعارض فى مقابلتها لابنة كيلر ، فى غير ساعات الدراسة ! »

ودق المائدة بقبضة يده ، فاهتزت ملعقة القهوة ، وافسدت مفعول حركته ، فلم اتمالك ان ضحكت .. فصاح : « ما هـذا بوقت الضحك ! » . **وعند ذلك رفعت رأسى ، وقلت له : لست أعتزم ان اطيعك ! » . وسادنا صمت ممض .. وشحب وجه امى وارتعشت يداها ، بينما قال هو فى النهاية : « خذى الحذر يا جنيفييف ، والا فستضطريننا الى ان نعمـد الى اجراءات تأديبية ! » . ثم دفع الى امى بقصاصة من صحيفة وسألها ان تقرأها ، فقالت دون ان تمسها : « ان جوسـتاف هو الذى اعطاكها .. يا للتعس الصغير ! »**

وصاح ابى : « اجـل .. ولعلك ستلقين اللوم عليه ! » .. وراح يقرأ بصوت عال ما كان فى القصاصـة من ان « سارا » كانت نموذجا لأبيها فى تلك اللوحة . فهززت كتفى بينما راح ابى يسهب فى الحديث عما قد يقوله الناس عن ظهور الفتاة فى صورة عارية ، فقلت : « لن يغير هذا شيئا من مشاعرى نحو سارا .. ولو اننى عرفت عنها ما تؤاخذ عليه ، لحرصت على ان لا اذكر لك عنه شيئا» . وهتفت امى بقسوة : «جنيفييف!» . فتظاهر ابى بالدهشة لأنها لا تقف فى صفى ، وقال : انك أنت

التى تعضدينها دائما ضدى .. أفأنت مصممة على عدم اطاعتى ؟ » .. واجبت بحزم : « تصميما باتا ! » .. فتردد لحظة ، ثم قال : « حسنا .. الآن عرفت ما يجب عمله ! »

وما ان استقر بى المقام فى حجرتى ، حتى رغبت فى رؤية الصورة التى كانت مثار النزاع .. وهرعت الى قاعة الجلوس ابحث عن مجلة كانت قد نشرتها ، ولكنى وجدتها مقطوعة من المجلة ! .. **وادركت ان جوستاف هو الذى قطعها ، فأسرعت الى غرفته . وصح حدسى ،فتنازعنا الصورة ، حتى تمزقت ! ..واذ ذاك قال وهو يتم تمزيقها : «هذا ماتستحقه صديقتك!» .** ووقفنا نتبادل النظرات فى غضب ، وفجأة ، وجدته يندفع الى الباب ، قبل ان يدع لى فرصة للتفكير ، ويصرخ : «النجدة !»، وسمعت باب غرفة ابى يفتح ، فهرعت الى غرفتى واوصدت بابها خلفى ، ثم انطرحت على فراشى باكية !

* * *

• **وكان** أقسى ما أحزننى ، هو اننى تبينت ان ليس بوسعى أن أتمرد على ابى بشعور صادق ، اذ ان الصورة كانت تبدى « سارا » عارية تماما . فقد غاظنى ان تجلس صديقتى امام ابيها بدون ثياب .. وما لبثت ان فطنت الى نوع حبى لها ، حين علمت من «جيزيل» انها رأت«سارا» مرارا ، وهى تجلس عارية امام ابيها . **فقد ادركت اذ ذاك ان شعورى كان غيرة اكثر منه اشمئزازا .. كنت أحس بفورات غير مألوفة ، لم اكن اعرف انها الشهوة ، لأننى كنت اعتقد ان الشهوة لا تخامر المرء، الا نحو امرىء من الجنس الآخر !**

ويبدو أن أمى أدركت حقيقة حبى لصديقتى ، بعد أن اصطحبتنى لزيارة المعرض ، وشهدت موقفى امام الصورة ، فأقبلت الى غرفتى عقب عودتنا من المعرض ، وقالت : « لقد فكرت مليا فيما أريد ان أقول يا طفلتى الحبيبة ، ولست اريد

ان تسيئى فهمى ، ولكنى من اجل صالحك ارى ان صداقتك لسارا تثير قلقى ، وتخفى لك كثيرا من الآلام » . واجلستنى على ركبتيها وانا احتج ، وقالت : « اعتقد اننى فهمتك حق الفهم يا جنيفييف الحبيبة .. بل افضل مما تفهمين نفسك . وهذا ما يدفعنى الى ان انذرك بأنك تنهجين نهجا خطرا »

ــ ولكن يا ماما .. لو كففت عن رؤية سارا ، لبدا هذا كما لو اننى أطعت بابا !

وأنبتنى على تفكيرى ، ثم اصرت على ان لا اقابل « سارا » .. وقضيت نهارى التالى ــ فى المدرسة ــ معذبة ، موزعة الفكر ، حتى اذا عدت الى البيت ، جزعت امى لمظهرى ، وجاءت الى غرفتى فأبدت اشفاقها من ان اكون مريضة ! .. **وكنت مريضة حقا ، ولكن المرض كان ينبع من قلبى ! .. ووجدتنى ارجو امى ان تكف عن ارسالى الى المدرسة .. عن حملى على ان ارى « سارا » ولا أكترث لها ! .. ويبدو ان امى ادركت الخطر ، اذ بادرت الى الاستجابة لرغبتى . اما ابى ، فبدا عليه الشعور بالانتصار .. فقد كان من رأيه ان النساء لسن بحاجة الى العلم ، بقدر ما هن بحاجة الى حسن الخلق !**

وكانت آلامى مبرحة ، فى الأيام الأولى لفراقى « سارا » ، ثم وقعت صريعة حمى قاسية .. ما ان شفيت منها ، حتى وجدت مدام « بارمنته » ــ والدة جيزيل ــ تكثر من التردد علينا ، وقد اقترحت ان تلقننى دروسا فى اللغة الانجليزية .. وقالت أمى : « وهى تقترح أن تذهبى اليها فى الوقت الذى تكونه جيزيل فى المدرسة ، لأنها ترى ــ كما أرى أنا ــ انه من المستحسن ان لا تتقابلا كثيرا ، من جراء سارا ! » .. **وسرعان ما علمت ان مدام « بارمنتيه » علمت بالأمر من ابنتها ، عقب ما تجلى من مسلكى فى المعرض . واذ قلت : « وكيف لم تمنع مدام بارمنتيه ابنتها عن مقابلة سارا ؟ » ، أجابت امى « لأنها تعلم ان حب جيزيل لسارا ليس مشبوبا كحبك ! »**

ولم تبرح صورة « سارا » مخيلتى ، ولكن افكارى اتخذت اتجاها آخر ، عندما بدأت أتماثل للشفاء !

★ ★ ★

• **ولقد** كانت مدام « بارمانتيه » أكثر من أمى معرفة وعلما، فأفدت منها الى حد كبير . وكانت نبرات صوتها ـ كنبرات صوت سارا ـ تفتننى . وبقدر ما كانت تحب الشعر ، كنت ـ من ناحيتى ـ لا اكترث للشعراء ولا الخيال . ومع ذلك فقد رحت اجد متعة فيما كانت تحدثنى عنه من عالم رسمته فى خيالها .. وكانت تؤمن بالخلود ، فكان ما ترجوه فى العالم الآخر ، يساعدها على تحمل ما تلقاه على الأرض من نقائص ! .. ومع اننى كنت أعارض آراءها ، الا ان جو التعاطف الذى نشأ بيننا ، جعلنى أفيد من هذه المعارضة .

وكنت بحاجة الى دروس أخرى ، لأستكمل ثقافتى ، فتطوع الدكتور مارشان لأن يلقننى العلوم . وكانت تتوفر له كل الصفات التى كانت تنقص والدى ، ومن ثم فاننى كنت اعجب به وأقدره . على اننى لم ألبث ان تبينت فيه خلالا لم أكن أعجب بها . فقد كان وفاؤه ، وتجرده المطلق من الأنانية وحب الذات ، واحسانه الجامح ، واشفاقه الفياض على كل معذب .. كل هذه كانت تقوم على اسس من الفدائية اليائسة !

ومع ان مدام مارشان كانت صديقة والدتى منذ الطفولة ، الا انها كانت مثالا للمرأة التى لا أحب أن أكونها .. كانت متواضعة ، متطرفة فى التواضع الى درجة تلاشى أية قيمة او قدر لها .. وكنت أرى ان حب الطبيب لها ، لا يقوم على شىء يبرره ، فقد كانت تعيش فى ظلال وفائها لزوجها . والحق انهما كانا أكثر الأزواج ترابطا ، رغم سخرية الطبيب من الزواج، كنظام اجتماعى !

ولما كانت امى تعتقد ان الجهل لا يفيد اى امرىء ، فقد

تطوعت قبل ذلك بزمن ، لكى تلقننى بعض المعلومات عن الزواج ، فأدركت ان الأطفال ليسوا مجرد نتائج تلقائية لهذا الرباط القدسى ، وانما هم نتيجة علاقة بدنية يقرها الدين والقانون . وعندما سألتها مرة عن السر فى ان بعض المتزوجين يبقون بلا أولاد ، عزت ذلك الى بعض أسباب ادبية او مادية . ووجدتنى اسألها : « وكيف يتفادى الزوجان أن ينجبا أطفالا ؟ » .. وتضرج وجه أمى ، ثم تهربت من الاجابة .. وما خطر ببالى قط ان يكون فى السؤال ما يخدش الحياء . ومن ثم فقد ظل يلح على خاطرى ، حتى لقد فكرت فى أن أوجهه الى الدكتور مارشان ، بيد أن زوجته لم تكن تدعنا على انفراد قط !

وكنت فى ذلك الوقت ، أقرأ قصة « آدم بيد » مع مدام « بارمنتيه » ، واذا بى أسألها عما اذا كانت البطلة مذنبة لأنها سمحت للبطل بأن يسطو على عرضها ، ولأنها هجرت طفلها ، فقالت : « لقد علمت بأن لا مكان لها فى المجتمع ، ولا لطفلها »

ووجدتنى أقول : « اننى ارثى لها لأنها تابت وندمت ، اعتقادا منها بأن التوبة ستجلب عليها رضاء الله .. ان المرء حين يفكر فى ان المجتمع يدينها باسم الله .. » . وهتفت مدام بارمينيه : « ما هذا يا جنيفييف ؟ .. ليس لك ان تقولى انك تقرينها ! » . فقلت : « اننى أرثى لها من كل قلبى . لكننى أقف ضد المجتمع .. هل من الجرم ان يكون للانسان طفل دون ان يكون متزوجا؟ »

— من الشر انجاب طفل يكتب عليه الشقاء قبل مولده .. اذ كيف لطفل بلا أب أن يسعد ؟

— اواه ! .. لا تقولى هذا لى انا بالذات يا مدام بارمانتيه .. ما كنت لتتكلمى بهذا الأسلوب لو انك عرفت ابى .. افحتم على الأب أن يكون زوجا حقيقيا ، لكى يحب طفله ؟

ولكنها مضت فى حديثها وكأنها لم تسمعنى : « من الشر انجاب طفل تعس ، لا يلقى من الدنيا ترحابا ، بل ينبذ ويهان فى كل مكان .. ويشعر بأن أمه محتقرة ، بل أسوأ من ذلك ..

يشعر بأنها مضطرة الى أن تحتقر نفسها ! » .. فهتفت : «اذن فلا بد للمراة — اذا شاءت ان تنجب اطفالا — أن تنصاع لأن تربط وجودها بأسره ، برجل ربما لم تعد تحبه ؟ »

— ليس عليها سوى ان تحسن الاختيار !

— ربما أضلها الوهم فى البداية ، كما أعتقد انه فعل بأمى

— لا تتكلمى عن أبويك .. ان أباك يلوح لى لطيفا ، كما أن أمك زوجة رائعة !

— أذلك لأنها تضحى بنفسها دائما ؟ .. وهل من الخير أن يضحى المرء بنفسه من أجل شخص غير أهل له ؟

— ان على الزوجين ان يؤديا بعض التضحيات المتبادلة

— لماذا يسمى عدم الوفاء للزوج خداعا وخيانة له ؟ .. ان فى وسع المرء أن لا يكون وفيا ، دون أن يكون خادعا . ثم .. أليس بقاء الزوجة وفية ، بعد تلاشى حبها لزوجها ، اشد خداعا من عدم وفائها له ؟

— لا ، بالتأكيد ! .. قد لا يظل كل من الزوجين على الحب الذى كان يكنه للآخر فى بداية الزواج ، ولكن .. ان تتجه الزوجة الى حب رجل آخر ، لهو بداية الخداع ! .. وحتى اذا تضاءل الحب بعد الزواج ، فان المرء يظل مطالبا بأن يفى للقسم الذى أداه !

— اذن ، فاننى اؤثر أن لا أؤدى قسما عند الزواج !

ومع ان مدام بارمنتيه اعجبت بتحررى فى اسئلتى ، الا انها قلقت من أجل ابنتها .. ومع ذلك ، فان جيزيل لم تكن ممن يسهل تأثرهن بأى مخلوق ، بل كانت قديرة على أن تكون لها آراؤها الخاصة ، وان تتشبث بهذه الآراء ، فى عناد ، ولكن .. فى رقة ساحرة ، وصوت هادىء ! ولقد كنت أتفق مع جيزيل فى كثير من الموضوعات . وكنا عازمتين على ان نمضى فى استقلالنا فى الحياة ، فلا تكون الواحدة منا عبءا على أب أو زوج .. لم يكن الهوان — فى نظرنا — ان يكون للمراة حبيب ، وانما كان

الهوان فى ان يعولها هذا الحبيب ، وان يفرض عليها قيودا ، فى مقابل ذلك وكانت جيزيل تصبو الى ان تعمل ، وان تشغل مركزا لا يمكن لغير امرأة ان يشغله .. وكثيرا ما قالت : **« ان الفرص لم تتح – حتى الان – للنساء كى يكشفن عن قيمتهن ، وانى لأحب ان ابتكر مهنة استطيع خلالها أن أعلم النساء كيف يعرفن أنفسهن ، وكيف ينتبهن الى قيمتهن ! »**

ولم تكن تقصد بذلك تعليم المرأة ، وانما كانت تهدف الى تسليح بنات جنسها بالاقدام ، والشجاعة . ولما كان القانون يقف عائقا دون ذلك ، فقد رأت ان تدرس القانون ، لكى تلم بحقوق المرأة ، لا فى فرنسا وحدها ، بل فى الدول الاخرى ايضا .. وكانت تقول : « اننى اعتقد ان فينا امكانيات جد كثيرة ، لا نفطن اليها ، ومن ثم فهى تقبع فى نعاس ، حتى نهيب بها فنوقظها ! »

* * *

• **واتيحت** لى الفرصة بعد شهور ، كى اخلو الى الدكتور مارشان ، وأسأله فى الموضوع الذى طالما ألح على ذهنى .. وكان هو بالذات لم ينجب اطفالا ، فسألته عن السبب ، واذ ذاك تبدى عليه الألم والارتباك ، ثم قال : « ليس بوسعى أن أصف لك مدى ألمنا لذلك ، ولكن « العقم » هو السبب .. اننى لا أستطيع أن أسهب فى الشرح الآن .. وانت بعد فى هذه السن ! » .. وهنا قلت له : **« أصارحك ، أيها العم مارشان ، بأننى أريد طفلا ! »**

– لكنك لاتزالين أصغر من ان تتزوجى !

– وهل لا بد من الزواج لكى أنجب طفلا ؟ .. اننى لا أريد الزواج !

وهنا صاح فى سخرية : « هو .. هو ! فوضوية ! .. على ان هذا لا يدهشنى منك ! .. ولست أقول انك مخطئة ،

ولكنك لم تتبينى بعد الصعاب الهائلة التى.. » . ولم أدعه يتم حديثه ، بل صحت : « ان الصعاب تهون ، متى صمم المرء على نيل ما يبغى ! » .. وراح يذرع الحجرة ، ثم سألنى عما يدعونى الى رفض الزواج .. ولم اجب ، اذ فطنت الى انه سيجد فى الجدال منفذا لينأى بى عن الموضوع ، فعاد يقول : « على انه لا بد من اثنين ليتسنى انجاب طفل .. فهل تحبين أحدا ؟ »

– اننى أعلم ان الحب ليس ضرورة محتومة لشىء كهذا !

– ولكن .. هل تفكرين فى رجل بالذات ؟

وكان يقف امامى ، متفرسا فى وجهى ، فتطلعت اليه وهمست : « أجل .. أنت ! »

وأخذ يقهقه ، ثم راح يذرع الحجرة فى اضطراب ودهشة ، وهو يردد : « ما ظننت قط ! » .. ثم سألنى : « منذ متى شعرت بهذا السخف ؟ » ، فقلت فى هدوء : « ولماذا تسميه سخفا ؟ » . فخفض من صوته ، وان ظلت لهجته واضحة ، حادة ، وهو يقول : « لأننى أحب زوجتى » . ثم غادر الحجرة .. وكان قلبى يدق بعنف ، ووجهى يتقد بلهب خفى ، واستبد برأسى صداع حاد . وكأنما شعر الطبيب بأنه كان عنيفا فى خشونته فعاد يترضانى . وافترقنا على ود !

واعترف اننى منذ تلك اللحظة أحببت الدكتور مارشان .. او خلت اننى احبه . ولعلنى كنت خليقة بأن اكرهه ، لو انه شجعنى ! .. ولكنه فى لقاء آخر ، بعد زمن غير طويل ، عاد يناقشنى فى الموضوع ، فسألنى بلهجة فيها الكثير من العنف والسخرية : « ما الذى يجتذبك الى انجاب طفل .. أهو الحمل ؟ أهو المخاض ؟ .. أؤكد لك أن كلا منهما ليس بالأمر الممتع .. أهو الطفل ذاته ؟ رعايته ، وتغيير لفائفه ، ومداعبته ؟ »

وخيل الى انه يتحدث سخفا ، أو انه يهذى .. والواقع اننى لم اكن قد حللت مبررات رغبتى ، ولكنى أحسب ان من بينها الرغبة فى مناقضة نظام مستتب كنت أرفض أن اؤمن به ..

ومعارضة ما كان أبى يسميه «القواعد الخلقية» .. ومعارضة أبى ذاته ، لأنه كان ـ فى نظرى ـ يمثل تلك «القواعد الخلقية» !

وعاد الطبيب يقول : « هل تبينت مدى عبء الطفل بالنسبة لامرأة تريد الاستقلال ؟ .. انه الربقة .. العبودية ! »

* * *

• وكنت ـ فى تلك الفترة ـ لا أرى « جيزيل » الا لماما ، فلما أتيح لى أن ألقاها ، حدثتها عما اعتزمت من عدم الزواج ، فقالت : « اننى لا استهجن عزمك ، ولكنى أخالفك فيه .. اننى من النوع الذى لا يحب سوى مرة واحدة فى العمر كله ، فاذا صادفت الرجل الذى أحبه ، فلماذا لا أتزوج منه ؟ » .. وأجبتها : **« ولكننى لا أقوى على أن أهب نفسى لرجل واحد .. اننى أتمرد على فكرة اسلام حياتى للرجل الذى يمنحنى طفلا . وانى لأريده على ان يكون حرا هو الآخر ، وبدلا من ان يهبنى نفسه ، اقبل أن يعيرنيها ! »**

ـ وكيف يمكن ان تقدرى رجلا لا يفعل سوى ان يعير نفسه لعملية من هذا القبيل ، ذات أهمية قصوى للمرأة ؟ .. لسوف ترين ان الحياة ستقلب آراءك هذه رأسا على عقب .. وسيكون فى هذا كل الخير !

واذ صارحتها بما دار بينى وبين الدكتور مارشان ، نصحتنى بأن ألجأ الى أمى وانشد مشورتها !

وذهبت الى أمى ـ فى اكتوبر سنة ١٩١٦ ـ فى المستشفى الذى تطوعت للعمل فيه ، وراء خطوط القتال .. وكنت قد عقدت العزم على أن لا انبئها بحبى للدكتور مارشان ، ولكنى تحايلت حتى أوردت ذكره ، ثم سألتها رأيها فيه ، فقالت : « انه من خيرة الأطباء .. ومن أروع الرجال ! » .. وأخلدت الى الصمت برهة طويلة ، وقد ثبتت بصرها على الارض ، وأشرق وجهها بالابتسام ، ثم رفعت رأسها ، وبدا انها عاجزة

عن التحكم فى خلجات وجهها ، وهى تقول : ((**هل خطر ببالك يوما اننى احببته ؟.. ان مثل هذا الاعتراف من ام لابنتها ..)) . وأمسكت عن الكلام لحظة ، ثم قالت : ((انه سر لم أبح به لمخلوق ، وما كنت لأفضى به اليك ، لو ان فيه مايعيب ، لاسيما واننى لم أحاول أن أستدرج الدكتور مارشان الى حبى ! . فعندما فقدت تقديرى لأبيك ، وجدتنى فى حاجة الى تقدير الدكتور مارشان لى ، وكان هذا هو الذى شد عضدى خلال كثير من اللحظات العصيبة ، الأليمة !))**

وذكرت لى ان الطبيب لم يفطن الى حبى اياه ، ولكن زوجته هى التى فطنت .. ((ومن أجلها لم أقل شيئا ، اذ لم أشأ أن اؤلمها !))

ـ وهل أدركت هى تضحيتك ؟

ـ لم تكن ثمة تضحية ، بل كان الأمر أفضل من ذلك !

وقبلتنى ، ثم ابتسمت وذكرتنى باليوم الذى قلت لها فيه اننى كنت أشعر بانها تحب ((بورجسفايلدورف)) ، فقلت : ((كنت مسوقة الى أن أتصور انك تحبين شخصا غير أبى .. وصحيح اننى كنت مهتاجة ، ثائرة .. ولكن ذلك كان لأننى ظننتك تضحين بنفسك من أجلى .. وانى لأستنكر التضحيات !))

ـ انك تتكلمين كمن لم تعرف الحب بعد !

ووجدتنى أصارحها بما عرضته على مارشان من اننى كنت أصبو الى ان انجب منه طفلا .. وكنا نتمشى فى الحديقة ، فرأيتها تتراجع وكأنها تلقت صفعة ، وهتفت بصوت مختنق : ((اواه ، ياجنيفييف !)) . ثم اردفت بصوت مرتجف : ((ماالذى تملكك يا حبيبتى ؟)) .. ثم سألتنى عن جواب الطبيب ، قلت : ((رفض لأنه .. يحب زوجته . ولكنى ادركت أن ثمة سببا آخر !)) .

فهمست أمى : ((ربما !)) .. وخيل الى أن شفتيها ارتجفتا !

اواه ! لكم بدت لى اذ ذاك رائعة ، بل بدت لى أروع من كل

ما صوره لى خيالى ! .. وتكشفت لى اذ ذاك العواطف الرقيقة، الخفية ، التى كانت تربط بين امى ، والدكتور مارشان ، وزوجته ! .. تلك الخيوط الغامضة ، الهشة التى تشابكت فى السر بين قلب وقلب ، والتى دستها فى خشونة وعدم اكتراث او تقدير ، وأنا أمضى فى طريقى !

واذ ذاك فقط ، أدركت سر أمى .. فوضعت أصبعها على شفتى ، وابتسمت فى حنان .. واحتضنتها بكل قواى ، فودعتنى فى رفق !

ولم أرها بعد ذلك قط .. اذ ماتت !

المر فى الحلو !

اذا لم يكن للمرء من عيشه غنى
فلا بد من يسر ولا بد من عسر
ومن يخبر الدنيا ويشرب بكأسها
يجد مرها فى الحلو والحلو فى المر
ومن كان يعزو بالتعلات فقره
فانى وجدت الكد أقتل للفقر
ومن يستعن فى أمره غير نفسه
يخنه الرفيق العون فى المسلك الوعر
ومن لم يقم سترا على عيب غيره
يعش مستباح العرض منهتك الستر
ومن لم يجمل بالتواضع فضله
يبن فضله عنه ويعطل من الفخر

احمد شوقى



تأملات

ماركوس أوريليوس

الإمبراطور الذى لم يشغله الحكم والحروب عن
تأمل البشر ووضع ناموس لتحقيق السعادة للإنسان

تلخيص : محمد كامل الدهميس

بين مسئوليات الحكم .. والفلسفة !

◆ كان « ماركوس أوريليوس » من أمجد أباطرة الرومان ، ومن أبسل المحاربين ، وأفضل الحاكمين .. ولكنه لم يخلد فى التاريخ لهذه الصفات ، وانما بقى اسمه على مر الأجيال ، لأنه كان مصلحا عظيما ، وفيلسوفا أخلاقيا نبيلا .. كان مثال الملك الفيلسوف . ولقد تبوأ الحكم فى سن الأربعين ، فقدر له أن ينغمس فى حملات عسكرية متتالية ، فى (سوريا) ، وفى حوض (الدانوب) ، وفى (ألمانيا).. كما شغل بقلاقل داخلية ، وبوباء اجتاح الامبراطورية الرومانية بأسرها . ولكن كل هذه الأحداث لم تمنعه عن أن يسترسل فى تأملاته الفلسفية ، بل انها أمدته بمادة لها ، حتى لتعتبر « التأملات » - التى نقدمها لك فيما يلى - مذكرات كتبها فى فترة حافلة من حياته .. وقد اتجه فيها الى الدعوة الى أخوة البشر ، لتكون هذه الأخوة أساسا لوحدة أدبية ومعنوية فى الدنيا ، و ..

ولكن .. لندعك تتذوق بنفسك هذه الآراء السامية !

- الكتاب الأول -

◆ **عن** جدى « فيروس » ، أخذت الخلق الحميد ، وضبط النفس .. أما والدى ، فقد علمتنى شهرته التواضع وبثت فى نفسى شخصية الرجال . وأخذت عن أمى التقوى والتضحية ، وكف النفس عن أفعال السوء ، لا عن أفكار السوء وحدها .. كما أننى أدين لها بالبساطة فى العيش ، والبعد عن عادات الأثرياء . أما عن الحاكم - الذى أدين له بالولاء - فقد تعلمت ألا انحاز الى طائفة دون أخرى ، واكتسبت الجلد على العمل والعناء ، والزهد فى المطالب ، وأن أعمل بيدى ، وألا أتدخل فى شئون الآخرين .. وتعلمت من « ديوجنيتوس » ألا أعبأ بالتوافه ، وألا ألقى بالا الى المشعوذين الذين يدعون ان لهم قوى خارقة فوق مستوى البشر ، وأن أتحمل حرية القول ، وأربأ بنفسى عن الشجار وعن التحمس الأعمى ، وان أقبل على

الفلسفة !

وعن الفلاسفة اخذت حب الطموح ، واتباع النظام — دون أن أبدو متكلفا ، أو مسوقا — وتعودت ألا أدخل فى مناقشات تتسم بطابع المغالطات ، وان أتعمق القراءة دون ما الاكتفاء بالفهم السطحى للمسائل .. وحرية الارادة ، وعدم التأثر بالأحداث العارضة والأحزان الطارئة والامراض الوافدة .. وأن أتلقى المجاملات والمديح دون أن أبدو غير مكترث أو أن أذهب فى التواضع الى درجة الضعة !

كما تعلمت أن أقف فى صف الخير ، وأن أكون حريصا على مصالح الأصدقاء ، متسامحا مع الجهلاء ومع من يلقون آراءهم دون ما تقدير !

وعن أخى « سيفيروس » ، تعلمت أن أحب أهلى ، وأن أحب الحق والعدل والحكماء والمبرزين .. وعنه أيضا كونت لنفسى فكرة عن دولة يتساوى أفرادها جميعا تحت قانون واحد ، وتستتب فيها المساواة فى الحقوق ، وحرية القول .. كما اكتسبت عنه كمالا فى نظرتى الى الفلسفة ، وميلا الى حب الخير

ولقد قبست عن أبى الحزم ، وعدم الرجوع فى الرأى اذا ما اتخذته بعد روية ، والتسامح مع الاصدقاء ، واحتمال متاعب الحياة وعدم التأثر بها تأثرا يورث التجهم والحزن .. **ولقد كان ابى يعنى بجسده ، ولكنها ليست عناية المشغوف بالدنيا ، وانما عناية الراغب فى حياة سليمة ، دون حاجة الى أطباء أو عقاقير .. كما انه كان صريحا ، لا يخفى سرا — اللهم الا اذا كان متعلقا بالمصلحة العامة — ولا يعبأ بالمظاهر ، فكان لباسه بسيطا ، ومأكله يسيرا ، ومسكنه عاديا !**

وانى لأدين للآلهة بأن جعلتنى انشأ فى أسرة طيبة ، وأن أقبل على الفلسفة دون أن أقع فى أيدى السوفسطائيين ، أو أضل سبيلى فى مهاوى المنطق الصورى !

الكتاب الثانى

• **قل** لنفسك اذا ما استيقظت فى الصباح :

«لسوف اقابل صنوفا شتى من النـاس ، من انتهازيين ، ومخادعين ، وجاحدين .. لكنهم معذورون فى كل ذلك ، فهم مدفوعون فيه بجهلهم لطبيعة الخير والشر. أما انا ، فانى عالم بالخير وجماله والشر وقبحه ، واذن فينبغى ألا أتأثر بهم ، أو أحقد عليهم أو أعاديهم .. انهم مواطنون لى ،وما خلق المواطنون للعداء ،وانماللتعاون والتحاب » !. **فالمواطن لاخوانه المواطنين كاليد لليد ، أو الساق للساق ، أو جفن العين لزميله ، أو الفك للفك ! .. انهم لم يخلقوا الا للتعـاون ، وهـذا ما تقضى به الطبيعة عليهم : اما تعاون ، واما فناء لهم جميعا !**

مهما يكن من شأنى ، فلست سوى قطعة من لحم ، ونسمة من انفاس ، وجزء مسيطر متحكم .. فدع عنك الكتب ، وانبذ اللحم وكأنك مشرف على الموت ، واغفل الانفاس .. **أما الجزء المتحكم ـ العقل ـ فاحسب له كل حساب ! .. لا تدعه عبدا لغيره ، ولا تتركه كالدمية تجتذبه الخيوط الى الحركات التى فى غير صالح الجماعة.. وكف عن التذمر من الحاضر ، ولاتجفل موجسا من المستقبل !**

ان كل ما يأتى من الآلهة يكون مفعما بالعناية . وكل ما هو من الحظ لايمكن ان يكون مستقلا عن الطبيعة ، او غير مرتبط بالاشياء التى يسيطر عليها القدر . وهذا منبع كل امر .. من هنا يأتى كل شىء لصالح الكون بأسره ،وأنت جزء من الكون !.. انك جزء من الكل ، والكل يعمل لصون الجزء .. وكما ان الكون مصون بتطورات العناصر ، فانه كذلك مصون بتغيرات الأشياء التى تتركب من العناصر . فدع هـذه المبادىء نصب عينيك دائما ، واحمد الله من صميم فؤادك !

تذكر .. كم من الفرص واتتك به الآلهة ، فلم تنتفع بها !..

فتأمل الآن ، أى كون انت جزء منه ، والى اى كائن مسيطر على الكون تدين بوجودك ، وتذكر ان ثمة اجلا محددا لك ، اذا لم تستغله فى محو الغشاوة عن عقلك ، فانه سينقضى ، وستنقضى انت معه ، ولن تكون لك عـودة ! .. **فاستغل كل لحظة فى التفكير ، وفى عمل ما يدور بخلدك بكرامة وجدارة ، وفى الشعور بالحب والحرية والعدالة ، وفى التخفف مما عدا هذه من افكار ! .. وما اشد راحتك اذا اتيت كل عمل فى حياتك وكأنه آخر أعمالك ، فدع الاهمال ، واعرض عن الهوى ، ولا تتبـع الرياء وحب الذات !**

الا اظلمى نفسك يا نفس، ولا تطمعى فى فرصة تكرمين بها ذاتك ! .. أفتجتذبك الأمور الخارجيـة التى تعرض لك ؟ .. اذن ، فأتيحى لذاتك فرصة تتعلمين فيها شيئا جديدا نافعا ، وكفى عن التذبذب ، وعن الاستسلام لكل تيار ! .. ان الذين لايرون ما يدور بعقولهم ، لهم اشقى البشر

★ ★ ★

• **ان** الذنوب التى تصدر عن الشهوات ، ادعى للوم من تلك التى ترتكب بدافع من الغضب . لأن ما يصـدر عن الغضب ، انما ينتزع من العقل بشىء من العناء . اما الاخطاء الصادرة عن الشهوة ، فتكتسب شدتها من اللهو واللذة . **والذنب الذى يكون مصحوبا باللذة ، أدعى للملامة من الذنب المصحوب بالالم !**

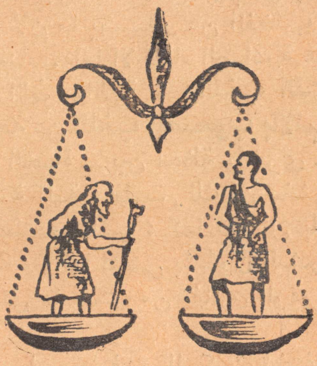
وما دام من المحتمل ان تفارق الحياة ــ بين لحظة وأخرى ــ فتأهب للرحيل .. واذا كانت ثمة آلهة ، فليس لك ان تخشى فراق البشر ، لأن الآلهة لن تقحمك فى الشر ، كما يفعـل بك الآدميون .. والحق ان الآلهة قائمة ، وانها لتعنى بشئون البشر، وقد وضعت فى متناول الانسان كل ما يمكنه من تفادى الوقوع فى شرور حقيقية !

ما أسرع ما تختفى كل الأشـياء .. فمن الـكون تختفى

الأجسام ، وفى الزمن تختفى ذكرى هذه الأجسام ، لا سيما تلك التى تغرى باللهو ، او ترهب بالألم ، او تنضح ببخار الشهرة ! .. وما أتعس الانسان الذى يجاوز كل ما حوله ، لكى يتجسس على ما تحت الأرض .. والذى يسعى بالدجل الى مافى عقول جيرانه !

انك قد تعيش آلاف السنين ، ولكنك لن تحظى بأكثر من حياة واحدة .. وسواء هى الحياة ، طال مداها أو قصر . ذلك لأن الحاضر سواء للجميع ، اما الذى ينقضى فليس سواء .. ومن ثم ، فضع فى عقلك امرين : أولهما ان كل الأحداث تجرى منذ الازل بشكل واحد ، متواترة فى دائرة لا ينقطع دورانها ، ومن ثم فلا فارق بين ما تراه فى مائة عام ، وبين ما تراه فى أجل لا حدود له .. اما ثانى الأمرين ، ان خسارة أطول الناس عمرا ، وأقصرهم حياة ، تتعادل عند الموت !

ان نفس الانسان تقسو على ذاتها عندما تنفصل عن الطبيعة ، لأن فى طبيعتها جزءا من طبائع كافة الأشياء الأخرى .. وانها لتقسو على ذاتها كذلك ، عندما تشيح مزورة عن اى انسان ، او عندما تسعى اليه مضمرة له الأذى ، كما يحدث فى حالات الغضب .. وهى تعنف بذاتها كذلك ، حين تستبد بها اللذة أو الألم ، وحين تضطر الى الاصطناع ـ فلا تكون مخلصة فى عملها ولا تكون صادقة فى قولها ـ وعندما تصدر أى تصرف او حركة لغير ما هدف ، ودون ما تفكير او اعتبار



ان كل ما يمت الى الجسد جدول جار ، وكل ما يمت الى

الروح حلم وبخار .. وما الحياة الا جهاد ، او هى استراحة المرتحل جواب الآفاق ، بين الرحلة والاخرى ! .. فما الذى يستطيع ان يرشد الانسان فى هذه الحياة ؟ .. ليس ثمة سوى الفلسفة ! .. ولكن الفلسفة تتضمن ابقاء الروح التى فى الانسان متحررة من العنف والأذى ، متعالية عن اللذة والألم ، بمنجاة من ان تفعل شيئا بلا هدف أو غاية ، ومن الزيف والغش والنفاق .. تتقبل كل ما يجرى ، وكل ما يقدر لها ، على انه صادر عن نفس القوة التى خلقت الانسان ذاته .. ثم هى — فى النهاية — ترتقب الموت بذهن صاف ، وصدر منشرح !

الكتاب الثالث

• **خليق** بنا ان ندرك ان حياتنا تنفد كل يوم وتتضاءل ، فلا يبقى منها سوى قسط يسير .. ليس هذا فحسب ، بل يجب ان ندرك انه ليس من المحقق — اذا قدر للانسان ان يعيش طويلا — ان يظل على درجة من الفهم تمكنه من ادراك الأمور ، وان يظل محتفظا بقوة الفكر الذى يجاهد ليكتسب المعرفة بالاقدار وبالانسان !

وخليق بنا ان نلاحظ ان الطبيعة لا تضن بالجمال على شىء، ولو كان اكثر الأشياء قبحا ! .. انظر الى الحيوان المتوحش — كالأسد أو النمر — انك لن تعدم فيه جمالا يستوحيه الفنان . وانظر الى الشيخ او الى المرأة العجوز .. انك لواجد فيهما — بعد أفول بهاء الشباب — جمالا يتمثل فى الصفاء وهدوء النفس !.. ثم انظر الى كل مافى الطبيعة ، تجد لمحات من الجمال .. لكنه جمال لا تراه كل عين ، وانما يبصره من يعيش على وفاق مع الطبيعة وينسجم معها ، ويتأمل نتاجها فى صفاء ، وهدوء !

لقد مات الاباطرة الذين هزموا العالم كله ، ومات العلماء الذين تأملوا فى الكون وحلوا أسراره .. فماذا يعنى كل ذلك ؟

انك ــ بعد ــ لم تتم الرحلة ، وما أتيت الى هذا العالم الا لترحل عنه بعد قليل . فلا تضيع ما بقى من عمرك فى افكار عن الآخرين، وانما صرف فكرك فى شىء ينفع الجميع ! .. ثم قل لى : فيم تفكر الآن ؟

ويحسن بك ألا تجيب سريعا ، فكم من افكار يخجل الانسان اذا تنبه الى انه يفكر فيها ! .. يجب ان تكون أفكارك وأفعالك فى صالح المجموع ، فلسوف يكون ذلك لصالحك الخاص ايضا . فلو انك نفعت الناس جميعا ، وفعل كل امرىء مثـــل الذى فعلت ، لعم النفع الجميع ، ووقع عليك نصيب منه ! .. وذلك ما تتطلبه الطبيعة من الناس ، فكل ظواهرها فى تعاون !

هذا ، ولا تبدد ما بقى من عمرك فى افكار عن الغير ، عندما تكف عن التفكير فيما ينفع المجموع . فان مثل هذه الأفكار ، تضيع عليك فرص العمل الصالح !

ولا تجهد نفسك فى العمل عن غير رغبة، ولا دون مراعاة للصالح العام، ولا دون اهتمام مناسب، ولا دون تركيز انتباه او تنسيق أفكار .. ولا تكن كثير الكلام ، كما يجب الا تشغل نفسك بكثير من المهـــام

★ ★ ★

• **واذا** وجدت فى الحياة الانسانية ما هو خير من العـــدل والحق والأريحية ، او ــ بالاحرى ــ ما هو خير من المبدأ الالهى الذى يقبله تفكيرك السليم ، فانصرف الى هذا الشىء بكل قواك! .. ولكنك لن تجد شيئا افضل من هذه الصفات ، لا النزوة، ولا السلطان ، ولا اى شىء آخر .. **انما أريد ان اقول لك : اختر بنفسك ما تراه خيرا وافضل من غيره ، فانصرف اليه . ولكن ما هو الشىء الخير ؟ .. انه اكثر الأشياء نفعا لك وللآخرين ، وعليك فى اختيار هذا الشىء او ذاك ان تنتهج منهجا سليما !**

.. ولا تعتبر شيئا ما نافعا اذا كان سيفضى بك الى نكث وعد ،

او فقدان مكانة، او كراهية انسان، او شك ، او حقد، او غرور . . فتلك صفات حرى بمن كان عضوا فى جماعة متمدينة ان يتجنبها !

ويبقى مبدأ واحد ، نضيفه الى ما سبق . ذلك هو : ضع لنفسك حدودا وأوصافا معينة لكل ما يعرض لك ، حتى تعرف – عن يقين – كنه هذا الشىء العارض ، وطبيعته ، وعلاقاته بما عداه من الاشياء . اذ ان انتهاج هذه السبيل يفضى بك الى قدر من معرفة العالم الذى تعيش فيه ، فتستطيع ان تقدر قيمة كل ما يحيط بك !

واذا تمكنت من ان تواجه اى امر من شئونك بجد وتعقل وهدوء دون ان تسمح لأى شىء بأن ينال من هدوئك ، ودون ان تخشى شيئا . . اذا تمكنت من ذلك ، وأنت راض عن نشاطك ، مطمئن الى انه يتمشى مع الطبيعة ، فأنت سعيد ، ولن يتسنى لأحد أن يمنع عنك هذه السعادة ! . . وكما ان الطبيب يكون مستعدا دائما بعقاقيره ومباضعه ، فلتكن انت ! . . **لتكن على استعداد دائما بمبادئك لتفهم الاشياء الانسانية والالهية ، ولتسلك فى كل شئونك – حتى أبسطها – السبيل الذى يربط فى عملك المبادىء الالهية بالمبادىء الانسانية . فما من امر انسانى الا وفيه نفحة الهية ، وما من شىء الهى – فى عالمنا – الا وهو مرتبط بأشياء انسانية !**

وخليق بالمرء – اذا ما اتبع تلك السبيل التى رسمناها – ان يترفع عن ان يعبأ بأولئك الذين تهبط بهم غرائزهم الى مستوى الحيوان ، واولئك الذين لايؤمنون بالآلهة ، دون ان يضيره من الناس قدح أو ذم !

الكتاب الرابع

• **على الانسان** ان يرمى الى هدف ، او يسعى الى غاية ، فى كل ما يأتيه من افعال ، حتى لا تكون حياته عبثا !

واذا كان لـكل انسان افعاله وغاياته ، فان الناس جميعـا يبتغون هدوء النفس ،وما هدوء النفس ـ فى الواقع ـ الا حسن نظام العقل .. ولذلك يجب ان تجعل مبادئك واضحة وأساسية، فانك اذا فعلت هذا ، ثم اعتزلت قليلا ـ فى الريف او على شاطىء بحر ـ واتاك هدوء النفس ! .. وهـــذا هو أثر الاعتــكاف والاســـتجمام !

لقد وجد الحيوان العاقل ليعيش وتستمر حياته ، فالبقاء هو العدل بالنسبة اليه، فما اكثر مايخطىء الانسان اذ يلجأ الى العداوة والبغضاء والتقاتل فاذا مامسك الطمع وعدم الرضى، فلتذكر ان العالم نظام سياسى ، وانت وحدة فى هذا النظام ، فلتهدأ ولترض بمكانك فيه .. **واذا ما نازعتك نفسك الى الشهرة ، فلتذكر كيف أن الناس ينسون كل شىء ، وكيف أن الدنيا هى التغير فلا شىء يبقى فيها .. ولتهدأ نفسك ، ولا تدع شهوة الشـهرة تنغص حياتك !**

ان طبيعة العـالم هى التغير ، وكذلك الحياة .. اما الموت فانه سر ، كما ان الخلق سر .. انهما « تركيبتان » من نفس النوع . وهما من شأن الطبيعة ، فعلى الانســـان أن يقبلهما راضيـــا !

وخليق بك اذا ما شعرت بضر ان لا تشكو قائلا : « لقـد اوذيت ! » . انك اذ تطرح عنك هــذه العبارة تخلع عنـك الأذى !

★ ★ ★

• **واذا** ما اتيت فعلا فليكن فعلك صادرا على هذا النسق : ان تقرر فعلك بعد تفكير وتدبر ، حتى اذا قررت الأمر فلاتمكن نفسك من الرجوع عنه الا اذا صادفك عارض آخر يقنعك بذلك .. كأن ترى ان الرجوع عنه صواب ، او للمصلحة العامة ، او ما شابه ذلك .. وليس التماسا للسرور او الشهرة !

كم من المتاعب يستطيع ان يتجنبها ذلك الرجل الذى لا يتطلع الى جيرانه .. ماذا يفعلون ، أو فيم يفكرون ؟ .. انه لا يهتم الا بذات نفسه ولذلك فهو عدل طاهر !

أيها العالم ، ان كل شىء يتمشى معك يناسبنى . ليس ثمت ما اصفه بأنه متأخر او مبكر مادام ـ بالنسبة اليك ـ فى الوقت المناسب !

يقول الفلاسفة ان عليك أن تشغل نفسك بمسائل قليلة ، اذا ما أردت لنفسك الهدوء .. وأن تفعل ما هو ضرورى ، وما يستلزمه العقل الانسانى الاجتماعى ، فان هذا لا يجلب عليك الهدوء ـ النابع من اتقان العمل ـ فحسب ، بل انه ايضا يمتعك بنوع آخر من الهدوء يشيع فى نفسك .. ذلك لأن الجزء الأكبر من اقوالنا وافعالنا غير ضرورى ، فاذا نحن تخلصنا مما هو غير ضرورى ، وجدنا كثيرا من الوقت للمتعة ، ولم يعد لدينا وقت للقلق . ولهذا فمن واجب الانسان ان يسائل نفسه امام كل عمل : « هل هذا شىء ضرورى ؟ »

* * *

• **اذا** قدر للارواح أن تعيش أبدا ، فكيف يتسنى للفضاء أن يسعها ؟ .. ولكن ، كيف يتسع جوف الارض لكل من دفنوا فيه من أقدم العهود ؟ .. ان الأمر سواء ، وكما ان الاجساد تتحلل لتترك فراغا لمزيد من الموتى ، فكذلك الارواح تتحلل وتذوب فى عقل الكون ، فتترك مجالا لمزيد من الارواح الوافدة !

ان الحياة لا تدوم لأى امرىء ، فاقنع بما تحصل عليه من معرفة ، دون ان تجعل من نفسك طاغية على الناس ، أو عبدا لأحد منهم . وما دام لن يبقى شىء ، فلا تحزن ولا تتهالك على الدنيا ! .. وارقب المبادىء التى يسير الناس وفقا لها ـ سواء الحكماء منهم وغير الحكماء ـ لتهتدى الى السبيل .. وانظر الى نفسك فتدبر امرها ، ومكن قوى الخير من ان تفصح عن

رغباتها ، واكبت قوى الشر فى نفسك ، فان الطبيعـة لا تريد الشر . . واذا شئت ان تكون على وفاق معها ، فانبذ بدورك الشر!

ان الزمن يشبه نهرا قوامه الاحداث . . نهر تياره قوى ، لايكاد يبدو خلاله شيء حتى يبتعد ثم يختفى ، ثم يأتى غيره فيحتل مكانه ، ولا يلبث هذا أن يبتعد ليأتى غيره ، من جديد . فكل شيء فى عالم الحوادث مألوف معتـاد . . من مرض ، وموت ، وسرور ، وحزن ! ولتذكر دائما قول « هرقليطس » : ان موت الأرض هو أن تصبح ماء ، وموت الماء أن يصبح هواء ، وموت **الهواء أن يصبح نارا . .** ذلك هو العالم كله ، ينتج الحاضر **المستقبل ، ويأتى المستقبل بالذى يليه . . حوادث متوقفة على حوادث ، وكلها مألوفة تتكرر كل يوم على مر العصور . . ذلك أمر الزمن ، ليس فيه توقف ، انما حركة دائمة ، وتغير مستمر !**

اذا قدر لاله أن يخبرك بأنك ستموت غدا أو بعد غد ، فلا تعبأ بالأمر ، لأنك ستعيش ما قدر لك ، وسترى نفس الأشياء التى كانت تتكرر امامك كل يوم ، ثم تموت . . دون ان يعرض لك شيء جديد . تذكر كم من الاطباء ماتوا بعد أن عالجوا كثيرا من المرضى ، وكم من الفلاسفة ماتوا بعـد ان ملأوا الاسماع حديثا ومحاورات عن الموت والخلود ، وكم من الأبطـال كذلك ماتوا بعد أن قتلوا الآلاف من البشر ، وكم من الحـكام الطغاة ماتوا بعد أن سلطوا سيوفهم على الرقاب كما لو كانوا مخلدين !

كن صلبا أمام الحوادث كالصخرة الصماء التى يتكسر عليها الموج وهى باقية ! . . ولا تقل انى تعيس لأن هذا أو ذاك حدث لى ، بل قل : « أنا سعيد . . لأن ذلك كله مر بى دون أن يؤثر فى شيئا » . ولن تقول ذلك الا اذا تحررت من الألم ، والخوف من الغد !

الكتاب الخامس

• **اذا** قمت فى الصباح كسـلانا فقل لنفسك : « انى قائم لأؤدى العمل الانسانى ، فلماذا ـ اذن ـ لاأجد من نفسى الرغبة

فى أداء العمل الذى خلقت من أجله ؟ .. هل خلقت فى هذه الدنيا من اجل النوم والاحتفاظ بالدفء ؟ »

لقد وجدت الأشياء جميعا فى هذا العالم لتعمل .. حتى النباتات ، والطيور ، وكل شىء .. كلها تعمل من أجل تحقيق وحدة العالم . والانسان فرد من الموجودات ، فغاية وجوده هو العمل . لكن الطبيعة – التى تدعو الى العمل – لاتنكر على الانسان حقه فى الراحة ، لكنها الراحة التى تجدد من قواه بالقدر الذى يساعده على مواصلة العمل الذى قدرته عليه الطبيعة !

اننى أتعامل مع الاشياء التى تحدث وفقا للطبيعة ، وسأسير فى هذا الطريق ، حتى أسقط ، وأستريح . وسأرسل أنفاسى – طول حياتى – بين تلك العناصر التى أعيش بينها ، وسأنام أبدا على هذه الأرض التى عاش عليها أبى وعاشت عليها أمى .. هذه الأرض التى غذتنى طول حياتى بالطعام والشراب ، والتى خرجت منها ، واليها سأعود !

ان الرجال انواع ثلاثة : واحد اذا قدم معروفا لأحد ظن انه يدينه أبدا بهذا المعروف .. وثان اذا قدم معروفا لأحد ، ظل يعتبر نفسه مدينا له ، وكأنه لم يوفه حقه .. وثالث اذا قدم المعروف لم يدر انه قدم شيئا .. وهو كالكرمة التى تنبت العنب فيأخذه الناس دون ان تدرى انها قدمت شيئا ، وتلك طبيعة الخيرين ، يصدر عنهم الخير شيئا عاديا لا يختلف عن غيره من الأشياء . **لكن الثانى هو خير الثلاثة ، ذلك لأن من طبيعة الحيوان المفكر أن يعلم ماذا يفعل ، ولماذا يفعله ؟ .. انه يعيش فى مجتمع ولذلك يحسن به ان يعرف ماذا يقدم للمجتمع ، وماذا يفعل هذا المجتمع !**

فاذا قلنا ان شيئا يناسب الانسان أو لايناسبه ، فماذا يعنى قولنا هذا ؟ ان العالم ذو أجزاء متحدة ، متناسق بعضها مع البعض كالحجارة المتراصة فى الهرم الواحد ، كل حجر منها

يؤدي دورا فى رفع صرح الهرم ، دون ان تكون له ــ منفردا ــ فائدة ما . كذلك الطبيعة بناء متراص من أجزاء متفرقة .. وكل فرد من البشر يمثل جزءا منها ، له مهمة خاصة فيها ، فاذا ماقام بدوره الذى تتطلبه منه الطبيعة ، واذا تلقى منها ما يقتضيه دوره فيها من أفراح أو أحزان ، فان هذا هو ما يناسبه فى حياته ، ولا حق له فى الاعتراض عليه !

* * *

• **اذا** قمت بعمل وأصابك الفشل ، فلا تحزن ولا تيأس ، وعاود الكرة من جديد .. لا تنصرف عن الدنيا الى الفلسفة باعتبارها سيدا تتعبد فى محرابه ، بل خذ الفلسفة كمرشد وهاد لك ،فان الذى تتطلبه الطبيعةهو عين ماتتطلبه الفلسفة. ولتسائل نفسك دائما : « **فى أى شىء أشغل بالى الآن ؟ وأى نفس تلك التى تحكم تصرفاتى .. أهى نفس طفل ؟ أم هى نفس شاب ؟ أم هى نفس امرأة ؟ أم هى نفس رجل جبار ؟ أم تراها نفس حيوان أنيس ، أو وحش مفترس ؟ .. اننى مكون من روح وبدن ، وكلاهما سيفنى فى العالم كما جاء منه .. سيفنى كل مافى ، فينتج عنه شىء جديد فى العالم ، وينتج عن هذا ــ بدوره ــ شىء جديد ، وتلك سنة التطور !** »

وللانسان فى حياته قوة سامية يجب ان يستغلها ، تلك هى قوة **العقل** . كذلك يجب أن يقبل على الفلسفة ، فهى فن الفكر ! .. ولكى يكون الانسان مفكرا ، يجب ان يعيش فى مجتمع يتفاعل معه ، ويتبادل واياه المنافع .. ومن ثم كان على الانسان فى المجتمع ــ وهو الصورة التى ارتضتها الطبيعة ــ أن يتحمل كل مايقع عليه ، فان غيره قد لاقى ــ ولا بد ــ عين ما يشكو هو منه ، وان كان عدم علمه بذلك ، يحمله على الظن بأنه وحيد مضطهد .. ولو انه كان حكيما ، لعرف انها سنة الطبيعة ، ولرضى بالأمر ، ولاطمأنت نفسه .. فياله من عار ،

ان يمكن الانسان للجهل من مغالبة الحكمة !

★ ★ ★

• **والشيء** الذى لا يجلب ضررا على الدولة ، لايجلب ضررا على الفرد . على ان الذى يخطىء فيصيب الدولة بضرر ، جدير بأن لايضار أو يعاقب ، وانما يجب أن ينبه الى موضع الخطأ حتى يتجنبه !

ان مبدأ العالم اجتماعى ، ولذا فقد وضع كل أدنى ، فى مرتبة تلى الأعلى . والآلهة أعلى من البشر ، فعليك بطاعة الآلهة والسلوك على نهجها ، **ولتذكر انك لن تلبث أن تصير ميتا ، وتصعد الى موطن الآلهة مخلفا الأرض على رحبها . فلماذا لا تنتظر هذه الساعة فى طمأنينة ؟ .. لماذا لا تقدم الخير الى البشر ، وتمارس العفو عنهم ؟ .. لماذا لا تتخلص من شهوات الدنيا وأنت توشك أن تخرج منها ؟ .. حاول ان تكون محظوظا ، بمعنى أن تجمع لنفسك حظا وفيرا من اعتدال النفس ، والعواطف الخيرة ، والأفعال الطيبة !**

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمى
(التمثيلى.. والغنائى)

عزيزى القارىء..

قدمت لك فى هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

• خطايا الحب • نزاهة الحكم • سلاح المرأة • فولبون • جيوكندا • كلام الناس • مدرسة الفضائح • سيرانو دى برجراك • لعبة الحب والموت • مروحة الليدى وندرمير • فاوست • فى سبيل الحب • الأم • الملك يلهو • الجنس الآلى • هرنانى • ترويض النمرة • الحياة نفاق • اغلال الحب • المنافق • بيت الليل • علموهم الحب • زوج مثالى • سالومى • مدرسة الأرامل • برهان الحب • لوسيد • كيف نقع فى حبائلهن • حلاق أشبيلية • كاليجولا • هوراس • حوادث سعيدة بالجملة • الهاربة من الفضيحة • رجل الأقدار • جوديث • البخيل • لذة الشرف • الانتقام الرهيب • جندى محترف • أندروماك • دماء الضحايا.. المقامرون..

واليوم نقدم احدى روائع المسرح الفرنسى :

المريض بالوهم

للكاتب المسرحي الساخر :
موليير



تلخيص : وحيد رياض

موليير .. الساخر من الطب !

◆ لم يسجل تاريخ المسرح شـــخصية مثل شخصية « موليير » ، الذى كان كاتبا وممثلا ومخرجا ، فى آن واحد .. والذى كانت مسرحياته سياطا لاذعة ، ألهبت المجتمع الفرنسى فى القرن السابع عشر ، وكشفت الكثير من عيوبه ونقائصه .. وقد قدم لك « كتابى » اثنتين من مسرحيات هـذا العبقرى ، احداهمـا « طرطوف » – فى العدد ٣٠ – والأخـرى « البخيل » ، فى العدد ٦٢ .. والمسرحية التى نقدمها لك اليوم ، من أروع مسرحياته طرا ، وقد أذاق فيها « موليير » أطباء عصره سخرية لاذعة ، مريرة ، اذ كان الطب فى ذلك العهـــد أقرب ما يكون الى الدجل !

على اننا لن نعوقك – أطول من هذا – عن قراءة المسرحية !

الفصل الأول

◆ يرفع الستار ، فاذا أرجان وحيد فى غرفته ، وقد جلس الى مائدة صغيرة ، وأمامه تل من التذاكر الطبية يراجع حسابها ويخفض الى النصف قيمة كل منها . ولا يلبث أن يستدعى خادمته « توانيت » ويأمرها بأن تغلى له بعض الماء ليستخدمه فى غسل معدته (حقنة شرجية) ، فتشد شعرها وهى تقول : « أى مرض هذا الذى تعانى منه حتى تتعاطى كل هذه الأدوية؟ .. لقد جعلوا منك بقرة حلوبا لملء جيوبهم بالمال ! »

أرجان : صه أيتها الجاهلة ! ليس لك أن تتدخلى فى أوامر الأطباء !

ويأمرها بأن تستدعى « انجيليك » ابنته . فما ان تفد ويهم بالحديث اليها ، حتى يضع يده على بطنه ، ثم يتنـاول عصاه ويهرع الى الخارج ، قائلا : « سأعود بعد دقائق ! » . وتنتهز الفتاة هذه الدقائق لتحدث الخادم عن حبيبها الوسيم « كليانت »

أنجيليك : هل تعتقدين يا توانيت انه يحبنى حقيقة ؟

توانيت : لن تلبثى ان تطمئنى الى هـذا الأمر يا عزيزتى ، وخاصة بعد أن كتب لك أمس بأنه على وشك التقدم لطلب يدك

أنجيليك : آه يا توانيت ! لن اؤمن بأى رجل اذا تبين ان كليانت يخدعنى !

ويعود ((أرجان)) فيتجه الى مقعـده ، ثم يبدأ حديثه على الفور

أرجان : عندى لك أنباء طيبة يا أنجيليك .. ان هنـاك من يطلب يدك .. فهل تودين الزواج ؟ !

انجيليك (مبتسمة) : ان على ان افعل مايرضيك يا ابت !

ارجان : لقد كانت زوجتى تريد منى ان اجعل منك راهبة .. أنت وأختك لويزون !

توانيت : لا شك ان لديها أسبابا خاصة لذلك !

أرجان : انها لم تـكن راضية عن هـذا الزواج ، ولـكنى أقنعتها ! .. لقد أعطيت كلمتى وان لم أكن قد رأيت الشاب بعد ، ولكن قيل لى انه سيفوز باعجابى واعجابك !

أنجيليك : بالتأكيد يا أبت .. بالتأكيد !

ويعجب الرجل لهذا التحمس منها ، فلا تلبث ان تصارحه بأنها عرفت الشاب منذ ستة أيام ، فأحبته ، وعاهـدته على الزواج . ولا يبدى الأب استياء ، بل يمضى فى تعـداد ما بلغه عن الشاب ، وهى تؤكد بحماس .. فهو : ((وسيم جدا ، بديع القوام ، مطيع ، طيب المنبت ، كثير الاعتزاز بشرفه))

أرجان : وسيصبح طبيبا بعد ثلاثة أيام ؟

أنجيليك (فى دهشة) : هو يا أبت ؟ !

أرجان : نعم ! ألم يطلعك على هذا الأمر ؟ .. لقد انبأنى به مسيو بيرجون .. طبيبى الخاص !

واذ تبدى دهشتها من ان الطبيب يعرف حبيبهـا ، يقول

الأب ان الشاب ابن اخت الطبيب ، فتهتف فى عجب : ((كليانت ابن اخت بيرجون ؟ !))

أرجان : من كليانت هذا ؟ .. اننا نتكلم عن الشاب الذى طلب يدك .. انه يدعى ((توما ديافواريس)) ، وهو ابن مسيو ديا فواريس الطبيب . **وقد اتفقت مع مسيو بيرجون ومسيو فلوران ـ الصيدلى ـ على هذا الزواج ، صباح اليوم.** وسوف يحضر الشاب فى صحبة أبيه غدا . فيم اضطرابك هكذا يا فتاتى ؟

أنجيليك : لأنك كنت تتكلم عن شخص وفى ذهنى شخص آخر !

توانيت : اذن فأنت تريد ان تزوج ابنتك لطبيب ؟

أرجان : ولماذا تتدخلين فى الأمر أيتها الوقحة ؟

ولكن الخادم تصانعه وتداهنه ، حتى يذكر انه يسعى الى أن يضم الى أسرته أطباء ، ليتوفروا على علاجه

توانيت : وهل انت مريض حقيقة يا سيدى ؟

أرجان (فى انفعال) : بكل ما للمرض من معنى أيتها الوقحة !

توانيت : ولكن ابنتك ليست مريضة ، وليس من الضرورى ان تتزوج من طبيب !

ويجيب الأب بأنه اختار لابنته الشخص الذى يفيد صحته هو ، وانه مطمئن الى طاعة الفتاة .. ثم يروح يزين اختياره لابنته ، بأن يذكر أن الشاب سيرث أباه وخاله معا . واذ تؤكد له ((توانيت بأن ابنته لن تتزوج من فتاه ، يهدد بأن يزج بأنجيليك فى الدير .. ويشتد هياجه ، فتنجذب أنجيليك الخادم الى الخارج ، بينما تقبل ((بيلين)) .. زوجة أب الفتاة

أرجان (فى اعياء) : لقد أخرجتنى عن طورى .. هذه الوقحة التى تدعى توانيت ! انها تعارض الأمور التى أرغب فيها!

بيلين : انها اخطأت يا ((قلبى)) ! **(موجهة الحديث الى توانيت التى تعود الى الغرفة فى هذه اللحظة)** لماذا أغضبت

زوجى ؟

توانيت : لأنه يريد ان يزوج ابنتـــه من « ديافواريس » ، بينما رأيت انا ان من الأفضل ان يضعها فى الدير !

بيلين : أرى انها مصيبة فى رأيها يا زوجى العزيز !

أرجان : يا للخائنة ! هل تصدقينها ! انها تكذب !

بيلين : لا تغضب يا « قلبى » ! .. أحضرى بعض الوسائد يا « توانيت » لاراحة سيدك فى مجلسه !

أرجان : لكم أنا مدين لك بهذه العنـاية يا « مامى » ؟ ! انك لاتعرفين كم أضرتنى هذه اللعينة ! ..ان علاج الأمر سيستلزم اكثر من ثمانية أنواع من الأدوية ، واثنى عشر غسيلا للمعدة !

وفى عنفوان انفعاله ، يؤكد لها انه سيسجل وصيته فورا ، عرفانا بصنيعها . ثم يستدعى مسجل العقود « دى بونفوان » فيطلب اليه ان يكتب كل ثروته لزوجته ، مع حرمان ابنتيه . بينما تتباكى الزوجة ، متظاهرة بالأسى !

أرجان : سوف يعد الوصية يا عزيزتى كما طلبت منه .ومع ذلك ، فانى أرى ان أتخذ كل الاحتياطات الممكنة ، بأن أضع بين يديك ٢٠ ألف فرنك من الذهب !

بيلين : لا .. لست أريد شيئا من هذا ! **ولكن .. كم قلت ؟**

أرجان : ٢٠ ألف فرنك يا حبيبتى !

بيلين : آه .. ياحبيبى ! ان كل ذهب الدنيا لايعدلك عندى !

وتقوده الى مخدعه ، فيخرج فى اثرهما المسـجل ، بينما تقبل « انجليك » و « توانيت »

توانيت : أرأيت المسجل ؟ لابد ان زوجة أبيك تدبر لك أمرا !

انجيليك : لتتصرف فى ماله كمـا تبغى ، بشرط ألا تتصرف فى قلبى !

توانيت : أرى أن أغير خطتى ، فأخطب ود أبيك وزوجته حتى أتبين ماذا يدبران !

أنجيليك : لا تنسى ان تبلغى كليانت نبأ الزواج الذى اتفقوا عليه !

* * *

• **ويرفع** ستار الفصل الثانى عن « كليانت » و «توانيت» فى حجرة أرجان الخاصة ، وهما يتحدثان فى الزواج الذى يدبر لأنجيليك . وتلمح توانيت رب البيت قادما ، فتتوارى وكليانت خلف ستار

أرجان : لقد أمرنى مسيو بيرجون بأن أتمشى فى حجرتى كل صباح ، اثنتى عشرة مرة ذهابا وايابا .. ولكنى نسيت ان اساله : أبالطول أم بالعرض ؟ !

توانيت (وهى تظهر من مخبأها) : هذا هو مسيو ...

أرجان : لاتصرخى هكذا ! أأتيت لتبلبلى أفكارى وأنا مريض؟!

توانيت : هنـاك شخص يريد مقابلتك **(تشير الى كليانت بالتقدم)** انه موفد من قبل المدرس الذى يلقن الآنسة الغناء **(توجه كلامها الى كليـانت)** أرجوك يا سيدى ان لا تتحـدث بصوت مرتفع حتى لا تحدث ارتجاجا فى مخ السيد المريض !

كليانت : انه لا يبدو مريضا على الاطلاق !

توانيت : انه يمشى وينـام ويأكل ويشرب كبقية النـاس ، ولكن ذلك لا يمنع من كونه جد مريض !

ويذكر الشاب ان مدرس الغناء مضطر للتغيب أياما ، وقد انابه فى التدريس للآنســة « انجيليك » ، فيـأمر « أرجان » باستدعاء ابنته • ويصر على ان يكون الدرس فى حجرته هو• وتضطرب الفتاة اذ ترى حبيبها

أرجان : لماذا انت مضطربة هكذا يا عزيزتى ؟

أنجيليك (محاولة ان تسترد هدوءها) : لا شىء يا أبت .. ولكنى حلمت أمس اننى رأيت شابا يشبه هذا الشاب تماما !

كليانت (مغازلا) : ان اى انسان ليسعد بان يشغل أفكارك ،

سواء فى المنام او اليقظة !

ويقبل فى هذه الاثناء ديافواريس وابنه توما

ديافواريس الأب (لأرجان) : لا بأس يا عزيزى .. لا بأس ! تقدم يا ولدى

ديافواريس الابن (وهو يتقدم ناحية انجيليك) : لقد أنصفت السماء يا سيدتى حين جعلت منك زوجة لوالد تلك الدرة ...

أرجان (مقاطعا) : انها ليست زوجتى ! انها ابنتى

ديافواريس الابن (الى أبيه) : وهل يجب ان أنتظر حضورها يا أبى ؟ !

ديافواريس الأب : قدم تحياتى أولا للآنسة !

ديافواريس الابن (الى انجيليك فى لهجة خطابية) : انه لمن دواعى سعادتى يا آنسة ، ان يتحول قلبى منذ الآن ليتزود بقوته من أشعة هاتين العينين الملائكيتين ! وان صاحب هذا القلب ليزهو بأن يكون دائما الزوج المتواضع المطيع ، والخادم المخلص الوفى لصاحبة هاتين العينين !

توانيت (فى سخرية) : مرحى للمدارس التى تخرج مثل هذه الفلتة !

أرجان (مخاطبا الأب) : انك لسعيد يا سيدى بأن يكون لك مثل هذا الابن !

ديافواريس الأب (فى زهو) : ان اكثر ما يعجبنى فيه ، هو انه يتبع باخلاص المبادىء الطبية التى كان يسير عليها أجدادنا ، ويرفض باباء وشمم ان يصغى الى هذه الترهات عن الاكتشافات المزعومة !

أرجان : أليس فى نيتك ان تدفعه الى البلاط الملكى ؟ !

ديافواريس الأب : لا ياسيدى .. فان العمل بجانب العظماء لا يسر ، اذ انهم يصرون على ان يشفيهم أطباؤهم !

وهنا تدخل «بيلين» ، فينتهز «كليانت» الفرصة ويخرج. ويقدم « ارجان » الشاب ديافواريس الى زوجته ، فيردد هذا

التحية التى اخطأ ووجهها الى ((أنجيليك)) من قبل

ديافواريس الابن : لقد انصفت السماء ياسيدتى حين جعلت منك زوجة لوالد تلك الدرة ، التى يبدو على وجهك ...

بيلين (مقاطعة) : ان لى الشرف ياسيدى ان أراك بيننا هنا !

ديافواريس الابن (مواصلا كلامه) : التى يبدو على وجهك .. التى يبدو على وجهك ! .. لقد قاطعتنى يا سيدتى وأشعت الاضطراب فى ذاكرتى !

ديافواريس الأب : احتفظ بهذا لمرة أخرى يا ولدى !

أرجان (موجها الحديث الى ابنته) : هيا يا انجيليك .. تقدمى وضعى يدك فى يد زوجك المقبل !

أنجيليك : لماذا تتعجل الأمور يا أبت؟ اعطنا مهلة لكى نتعارف، ويولد فينا ذلك الميل الذى يجعل الحياة الزوجية كاملة !

ديافواريس الابن : لقد ولد هذا الشعور فى نفسى بالفعل يا آنسة !

أنجيليك : وهذا ما لم يحدث لى حتى الان يا سيدى !

أرجان : لا تقلقى يا فتاتى ، فان الزواج كفيل بخلق هذا الشعور

انجيليك : أرجو أن تمهلنى يا أبت ! واذا كان هذا السيد رجلا شريفا ، فانه لن يرضى بأن يتزوج فتاة رغم ارادتها !

بيلين (لزوجها) : اذا كنت فى مكانك لما أرغمتها على الزواج ، ولعرفت كيف أتصرف فى هذه الحالة !

أنجيليك : اننى أعرف اغراضك جيدا ياسيدتى ، ولكنها قد تكون صعبة التحقيق !

بيلين : ان من واجب اى فتاة ان تنفذ ارادة ابيها !

أنجيليك : ان لكل واجب حدودا يا سيدتى ، وسلطان الواجب والقانون لايمتد الى القلوب ! .. **اننى انشد زوجا أحبه واتفانى فى خدمته مدى الحياة ، أما زواج المصلحة فأنا لست من أنصاره !**



أرجان (فى غضب) : اسمعى يا فتاة ! .. اختارى احد شيئين : اما الزواج خلال اربعة ايام ، واما الدير .. أفهمت ؟!

وتخرج انجيليك ، فتتبعها بيلين بعد برهة ، بينما يطلب أرجان الى ديافواريس الأب والى ابنه ان يفحصا صحته فيتقدما من الناحيتين ويمسك كل منهما برسغ ليقيس النبض .

ديافواريس الابن : هذا النبض لا يدل على ان صاحبه فى حالة جيدة ! فهو قوى ، الى حد ما ، وسريع .. ومتقطع احيانا !

ديافواريس الأب : عظيم .. عظيم جدا يا ولدى !

ديافواريس الابن : مما يدل على ان الطحال فى حالة غير طيبة !

ديافواريس الأب : وصف دقيق يا ولدى !

أرجان : لا .. لا ! ان بيرجون يقول اننى اعانى من الكبد !

ديافواريس الأب : لا فرق بين الاثنين يا سيدى !.. ان كلا منهما يؤدى وظيفة الأخر ، وهما معا يفرزان الصفراء فى المعدة أو الامعاء ! .. لا شك ان طبيبك يأمرك بأكل اللحوم المشوية ؟ !

أرجان : لا ! لا شىء غير الخضروات المسلوقة !

ديافواريس الأب : أجل .. أجل ! الشواء والمسلوق شىء واحد !

أرجان : الى اللقاء يا سيدى .. الى اللقاء ، فاننى متعب !

وينصرف الطبيبان ، فتقبل « بيلين » لتقول لزوجها انها لمحت شابا فى حجرة « انجيليك » ، وان « لويزون » ـ ابنة

ارجان الصغرى – كانت هناك . فيستدعى الرجل «الويزون»، ولايزال بها حتى تعترف بأن معلم الغناء هو الذى كان فى غرفة اختها . فيتهالك « ارجان » فى مقعده مهموما ، واذ ذاك يصل شقيقه « بيرالد »

بيرالد: فيم هذا الهم يا أخى ؟ .. لقد جئت لأحدثك عن زواج انجيليك

ارجان: لا تحدثنى عنها .. لسوف ازج بها فى الدير خلال يومين

بيرالد: لكم يسرنى ان عاودتك القوة قليلا .. لقد جئتك بتسلية تسرى عنك .. انهم مصريون فى ثياب مراكشية ، يجيدون الرقص والغناء .. هيا !

* * *

. **ويرفع** ستار الفصل الثالث عن نفس الحجرة ، وقد غاب عنها أرجان لحظات ، تناشد خلالها « توانيت » شقيقه ان يعرقل زواج « انجيليك » من « توما » . ثم تسرع بالانصراف حين يعود سيدها

بيرالد: هل قلت يا أخى انك ستضع أنجيليك فى الدير ؟

أرجان: نعم ! ألست حرا فى بيتى وأسرتى ؟ !

بيرالد (ساخرا): لا شك ان زوجتك ستفرح كثيرا عندما ترى ابنتيك وقد اصبحتا راهبتين تقيتين !

أرجان: ها أنت تقحم امرأتى المسكينة فى الأمر !

بيرالد: فلنتحدث اذن عن ابنتك . لماذا تصر على ان تزوجها من طبيب ؟

أرجان: لأنى فى حاجة الى طبيب بين أسرتي !

بيرالد: اذن فلو كانت ابنتك الأخرى كبيرة ، لزوجتها من صيدلى ؟ .. لماذا تصر يا أخى على ان تحيط نفسك بالاطباء والصيادلة ؟ ولماذا تصر على ان تبقى فى حالة مرض دائم رغم

أنف الناس والطبيعة نفسها ؟ !

أرجان : ان طبيبى ، مسيو بيرجون ، يقول اننى معرض للانهيار اذا تركنى دون عناية ثلاثة أيام فقط !

بيرالد : هراء يا عزيزى ! .. اذا لم تحترس جيدا فانه سيعنى بك الى درجة ان ينقلك الى العالم الآخر ؟

أرجان (مندهشا) : ألا تؤمن بالطب يا أخى ؟

بيرالد : لا يا أخى .. لست اؤمن به ! بل اننى أرى الطب من علامات الجنون الشائع بين الناس ! ولست أرى أغرب من ان يتدخل انسان ليعالج انسانا آخر من مرض ألم به ، اذ ان الأجهزة التى تعمل داخل أجسامنا ، هى من الاسرار التى تحب الطبيعة ان تنفرد بها !

أرجان : اذن فأنت ترى ان الاطباء لا يعرفون شيئا ؟

بيرالد : نعم يا أخى ! انهم يعرفون كثيرا من الألفاظ اللاتينية والاغريقية ، وتعريف الأمراض وتقسيمها .. أما ان يعالجوها فهذا مالا يستطيعونه !

أرجان : ومع ذلك فنحن نرى كثيرا من الناس يلجأون الى الأطباء ؟ !

بيرالد : هذه من علامات الضعف الانسانى .. وليست دليلا على فن الأطباء ! خذ مثلا طبيبك الخاص بيرجون .. انه جاهل ويدعى العلم ! .. انه سيقضى عليك كما قضى على زوجته وأطفاله !

أرجان : لقد عهدتك متحاملا عليه دائما يا أخى ! . ومع ذلك فماذا نفعل حين نتعرض للمرض !

بيرالد : لا شيء يا اخى .. لا شيء ! ان الطبيعة نفسها تتكفل باصلاح كل الأخطاء التى ترتكبها ! كل ما هو مطلوب منا هو ان نستريح وندع الطبيعة تعمل !

أرجان : ولكن .. ألا يجب ان نعاون الطبيعة ببعض الأشياء ؟

بيرالد : لا ياعزيزى .. ان الطبيب حين يحدثك عن معاونة

الطبيعــــة على أداء وظائفها ، وعن تنظيم الدورة الدموية ، وتنظيف الاحشاء ، واصلاح الطحال والكبد ، وتقوية القلب .. وحين يزعم انه يملك اسرارا لاطالة الحياة الانسانية ، فانما هو يتحدث عن خرافات وأحلام جميلة ! .. على اننى ما جئت الا لأحدثك عن ابنتك انجيليك. واننى لأنصحك يا أخى بأن لاتقدمها ضحية على مذبح أوهامك أو حاجات مرضك !

وهنا يدخل مسيو فلوران - الصيدلى - وفى يده « حقنة شرجية » . فيقول بيرالد لأخيه : « ألا تستطيع ان تظل لحظة واحدة دون غسيل أو أدوية ؟ ارجىء هذا لمرة أخرى ! »

أرجان (الى فلوران) : تعال فى المساء ، أو صباح غد !

فلوران (لبيرالد) : لماذا تتدخل وتعترض على اوامر الطب يا سيدى ؟ .. سأخبر مسيو بيرجون بكل هذا !

أرجان (لبيرالد) : انك تسبب لى التعاسة بعملك هــذا يا أخى

بيرالد : ان تعاستك مرجعها الى انك تعتقد انك مريض ، وتريد ان تدفن نفسك هكذا فى عقاقير الأطباء !

أرجان : لو كنت مكانى لما تحدثت بهذه اللهجة ! آه .. هذا هو مسيو بيرجون ! **(يدخل الطبيب وفى اعقابه توانيت)**

بيرجون (فى غضب) : لقد علمت وانا فى طريقى اليكم انكم تسخرون من اوامرى وتستهينون بطبى !

أرجان (متلعثما) : لست انا يا مسيو بيرجون .. انه ...

بيرجون : ان هذا تمرد من مريض على طبيبه !

توانيت : نعم ، نعم ، انه شىء فظيع !

أرجان (فى وهن) : لســت انا يا ســيدى ... ان اخى هــو السبب !

بيرجون (مقــاطعا) : ان هــذه جريمة لا تغتفر فى حق الطــب !

توانيت : لك حق يا سيدي .. ان هذا يتطلب الانتقام !

بيرجون : وانني اعلنك بأنى لن اعودك بعد اليوم ! .. وحتى أقطع كل صلة بك ، هأنذا أمزق عقد الهبة التى كنت قد منحتها لابن شقيقتي ، بمناسبة زواجه من ابنتك **(ويخرج من جيبه العقد ويمزقه)**

أرجان : ان اخى هو سبب كل هذه المصائب !

بيرجون : والآن .. ها أنذا أتركك وحيدا مع امراضك التى لن تتركك حيا اكثر من اربعة ايام او خمسة ! **(ويخرج)**

أرجان : آه .. يا الهى ! لقد مت ! انك قضيت على يا أخى !

بيرالد : ما هذا الذى تهرف ؟ .. انك لمجنون حقا !

أرجان : ألم تسمع ما هددنى به هذا اللعين !

بيرالد : وهل يمسك هذا البيرجون مصير أيامك بين يديه ! .. أفق من أوهامك يا اخى ، واعلم ان تهديدات طبيبك قاصرة عن ان تقضى عليك ، كما ان عقاقيره قاصرة عن المحافظة على حياتك ! .. والآن ، لنعد الى موضوعنا . ان عندى زوجا صالحا لابنتك !

أرجان : لا ، لا يا أخى ! اننى اريد ان اضعها فى الدير جزاء لها على معارضة رغباتى ! ثم اننى اكتشفت ان لها علاقة غرامية بأحد الشبان !

بيرالد : وهل فى هذا اى بأس يا أخى ؟ وبماذا تضير هذه العلاقة اذا كانت كفيلة بأن تؤدي الى الزوج ؟!

ويتهم ((بيرالد)) زوجة شقيقه بأنها هى التى تقتله بوهم المرض ، وتوغر صدره على ابنتيه ، كى يزج بهما فى الدير ، ويخلو لها الجو فتستأثر بكل ثروته .. ويدافع ((أرجان)) عن زوجته ، فتتظاهر ((توانيت)) بمؤازرته !

توانيت : هذا هو الواقع تماما ! **(الى بيرالد)** اتريد يا سيدى ان أثبت لك كيف تحب السيدة زوجها ؟ **(الى ارجان)** سيدى .. استلق على هذه الأريكة وتظاهر بأنك مت ، لترى حزنها عليك حين تعلم بالنبأ !

أرجان (بحرارة) : سأفعل هذا لأثبت لأخي مدى حب زوجتي لي !

توانيت (ساخرة) : ولكن لا تدعها طويلا في حزنها ، فانها قد تموت ! .. (لبيرالد) أما أنت ، فاختبيء خلف الستار ! .. ها هي ذي السيدة قادمة

وتدخل بيلين ، فتجد زوجها مستلقيا دون حراك على الأريكة ، بينما توانيت راكعة أمامه تبكي وتندب

بيلين : ماذا حدث يا توانيت ؟

توانيت : آه ، يا سيدتي ! .. لقد مات زوجك يا سيدتي !

بيلين : مات زوجي ؟!.. أأنت متأكدة من ذلك ؟.. **(يستولي عليها فرح طاغ)** لتتبارك السماء ! ها أنذا قد تخلصت أخيرا من حمل ثقيل ! انهضي !

توانيت (وهي تنهض وتتظاهر بتجفيف دموعها) : لقد اعتقدت ان من الواجب ان ابكي يا سيدتي !

بيلين : يا للبلهاء ، وماذا خسرنا بموته ؟ ! وبماذا كان يفيدنا وهو على قيد الحياة ؟ ! .. لقد كان رجلا مقلقا للجميع ، قذرا، مثيرا للاشمئزاز بعقاقيره وحقنه التي كان يغسل بها احشاءه على الدوام ، وبتمخطه وسعاله وبصاقه المستمر !



توانيت : يا له من تأبين جميل !

بيلين : يجب ان تساعديني على تنفيذ خططي يا توانيت ، وتأكدي من انك ستكافئين . فلنخف خبر موته عن الجميع ، حتى انتهي من تدبير اموري ! ان هناك أوراقا ونقودا يجب ان

أضع يدى عليها ، فليس من العدالة أن أقضى أجمل سنوات حياتى بجانبـــه دون ثمرة ! .. تعالى يا توانيت واغلقى باب الغرفة بالمفتاح ...

أرجان (وهو ينهض) : مهلا يا عزيزتى !

بيلين (فى فزع) : يا للهول !

توانيت : المرحوم لم يمت .. المرحوم لم يمت !

أرجان (الى زوجته) : أهكذا تحبين زوجك يا سيدتى ؟ ! لقد تلقيت درسا عظيما سينفعنى فى المستقبل !

وتفر بيلين من الغرفة وقد تولاها اليأس ، بينما يبرز بيرالد من خلف الستار

بيرالد : ها انت قد رأيتها على حقيقتها يا اخى !

توانيت : اننى فى الواقع لم أكن أظن ان الأمور ستبلغ هذا الحد . ها انذا أسمع ابنتك انجيليك قادمة يا سيدى ، فلتعد تمثيلية الموت لتختبر مشاعرها نحوك

ويسرع بيرالد بالاختفاء مرة أخرى ، بينما يرقد أرجان على الأريكة متظاهرا بالموت . وتدخل انجيليك الغرفة . انجيليك (ترتمى على أبيها اذ تعلم انه مات) : يا للخسارة الكبرى ! أكان يجب ان أفقـد الانسان الوحيد الذى بقى لى فى الحياة ؟ ! واين اجد عزائى الآن ؟ !

ويدخل حبيبها كليانت ، فيسألها عن سبب نحيبها ، فترد عليه قائلة : « لقد فقدت أعز وأثمن شىء فى وجودى ! »

كليانت : يا للسماء ! يا للضربة القاضية ! .. لقد كنت قادما لأطلب منه يدك يا أنجيليك !

أنجيليك : لنترك موضوع الزواج الآن يا كليانت !

(تحيط أبيها بذراعيها) اننى لم اعد من اهل هذه الدنيا .. اننى أعدك يا ابى بتحقيق رغبتك الأخيرة ، وسوف ادخل الدير لأكفر بحزنى وتبتلى عن معارضتى اياك ! .. آه .. يا للسماء ! انه يتحرك . أبى .. أبى .. انه لم يمت **(وتلقى بنفســـها فى**

أحضان أرجـــان الذى ينهض من مرقده ، بينما يظهر بيرالد من مخبأه)

أرجان : انت ابنتى ، ودمى ولحمى ! مباركة انت يا فتاتى !

أنجيليك : أبى .. ان لى مطلبا واحدا ، ارجو ان تحققه لى. اذا لم تكن موافقا على زواجى من كليانت ، فانى أتوسل اليك ألا تجبرنى على الزواج من رجل آخر !

كليانت (راكعـا أمام أرجان) : أستـحلفك بالله أن لا تقف فى طريق سعادتنا يا سيدى !

أرجان : لا اعتراض عندى يا ولدى ! سأعطيك ابنتى .. اذا أصبحت طبيبا ! !

كليانت : حبا وكرامة يا سـيدى ! اننى سأجعل من نفسى طبيبا ، وصيدليا أيضا ، اذا كان هذا هو الشرط لفوزى بيـد ابنتك الجميلة أنجيليك ! ليس أسهل من هذا الأمر !

بيرالد : عندى فكرة عظيمة يا أخى ! لمـاذا لا تصبح أنت طبيبـا ؟ !

أرجان : أتسخر منى يا أخى ؟ هـل انا فى سن تسمح لى بدراسة الطب ؟ !

بيرالد : لا شك انك تعلمت الكثير من أمراضك !

أرجان : ولـكن لا بد أن أتـكلم اللاتينية ، وأعرف اسـماء الأمراض ، والعقاقير التى يجب تقديمها للمرضى !

بيرالد : سوف تتعلم كل هذا حين ترتدى معطف الطبيب وطاقيته ! **(اى حين « يرسم » طبيبا ، كما كانت التقاليد فى ذلك العهد)** لسوف نقوم بمراسم اعلانك طبيبا ، فانى أعرف بعض اساتذة كلية الطب ، وسوف استدعيهم فورا ليضموك الى هيئة الاطباء !

أرجان : ولكن بماذا أجيب اذا قاموا باستجوابى ؟

بيرالد : لا تقلق لهذا الأمر .. سوف يعطونك ورقة تتضمن كل الاجابات المطلوبة !

* * *

• **وترفع** ستار الفصل الرابع عن قاعة كبيرة معدة للاحتفال باستقبال عضو جديد فى هيئة الأطباء ، وقد اجتمع عدد كبير منهم ، ومن الصيادلة ، ومن الممرضين حاملى الحقن . **ويرى أفراد اسرة الطبيب الجديد فى مقدمة المسرح ، وبينهم كليانت وانجليك فى شبه عناق . وفى الوسط ، يرى ارجان مرتديا معطفا من المخمل الأبيض ، وفى يده ورقة طويلة .**

رئيس الاطباء : أيها الاطباء العلماء ، أساتذة الطب ، وانتم أيها المعاونون والمنفذون لأوامرهم : ان جميع الناس يتسابقون الى ابوابنا فى طلب العلاج والشفاء ، وينظرون الينا كآلهة . حتى الملوك والامراء لا يملكون الا ان يطيعوا أوامرنا . وعلى ذلك فانه ينبغى علينا ان لا نقبل فى هيئتنا المبجلة الا الاكفاء الذين يستطيعون ملء هذه الاماكن الرفيعة القدر . ولا شك انكم سوف تجدون كل المزايا المطلوبة فى هذا العلامة الذى يتقدم اليكم اليوم ، طالبا شرف الانضمام اليكم !

أحد الاطباء : اذا سمح لى زملائى العلماء . . هل استطيع ان أسأل العالم الجديد عن كيفية علاج أمراض النحافة والصدر بالنوم الهنىء ؟

ارجان : لان له صفة «تنويمية» ذات طبيعة تخدر الحواس !

الجوقة : هذه اجابة عظيمة ، عظيمة ، عظيمة ! وهو كفء ، كفء ، كفء ، لأن ينضم الى هيئتنا المبجلة ! !

طبيب ثان : بعد اذن السيد رئيسنا المعظم ، وزملائى العلماء ، أسأل العالم الجديد ، عما يجعل للافيون قوة تمد الانسان وضيق التنفس ؟

أرجان : يعطى المريض غسيل للمعدة ، ثم يفصد دمه ، ثم يتناول « شربة » !

الجوقة : اجابة عظيمة ، عظيمة ، عظيمة ! وهو كفء ، كفء ،

كفء لأن يضم الى هيئتنا المبجلة ! !

وتتوالى الأسئلة عن مختلف الامراض ، فيجيب ((ارجان)) بنفس اجابته الأخيرة ، وتكرر ((الجوقة)) نفس الاطراء والهتاف

رئيس الجوقة : أتقسم على ان تحافظ على مبادىء الهيئة .. وبأن تكون من رأى الطبيب الذى يسبقك الى فحص أى مريض ، سواء اكان هذا الرأى خاطئا ام صائبا ؟ !

ارجان : نعم ، أقسم !

رئيس الجوقة : وبألا تستخدم أية ادوية او عقاقير فى علاج مرضاك ، سوى تلك التى توافق عليها هيئتنا المبجلة ، ولو قضى المرض على المريض أو أرهقته آلامه ؟ !

أرجان : أقسم .. أقسم !

رئيس الجوقة (يتقدم منه ويضع على رأسه قلنسوة الاطباء) : باسم هيئتنا المبجلة امنحك سلطة ممارسة الطب فى جميع أطراف الأرض

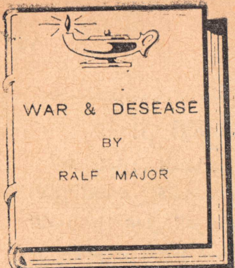
أرجان : أيها الأطباء العظام : لست ابله الى الدرجة التى أزعم معها اننى ، بانضمامى الى هيئتكم ، سأزيد الشمس ضياء .. على انى لا املك الا ان أشكركم .. فانى مدين لكم اكثر مما أنا مدين به لأبى بل للطبيعة ذاتها !

الجوقة : ليعش ، ليعش ، ليعش الطبيب الجديد !

أحد الأطباء : فلتكن سنواته كلها سمينة ومنتجة ! فلتكن أيامه كلها حافلة بالطاعون ، والحمى ، والجدرى ، والالتهابات الرئوية ، واختلال الدورات الدموية !

الجوقة : ليعش ، ليعش ، ليعش الطبيب الجديد سنوات طويلة ، يأكل ويشرب ويعالج ويبتر ويقتل

وبينما يقبل الأطباء على زميلهم الجديد ، يهنئونه بنجاحه ((الباهر)) ، يهبط الستار ، والضجة على اشدها .. وكليانت وانجيليك فى عناق



الحرب والمرض

للطبيب المؤرخ العالمى
رالف ميجر



أثر الأمراض .. فى حروب نابليون !

◆ يتبارى العلماء فى تحليل التاريخ وأحداثه ، كل على ضوء الفرع الذى تخصص فيه ، من فروع العلم .. فالعالم الاقتصادى ، يعلل الامور على هدى العوامل الاقتصادية .. والاجتماعى ، يحاول ان يربط بين الاحوال الاجتماعية والاحداث ، فيجعل الاولى نتيجة للثانية ، أو الثانية مترتبة على الأولى .

على أن أطرف هذه المحاولات جميعا ، هى محاولة تفسير أحداث التاريخ ، تحت أضواء الطب وعلم الصحة . ومن أروع ما كتب فى هذا الصدد ، الكتاب الذى نقدم لك فصلا منه ، فيما يلى ، وهو كتاب « الطب والحرب » للطبيب المؤرخ العالمى « رالف ميجر » . وما اخترنا لك هذا الفصل – الذى يدور عن اثر الأمراض فى حروب نابليون – الا لأن قسما منه يتصل بمصر والشرق .. فتعال نقرأ معا هذا البحث الطريف !

توعك القائد يؤدى الى هزيمة الجيش

◆ **ليس** من شك فى أن « نابليون » كان من أعظم قادة التاريخ ، لرجاحة مبتكراته الحربية ، والمبادىء التى وضعها للهجوم والدفاع ، واستغلال مبدأ المفاجأة والمباغتة الى أقصى الحدود ، واستيعابه الفائق لنفسية أعدائه . ولكن ..

كان ثمة نقص كبير فى قيادة نابليون .. نقص طالما ظهرت آثاره الخطيرة بين الحين والآخر . ذلك هو أنه لم يكن يتبع نظام « هيئة أركان الحرب » بوضعه الراهن ، بل كان هو كل شىء .. هو الذى يرى كل شىء ، ويسمع كل شىء ، ويرسم كل خطة ، ويصدر كل أمر .. **ولم يكن قادة جيشه سوى آلات تنفيذية لما يضعه من تدبير . وكان من جراء تركيز السلطة الى هذا الحد ان مجرد توعك نابليون – ولو ليوم واحد – كان سببا كافيا لأن يؤدى الى هزيمة قواته ، كما حدث فى معركة (بورودينو)** .. وقد استفحل هذا العيب عندما تضخم جيش نابليون الى

أقصى حد ـ فى سنة ١٨١٢ ـ فأصبح تنظيمه أخطر من ان يحتمله عاتق رجل واحد !

أفضل رجل عرفه نابليون

• **ويذكر** المؤرخون عن « نابليون » أنه كان دائم الشجار مع وزرائه وقادته ، وكان لا ينفك يلهبهم بسياط لسانه اللاذع ، بحق أو بغير حق .. لم ينج من ذلك سوى شخص واحد .. شخص استطاع ان يكون ـ بطبيعة مركزه ، وتفانيه فى عمله ـ موضع الاعجاب والاطراء باستمرار . ذلك هو « دومينيك جان لارى » الجراح الخاص لنابليون ، الذى تبعه منذ أشرق نور عظمته فى الميدان الايطالى ، وظل يرافقه كظلة الى ان قلبت له الأيام ظهر المجن فى (ووترلو)

ولقد بدأ « لارى » حياته كعازف على « الكمان » فى اقليم جبال (البيرنيز) ، ثم انصرف الى دراسة الطب ، حتى اذا أتمها التحق بخدمة الأسطول . وما لبث ان نقل الى القسم الطبى للجيش الفرنسى . ومع انه خاض حوالى ستين معركة ، فضلا عن أربعمائة من المناوشات ، الا انه لم يجرح سوى ثلاث مرات فقط ! .. **وكان ـ لشجاعته وتفانيه ـ موضع عطف نابليون ، حتى انه أوصى له ـ عند وفاته ـ بمائة الف فرنك ، ووصفه بأنه « أفضل رجل عرفته » ! .. وتصور مذكرات « لارى » ناحية من نواحى حياة نابليون العسكرية ، لم يعن بها المؤرخون الذين صرفوا جل همهم الى وصف المعارك والدسائس وتيارات السياسة الدولية .**

ومما ذكره فى هذه المذكرات ان : « أعدى أعداء جنود نابليون ، لم يكن يتمثل فى رصاص الايطاليين أو البروسيين أو الروس ، وانما تمثل فى آثار البرد ، والحرمان ، ونقص الامدادات الغذائية ، وتفشى الأمراض » !

صرعى السيوف المقوسة

• **ولقد** كان انتصار نابليون فى الميدان الايطالى ، البداية الحقيقية لمجده .. ودل هذا الانتصار على دهاء وعبقرية وسعة حيلة فى مباغتة الأعداء فى كل المواقع . كما دل على براعة فى استغلال الدعاية ، تمكن بها نابليون من ان يفيد من كراهية الايطاليين للاقطاعيين من بنى جلدتهم ومن النمسويين ، حتى انه بدا فى أعين أهل الولايات الايطالية بمثابة محرر جاء ليرفع عن كواهلهم اغلال الاستبداد ، فاستقبلوه استقبالا حماسيا رائعا .. واعدت له (باريس) ـ عند عودته ـ استقبالا أروع ، ولكنه سرعان ما سئم التكريم ، وعادت تبهر عينيه أضواء الانتصارات العسكرية ، فى الوقت الذى كانت حكومة « الديركتوار » ـ التى حكمت فرنسا فى تلك الفترة ، وكان هو من أعضائها ـ تخشى استفحال نفوذه ، وتفرده بالسلطان

ومن هنا انبعثت الحوافز التى ساعدت ، فيما بعد ، على تشكيل الحملة الفرنسية على مصر ، عندما تهيأت الحوادث لذلك ، على ما هو معروف ..

على ان الحملة لم تكد تهبط الى الاسكندرية ، حتى ألفت انها ازاء مقاومة تولاها عدو لم ير له الفرنسيون شبيها فى حروبهم السابقة .. **وتمثل هذا العدو فى طائفة من مهرة الفرسان المماليك ، تسلحوا بسيوف مقوسة ، كان من جراء فتكها ، أن وجد الفرنسيون ـ بعد ان استولوا على المدينة ـ ان لديهم مائتين وخمسين جنديا مصابين بجروح خطيرة ، مما اضطر «لارى» الى ان يحول أحد الأديرة القديمة الى مستشفى ، عكف فيه على علاج هؤلاء الجرحى**

وقد ظلت السيوف المقوسة مصدر جزع لدى الفرنسيين . وكتب « لارى » عنها فى مذكراته يقول : « وكم من جرحى فقدوا أيديهم أو أرجلهم كاملة ، بضربات ذلك السلاح الرهيب!

.. ومنهم من فقدوا أجزاء اخرى من اجسامهم ، اكثر أهمية وخطورة ! »

الجنود يثقون بالدجالين !

• على ان الفرنسيين لم يلبثوا ان فوجئوا بخطر جديد داهم ، تمثل فى مرض تفشى فى عيون الجنود ، وسماه «لارى» بالرمد المتوطن .. وهو الذى نسميه « التراكوما » !

وهكذا أخذ عدد الفرنسيين ــ الذين كانت أعينهم تلتهب ويدب فيها الصديد ــ فى ازدياد ، واستفحلت وطأة الرمد حتى ان كثيرا من المصابين لم يلبثوا ان فقدوا القدرة على الابصار . **وأصدرت القيادة تعليمات مشددة توجب على الجنود المبادرة باللجوء الى المستشفيات العسكرية بمجرد ظهور أعراض الرمد عندهم ، ولكن الجنود ــ على ما ذكر « لارى » ــ كانوا أكثر ثقة بالدجالين المحليين ، وأدعياء الطب ، منهم بالمستشفيات العسكرية ! .. وكان من جراء ذلك أن انتهت كثير من الحالات الى العمى ، فأدى هذا الى تزعزع الروح المعنوية لدى الجنود ، والى تفشى الذعر بينهم !**

على ان « لارى » لم يلبث ان فطن الى اسباب ازدياد الاصابات ، فعمل على عزل المرضى للحد من العدوى ، وبفرض الرقابة على طعام الجند ، وبغسل عيون المرضى بالمحلولات المطهرة

وهكذا استطاع الطب أن يتغلب أخيرا على الوباء الذى كاد يؤدى الى تمرد الجنود ، والى تعذر اقامة الحملة فى مصر ، والى اضطرار نابليون الى الانسحاب والعودة الى فرنسا بجيش من العميان ! .. ومما كتبه « لارى » بهذا الصدد : « لم ينج من الاصابات الرمدية ــ بين نهاية سنة ١٧٩٨ وبداية سنة ١٧٩٩ ــ سوى نسبة بسيطة من الجنود . ومن الغريب ان عددا كبيرا من هؤلاء ، ظهرت عليهم أعراض الرمد عقب عودتهم الى فرنسا ، وتطورت عند بعضهم الى العمى التام »

لولا الطاعون لاستولى نابليون على الشرق

• **وكلنا** يعرف تطورات الحملة الفرنسية فى مصر ، وكيف أدى الحصار البحرى الذى ضربه الانجليز على السواحل المصرية – بعد ان حطموا الاسطول الفرنسى – الى أن اتجه نابليون الى سوريا ، فاندفع بجنوده نحوها .. وكانت اعظم عقبة صادفته ، هى صمود (عكا) – المدينة التاريخية العريقة – واضطراره الى محاصرتها ، بعد أن خابت هجماته عليها . ولكن الاسطول الانجليزى كان يمد المدينة بالمؤن والامدادات ، عن طريق البحر ، فى الوقت الذى كانت المؤن والامدادات تعوز قوات نابليون . ومن ثم طال أمد الحصار الى درجة أورثت نابليون القلق وزعزعت من روح الجند المعنوية ..

وفى هذه الفترة الحرجة ، ظهر عدو لم يكن فى الحسبان اطلاقا .. ذلك هو ((الطاعون الدملى)) . ولم يكن الطاعون بالوباء المجهول لدى الأوربيين ، فقد عانت منه أوربا الويلات ، حين تعدد اجتياحه بلدانها فى فترات متعاقبة فى القرن الرابع عشر ، وفى القرن السابع عشر ، فكان يفتك بالناس فتكا ، ويحصد الأرواح حصدا . لذلك كان من السهل ان يثير ظهوره بين الجنود ، فى تلك الفترة العصيبة – التى أوشكت فيها روحهم المعنوية على الانهيار – ذعرا بالغا !

واضطر نابليون الى التخلى عن حصار (عكا) لخطورة الموقف . وكانت هذه أولى هزائمه فى الشرق . وقد ذكر هذه الواقعة – بعد ذلك بسنوات – وهو فى منفاه بجزيرة (سانت هيلانة) ، فقال فى حسرة : ((لو ان قلعة سانت جون بعكا سقطت فى يدى ، لا ستطعت أن أغير وجه العالم !))

وتراجع الجيش الفرنسى الى (يافا) ، حيث كان ((لارى)) وزملاؤه قد أعدوا مستشفى غص بصرعى الوباء . وشعر نابليون بأن الروح المعنوية لدى جنوده ، أوشكت على الانهيار

تماما ، فسعى الى تقويتها وتعزيزها ، بأن راح يتنقل بين المرضى ويواسيهم ، ويلمس مواطن الداء منهم فى غير تحرج .. وحدث يوما ان رأى مريضا قد سقط من فراشه ، والافرازات العفنة المتقيحة تكاد تكسو جسمه ، فما كان منه الا ان حمله بنفسه وأرقده على فراشه ، بين امتعاض حاشيته ومحاولتهم صده !

انبوبة من المطاط تنقذ جنديا !

• **وأذكت** هذه التصرفات الروح المعنوية لدى الجنود ، فلم تلبث حدة الوباء أن تكسرت .. وقدر لنابليون ان يعود بمن تبقى من قواته الى مصر ، حيث هزم الحملة التركية فى (ابى قير) . وكان « لارى » عاكفا على تدوين مذكراته عن الاصابات المتباينة ، التى كانت تنزل بالجنود فى المعركة . **ومن الحالات التى اثارت اهتمامه ، ان رصاصة أصابت جنجرة جندى ، فاخترقتها من أحد الجانبين ، ونفذت من الجانب الآخر ، مدمرة مؤخر اللسان واللهاة ــ لسان المزمار ــ التى خرجت من حلق الجندى اثناء السعال ، دون ان يفطن !**

ــ وكان من جراء ذلك ، أن فقد المريض القدرة على الكلام ، وأصبح يتعرض ــ كلما تناول جرعة من الماء ــ الى سعال شديد يتقيأ بعده ما شرب . ولم يكن بوسعه ان يستغنى عن الماء ، اذ كان الحر شديدا . كذلك تعذر عليه ابتلاع الطعام ، فما لبث ان اشتد هزاله ، ولازمه الأرق . وفقد الأطباء الأمل فى انقاذه . ولكن « لارى » كان قد احتفظ فى متاعه ببضع انابيب من المطاط ــ لحسن الحظ ــ فخطر له ان يدفع واحدة منها ببطء فى حنجرة المصاب ، حتى تخطى طرفها مكان الاصابة . وبهذا تمكن الجريح من تناول الماء والطعام ، واخذ يتحسن رويدا !

يستسلمون للأعداء بسبب المرض

• **وأدت** تطورات الحوادث ــ بعد ذلك ــ الى تسلل نابليون

عائدا الى فرنسا ، وتولى « كليبر » قيادةالحملة ، ثم الى اقدام الفدائى « سليمان الحلبى » على قتل كليبر ، فكان مصرعه من أفدح الكوارث التى حلت بالفرنسيين . وخلفه فى القيادة الجنرال « مينو » . وفى تلك الاثناء ، كان الحصار الانجليزى التركى للسواحل المصرية ، قد سد كل منفذ على القوات الفرنسية ، فراحت المؤن تتضاءل بسرعة ، وأدى ذلك الى تداعى الأحوال الصحية للجنود .. **وعاد الرمد – « التركوما » – الى التفشى ، حتى بلغ عدد ضحاياه ثلاثة آلاف جندى**

ولم يكد خطر الرمد ينقشع ،حتى أقبل مرض «الاسقربوط» فى هجوم عنيف .. وقد وصف « لارى » البقع الجلدية ، والآلام المفصلية ، وتقيح اللثة ونزفها ، فى تفصيل واف ، ثم ذكر ما أدت اليه الأمراض والجوع من انهيار معنوى وجسدى وذهنى لدى الجنود ! .. **وكان من جراء ذلك ، ان اضطرت القوات الفرنسية الىالقاء السلاح، والتسليم ،لأعدائها . ويقول « لارى » فى هذا الشأن : « واذ ذاك امدنا الانجليز بالنبيذ والخضر واللحوم الطازجة ، فكان لهذه الامدادات أكبر الأثر فى شفاء مرضانا »** .

ولقد عزا « لارى » تفشى مرض الاسقربوط ، الى عدم حصول القوات الفرنسية على خضر طازجة ، والى ان خبزها كان يصنع من خليط الأرز الشديد الملوحة والحنطة ، كما ان القسط الأوفر من اللحوم تمثل فى الأسماك المملحة .. فضلا عن أن مياه الشرب كانت تجمع فى أحواض عطنة .

الليمون يهزم مرضا عاتيا !

• **ولقد** كانت كل هذه الأسباب من عوامل ظهور المرض فعلا . ولكن « لارى » لم يكن على معرفة بهذا الداء الذى كان معروفا لدى الأطباء البحريين ، فى ذلك العهد .. بل انه كان معروفا لرجال البحر عامة منذ قرون . ففى رحلة « فاسكو

دى جاما » ، حول رأس الرجاء الصالح - فى سنة ١٤٩٨ - تعرض البحارة للأسقربوط ، وكاد تفشيه أن يقضى بالفشل على هذه الرحلة التاريخية . كذلك أصيب به بحارة « جاك كارتييه » - فى رحلتهم لارتياد (كندا) فى سنة ١٥٣٥ - وكاد يقضى عليهم قضاء مبرما ، لو لم يبادر الهنود الحمر الى مساعدتهم ، بأن أرشدوهم الى ما لمنقوع قشور وأوراق نوع من الشجر - يدعى « الأميدا » - فى الشفاء من هذا الداء !

وعندما قام اللورد « انسون » برحلته حول العالم فى سنة ١٧٤٠ ، دهم الاسقربوط حوالى ثلاثة أرباع رجاله ، وفتك بعدد كبير منهم

ولقد وضع «جيمس لند » - وكان رئيسا لأطباء المستشفى البحرى فى (هاسلار) ، بالقرب من (بورتسماوث) بانجلترا - كتابا عن هذا المرض ، فى سنة ١٧٥٣ ، وضمنه خلاصة تجاربه وابحاثه فى هذا المضمار .. **وذكر فى هذا الكتاب ، ان كل سفينة تمخر البحار ، يجب ان تتزود بكمية كبيرة من عصير الليمون ، فهو اكبر عون على عدم ظهور المرض . على ان نصيحته لم تلق أى اكتراث الى ان قدر لبعض قطع الأسطول الانجليزى ان تبحر الى الهند ، فتزودت بعصير الليمون .. واذا بها تبلغ غايتها ، بعد ثلاثة وعشرين يوما ، دون ان تتعرض لاصابة واحدة بهذا** الداء . فانتبهت الاميراليه البحرية الانجليزية لذلك ، وجعلت الليمون من المواد الرئيسية التى تجهز بها سفنها قبل قيامها بأية رحلة .. وكان ذلك فى نفس العام الذى توفى فيه « لند» !

على ان « لارى » - فى غمرة الحصار الذى ضربه الانجليز والاتراك على الحملة الفرنسية - لم يفطن الى قيمة الموالح فى مكافحة الاسقربوط !

انشاء مستشفيات الميادين

• **على أن** هذا لم يهون من شأن « لارى » لدى نابليون ،

فلما أصبح هذا امبراطورا على فرنسا ، أنعم على الجراح الوفى بلقب « بارون » ، فلم يزده هذا سوى تفان فى خدمة قائده . لا سيما فى معارك النمسا وبروسيا وايطاليا ، حيث ابتكر نظاما لمستشفيات الميدان ، نفذه بنجاح كبير . **ذلك لأن «لارى» وجد أن النظام الذى كان متبعا من قبل ، والذى كان يقضى بتأجيل علاج الجرحى الى مابعد انتهاء المعارك ، كان يؤدى الى زيادة نسبة الوفيات بدرجة كبيرة .. لا سيما وان الجرحى كانوا ينقلون بالعربات من جبهة القتال الى المستشفيات العامة ، بعيدا عن خطوط القتال .**

لذلك رأى «لارى» ان تنتقل المستشفيات ذاتها الى الميادين ، وان تخصص لنقل الجرحى اليها مركبات مجهزة بخيل قوية ، لضمان السرعة ، ومزودة بأدوات الاسعاف ، والاغذية الطبية .. بل وبالمعدات الجراحية . اذ تبين « لارى » ان اجراء العمليات الجراحية ، قبل انقضاء اربع وعشرين ساعة على الاصابة ، يجدى خير النتائج .

مائتا عملية جراحية فى ٢٤ ساعة !

• **وعندما** خيل الى « لارى » أن بوسعه أن يعتزل العمل ، وان يخلد الى الراحة وكتابة مذكراته وتسجيل ثمار خبرته ، فوجىء بنابليون يحشد « الجيش الاعظم » للاغارة على روسيا ، ويعينه « مديرا للخدمات الطبية » للحملة الروسية

وليس هناك من يجهل النحس الذى اصاب نابليون فى هذه الحملة .. وكان أول مظاهر هذا النحس ، ان أصيب نابليون بوعكة شديدة ، فى اليوم الذى دارت فيه اولى المعارك الكبرى — وهى معركة (بورودينو) — فلم يستطع ان يشرف بنفسه على المعركة ويديرها ويذكى الروح فى نفوس الجنود .. **ومع ان الجيش الروسى تقهقر بعد هذه المعركة ، الا انه كبد الجيش الفرنسى خسائر فادحة ، واضطر «لارى» وحده الى ان يجرى**

مائتى جراحة لبتر اعضاء بعض المصابين ، خلال اربع وعشرين ساعة فقط !

وأخذ الروس ـ بعد ذلك ـ يحرقون محصولاتهم ، ويهربون مواشيهم ، حتى عز القوت على الجنود الفرنسيين وخيولهم ، فكانت هذه تنفق بالعشرات ، ثم بالمئات ، ولا تلبث جثثها ان تتحول الى جيف نتنة ، تشيع فى الجو اخبث الروائح . ومع ذلك فان الجنود الجوعى لم يلبثوا أن اضطروا الى أن يقتاتوا بلحوم الجياد ، فسرعان ما أدى الغذاء الفاسد الى تفشى حالات التسمم ، حتى لقد بلغ عدد المرضى ـ بعد انتهاء معركة (اوستروف) ـ ثمانين ألفا !

وترتب على كل هذه الظروف ، ان انتشر « التيفوس » و« التيفود » بين القوات الفرنسية ، وراح يفتك بأفرادها .

الطبيعة والمرض يفنيان الجيش المنسحب

• **واحتل** نابليون (موسكو) بعد كل النكبات ،ولكنه سرعان ما الفاها تحترق .. فلما خمدت نيرانها ، نزل فى « الكرملين » ـ الذى لم تكن النيران قد أصابته بسوء ـ وأوفد الى القيصر يعرض الصلح ، فكان رد القيصر : « الآن فقط ، أبدأ الحرب »!

ولاحت نذر الشتاء الجليدى الرهيب ،وكانت المواد الغذائية عسيرة المنال ، والذخائر أشد عسرا . فلم يجد نابليون بدا من الرحيل عن (موسكو) فى ١٩ اكتوبر سنة ١٨١٢ . ولكن الشتاء الفظيع أطبق على القوات المنسحبة ، فكان أشد من العصابات الروسية فتكا بالجنود الهزالى ،الضعفاء، الجائعين !

وقد وصف « لارى » هذه الظروف فى مذكراته ، فقال : « اخذ رجال ، ما كان يدعى يوما بالجيش الأعظم ، فى الزحف نحو الغرب ، وقد تيبست أطرافهم من جراء البرد ، وطمس الجليد أبصارهم .. وكانت الجياد تنفق بالعشرات ، فينقض عليها الجنود ينهشونها .. وكان الجرحى وضعاف الاجسام

يتساقطون على جوانب الطرق ، فلا يلبث الجليد أن يدفنهم ويقضي عليهم . وقد عثرنا في تقدمنا على عدد كبير من موتى الفرقة الثانية عشرة ، التي كانت تضم ـ حين بارحت فرنسا ـ اثنى عشر ألف جندى ، لم يعد منهم سوى ثلاثمائة وستون فقـط » !

مخاطرات مع .. القمل !

• **ومما** زاد الأمر سوءا ، أن القمل ـ المتولد عن القذارة ـ راح يعمل جاهدا فى نشر « التيفوس » بين البقية الباقية من الجيش التعس. وقد اورد جاويش فرنسي يدعى «بورجونى»، فى مذكراته ، وصفا طريفا لمخاطراته مع القمل ، فقال :

« استلقيت على حصير لأنام ، فى قرية (دوروبوجوف) ، فاذا بالحشرة اللعينة تقض مضجعى . وسرعان ما اكتشفت اسرابا منها تسرح فى طيات ثيابى ، فبادرت الى خلع قميصى وسروالى ، وألقيت بهما الى النار ، فاذا الحشرات اللعينـة تنفجر لفرط الحرارة محدثة اصواتا كدوى الرصاص » !

وهكذا كان المرض من أقوى الحلفـاء الذين تعاونوا مع الروس .. على ان نتائجـه لم تقتصر على الفتـك بالجنود الفرنسيين ، بل ان الذين قدر لهم ان يغادروا روسيا سالمين ، حملوا معهم مختلف الاوبئة ـ من تيفوس وتيفويد وديسنطاريا ـ فبثوها فى أوربا الوسـطى ، حيث ظلت منتشرة زهاء ثلاث سنوات بعد الحملة !

يأمر بتحويل المدافع .. اكراما للطبيب !

• **وبدأ** نجم نابليون فى الأفول ، ولكن هذا لم يمنع «لارى» من ان يظل ملازما له فى المعارك .. ثم جاءت معركة (ووترلو) ، فراح الطبيب المتفانى يؤدى واجبه الانسانى، حتى نحو الجرحى من الأعداء ، بعزيمة لا تعرف الكلل ، رغم ان السنين كانت قد

بدأت تعمل عملها معه ! .. ولقد رآه القائد الانجليزى « دوق ولينجتون » ـ وهو يرقب المعركة من قمة جبل (سان جان) ـ وقد ظل يواصل تفقد الجرحى ، تحت نيران المدافع الانجليزية .. **فما ان عرف القائد انه طبيب ، وانه يؤدى مهمته الانسانية للجميع ، حتى امر بتحويل النيران عن القطاع الذى كان فيه « لارى » .. ثم رفع قبعته تحية ، فسأله دوق كمبريدج : « لمن هذه التحية ؟ » ، فأشار بذؤابة سيفه نحو « لارى » وقال : « انما أحيى هذا النبل وهذا التفانى » !**

على ان « لارى » لم يلبث ان أصيب بضربة سيف شجت رأسه ، ثم أخذ أسيرا واسعف وعولج .. وقدر له أن يشفى ليحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص . وشاءت المصادفة ان يكون الضابط الذى انيط به أن يعصب عينيه ، ممن سمعوا محاضراته الطبية ، فعرفه واخذه الى قائد الجيش البروسى ، المارشال « بلوخر » .. وبمصادفة اخرى ، تذكر القائد ان « لارى » كان قد انقذ حياة ابنه يوما ، على مقربة من (درسدن) ، فرد اليه الجميل بأن انقذ حياته ، ورد اليه حريته

وهكذا نجا « لارى » من الموت بمصادفات تفوق الخيال !

وأخلد الجراح العظيم الى الهدوء ، بعد أن أفل نجم نابليون ، متوفرا على كتابة مذكراته .. الصفحات الناطقة بخطر الامراض فى الحروب ، وبدور الطب فى تغيير مجرى التاريخ !

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمنا لك فى الاعداد الماضية ، الكتب الآتية : • كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية • طريق السعادة الزوجية • مركب النقص • حواء الجديدة • كيف تقهر الخجل • كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة • فنون الحياة : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن التفكير ، فن الاستمتاع بالشيخوخة • غزو السعادة • التحليل النفسى فن الحب (لأوفيد) • الانتصار على الخوف • عش بحكمة تعش سليما • كيف تتجنب متاعب الأعصاب المرهقة • تاريخ الغزل • كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة • اتح لعقلك حياة جديدة • دنيا الحب والسعادة حب وجنس وخيانة • السلوك الجنسى عند الرجل • فى بلاد العراة • السلوك الجنسى عند المرأة • ارادتك ملك يديك

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..


SELF-SUGGESTION
BY
R. DE SAINT-LAURENT
الإيحاء الذاتي
للباحث النفسي: ر. دي سانت - لوران

أداة تمكنك من التأثير فيمن حولك

◆ قدم لك « كتابى » فى العدد الماضى ، أحدث كتب النفس التى ترشدك الى أسهل الطرق لتقوية الارادة وتعزيزها ٠٠ وقد ورد فى سياق ذلك الكتاب ، ذكر « الايحاء الذاتى » ، كوسيلة رئيسية فى سبيل خلق الارادة لدى الانسان ٠ لذلك ، رأينا ان نتتبعه بالكتاب الذى نلخصه لك فيما يلى ، عن « الايحاء الذاتى » ، الذى أجمع العلماء على انه الميزان الذى يمكن الانسان من ضبط نفسه على طريق وسط ، بين مختلف الأفكار والآراء والاتجاهات ٠٠ انه الاداة التى تبرز قوة شخصيتك ومفعولها ، حتى تتمكن من التحكم فى الحوادث ، بدلا من أن تنساق اليها !٠٠ انه سبيك الى التأثير على من حولك ، حتى تخطو الى مصاف الزعامة ٠٠ ان شئت أن تكون زعيما !

نتحدث عنه ولا نعرفه معرفة كافية

• **لا يكاد** يوجد بين الوسائل التى تبارى الفلاسفة ـ على مر العصور ـ فى ابتكارها لتمكين الانسان من تدعيم شخصيته، ما يفوق « الايحاء الذاتى » تأثيرا وبساطة .. فهو السبيل الى ان يضاعف المرء من مفعول شخصيته حتى يغدو بمنجاة من ان تتحكم فيه الأحداث وتسوقه بالرغم من ارادته ، وحتى يكون قادرا على ان يسيطر على نفسه فى الملمات والضائقات ، فيستطيع ان يعالج موقفه بحيث يسيطر هو على الأحداث.. وحتى ينمى من تأثيره على جميع من يحيطون به ، او يعاشرونه .

وعلى كثرة ما نردد « الايحاء الذاتى » على السنتنا ، فلا يزال كثير من الناس يقتصرون على معرفة سطحية به ، ومن ثم فهم يسيئون استغلال هذا السلاح القوى ، من اسلحة الشخصية ، أو يستعملونه استعمالا خاطئا !

قــوة ((الايحاء الذاتى))

• **لذلك** كان اول ما ينبغى عليك ــ اذا شئت ان تفيد منه ــ هــو :

ان تفهم ــ قبل كل شىء ــ مدى ما للايحاء الذاتى من قوة !

فلسنا نغالى اذا قلنا «ان الايحاء الذاتى» جدير بأن يساعدك على التخلص من العيوب والنقائص والعادات السيئة ، وان ينمى ملكاتك المعطلة ويزودك بملكات جديدة ، ويمكنك من ان تعزز شخصيتك وتقويها . ذلك لأن الأفكار قوى .. وهى قــوى فعالة . حتى لقد قال بعض الحكماء ، ان «الافكار تحكم العالم»، فجاء التاريخ مصدقا لذلك . وليس بالشىء المجهول ذلك الأثر الذى كان للأفكار الفلسفية التى شاعت فى القرن الثامن عشر .. الأثر الذى ادى الى قيام الثورة الفرنسية .

وبفضل ((الايحاء الذاتى)) ، تستطيع ان تحول افكارك الى قوى فعالة تساعدك على بلوغ ما تصبو اليه من آمال ! .. تستطيع ان تطلق ما فيها من طاقة ، على شريطة ان تحسن استخدام هذه الاداة الفعالة !

وما اشبه الشخص الذى يحسن استعمال «الايحاء الذاتى»، بالنوتى الذى يستعين بشراع قاربه ، ينشره على أكمل وجه ، فاذا القارب يسرى فوق الماء سهلا سريعا .. هل يستوى هــذا بالنوتى الذى يحاول جاهدا أن يسير قاربه باستخدام المجذفين؟ .. وما هــذا الاخير سوى الشخص الذى يحاول تشكيل شخصيته بفضل قوة الارادة وحدها !

عندما تنقلب الأفكار الى أفعال

• **تعال** نفحص ــ بتفصيل واسهاب ــ تلك العمليات الغامضة ، الفعالة ، التى تتخذها الأفكار فى اعماقنا :

لنفترض اننا سمحنا لفكرة معينة بأن تنفذ الى عقلنا ، فما

التأثير الذى تراها تحدثه علينا ؟ .. **لسوف تبادر ارادتنا الى مقابلة هذه الفكرة، سواء بالاعراض او بالقبول ، تبعا لما تتضمنه. فكلما بدا الشىء لخيالنا جذابا أو مواتيا لما نهفو اليه، ازداد اسراع ارادتنا فى الانجذاب نحوه !** .. وهذه ظاهرة كثيرا ما تصادفنا فى حياتنا اليومية ؟ .. ألم تفطن مرة الى الأثر القوى الذى تحدثه فى نفسك الاعلانات الجذابة ؟ .. ان ايحاءها ينفذ الى عقلك ، فيوجهه خلال الأفكار التى تصطخب فيه !

ثم .. الا يحدث كثيرا ان نرى شابا حسن النشأة ، درج بين اسرته على الاتزان والاجتهاد ، ينقلب فجأة فينساق الى الفساد ، خارج نطاق اسرته ؟ .. مثل هذا الشاب يغريه السرور الذى يزينه له رفاق السوء ، فينساق لنفوذهم وايحائهم، ويحيد عن الطريق السوى

ان الأفكار فى هذا المثال ، قد انقلبت الى أفعال .. ولكنها أفعال سوء ، للأسف !

الأفكار تؤثر على الحالين النفسية والصحية

• **ولكن** الأمر أعمق من ذلك .. فالفكرة اذا ما نفذت الى عقلك ، قد تغوص أحيانا الى أعماق بعيدة ، فتؤثر فى عقلك الباطن، ولا تلبث ان تتدخل فى انفعالاتك العاطفية . واذ ذاك ، تتولد تلك الكلمات والحركات التى يخيل للمرء ان ارادته لا تملك تحكما فيها ! .. **فالقلق او خشية الفشل ، لا تلبث ان تبعث فى المرء تشاؤما مستمرا ، فيقتنع بأنه لا يستطيع النجاح فى شىء ، وانه دون سواه مقدرة. وما ذلك الا لأن أفكار الضعف والتوجس تمكنت من نفسه** .. كذلك نراه يعانى الخجل ، فيتولاه الاضطراب والارتباك ، اذا ما وجد فى حضرة افراد يعتقد أنه اقل منهم شأنا . مع ان هذه المضايقات لا تلبث ان تختفى من نفسه ــ وكأنما مسها سحر خفى ــ اذا قدر لمثل هذا الفرد أن يفلح فى تغيير رأيه ، وفى استعادة ثقته بنفسه !

ولا يقتصر فعل الافكار على هذه الحالات النفسية ، بل انه يمتد الى الصحة البدنية . فان الحزن والهم قد يسببان امراضا تؤدى الى أوخم العواقب . فى حين أن التفاؤل يساعد على مغالبة الأمراض

والآن .. اذا لم تكن قد استوعبت ما سبق من حديث ، فجدير بك أن تعود الى قراءته !

ذلك لأن « الايحاء الذاتى » هو « ان تختار الأفكار ذات القوة المحفزة الدافعة ، فتحفظها فى عقلك » . اذ انها لا تلبث ان تنبه ارادتك وتبعثها على العمل ، وتولد فى نفسك انفعالات مفيدة ، وتضفى على صحتك آثارا طيبة !

أكد لنفسك أنك ناجح !

• **ان** « الايحاء الذاتى » يضع فى متناولك قوة فعالة مطواعة ، اذ يمهد السبيل امامك لاستغلال ما للأفكار من امكانيات وعن طريقة تستطيع ان تحصل للعقل على انطلاق كامل ، بفضل تحريره من الأفكار المحزنة التى قد تكون اكتسبتها من الحوادث أو ممن يصادفك من أشخاص .

ومنهج « الايحاء الذاتى » سهل بسيط .. فاذا شئت ان تسلكه ، فابدأ الآن ، ولا تضيع وقتا . وهاك تمرين بسيط ، لا يتطلب اكثر من أن تردد لنفسك العبارات التالية ، اما فى السر ، أو همسا :

ـ **بوسعى** أن أبدل شخصيتى تماما وبسهولة .. بالايحاء الذاتى

ـ **بوسعى** أن أصحح عاداتى الخاطئة ، وأن أقوى شخصيتى عمليا

ـ **أستطيع** أن احسن مركزى ، وأن أنجح فى كل ما أريد . فانى امتلك سر النجاح الذى لا مراء فيه

ـ **أننى** اسير فعلا نحو التحسن والفوز ، لأننى استغل قوة

الايحاء لصالح نفسى .. وسأزداد سرعة فى تقدمى
ـ سأكتسب فى كل يوم مزيدا من الانتصارات لنفسى
كرر هذه العبارة لنفسك مرتين ـ فى كل يوم ـ على الأقل .. مرة قبل ذهابك الى عملك فى الصباح ، ومرة قبل ان تأوى الى فراشك . وكن مخلصا صادقا فى تأكيد كل عبارة لنفسك ، فى أناة ، وفى مغالبة لأية أفكار تكون فى ذهنك

اعرف نفسك أولا !

• **وهاك** تمرينا آخر لا بد منه :
افحص نفسك ، وسجل كتابة ما تجده من مشاعر أو عادات سيئة تريد التخلص منها ، وما تود ان تكتسبه من المشاعر والعادات الحسنة .. اسأل نفسك :
ـ هل انت ميال الى التقاعس والخمول ؟ .. وهل ينقصك منهج واضح تنتهجه فى اداء عملك ، وفى مواصلة تأدية واجباتك ؟
ـ هل انت هدف لنوبات من الهبوط البدنى او الضيق النفسى ، تدفع بك الى التشاؤم فى كل ما تفكر فيه ؟ .. أتشعر بأنك أدنى من المنصب الذى تشغله ، وهل تحس بالخجل فى علاقاتك بالغير ، وهل يثبط من عزيمتك الخوف من الفشل ، الذى تخال انه يلازمك ؟
ـ هل تريد حقا ان تضاعف من مقدرتك على الجهد العقلى ، وأن تكتسب مزيدا من القدرة على التركيز ، وان تزيد من تأثير شخصيتك ؟
حدد اجاباتك الحقيقية عن كل هذه الاسئلة اولا ، وركز اهتمامك على كل ما تريده مما جاء فى السؤال الأخير ، فاذا نلت شيئا منه ، فاسع الى آخر .. وهكذا

شروط لا بد منها .. اذا شئت النجاح

• **وللايحاء** الذاتي قواعد ، يجب ان تؤخذ على انها شروط

للتعاون بينك وبين امكانيات نفسك . وكثير من الناس يفشلون فى تحصيل النتائج التى ينشـدونها من الايحاء الذاتى ، لانهم يهملون بعض هذه الشروط ، فيؤدى بهم هـذا الى ان يفقدوا الثقة فى « الايحاء الذاتى »

والواقع ان هذه القواعد سهلة ، فاقرأها فى امعان :

١ ـ **يجب ان يقوم الايحاء الذاتى على حقائق** : فليس اضر بهذا المنهج من المبالغات ، ومن تجاوز الامكانيات العملية

٢ ـ **يجب ان تنقى الايحاء الذاتى من كل فكرة غريبة عن غايته** : اذ ان المفروض منه ، هو أن تصور لنفسك ان فكرة ما ، او عمل ما ، ليس بالأمر العسير الأداء عليك .. ومن ثم فعليك ان تركز كل اهتمامك على هذه الفكرة ، او هذا العمل ، دون سواه . فاذا شئت ان تقهر الخجل ، وجب ان تتخلص من كل فكرة توحى بالشك فى نفسك ، او بالخوف

٣ ـ **يجب ان يكون الايحاء الذاتى ايجابيا** : فان السلبية قـد تؤدى الى عكس المرغوب .. لا تقل « انا لا اعبأ بالصعاب » ، وانما قل : « بوسعى أن أتغلب على الصعاب » !

٤ ـ **يجب ان يكون الايحاء مثبتا ، وحاضرا** : لا تقل « لسوف أصبح .. » ، وانما قل : « ان فى متناولى الآن أن أكون .. » . ذلك لأن صيغة المضارع ، تسلمك الى العمل فورا ، اما صيغة المستقبل فتترك مجالا للتردد

٥ ـ **يجب ان يتكرر الايحاء الذاتى من وقت الى آخر** : وقد اعتاد نابليون ان يقول ان التكرار هو خير قوة مؤثرة فى الحديث ، اذ انه يبث الافكار فى النفس الى اعماق بعيدة . **وهناك اوقات معينة ـ فى اليوم ـ يكون الايحاء فيها أجدى منه فى سواها . فان النفس تتأثر بالايحاء عندما يكون الجسـد مستريحا ، مسترخيا ، محوطا بالهدوء** .. ولعل خير الأوقات هى التى تلى الاستيقاظ مباشرة ـ قبل مغادرة الفراش ـ وقبل الاستسلام للنوم ، لا سيما وان العقل الباطن لا يلبث ـ فى الحال الأخيرة ـ

ان يستوعب الأفكار التى توحيها الى نفسك ، ويروح يرددها طيلة الليل !

لاتتحول عن الطريق بعد السير فيه !

• **قد** يستغرق منك هذا المنهج بضعة اسابيع ، قبل ان تحرز تقدما ملموسا فى تكوين شخصيتك ، فلا يثبط طول الزمن من عزيمتك .. وهنا نحب ان ننبهك الى عادة سيئة يجب ان تتخلص منها أولا . تلك هى ان تبدأ فى عملك بحماس ، ثم لايلبث هذا الحماس ان يفتر رويدا ، حتى تجد نفسك منصرفا عن العمل قبل ان تجنى ثماره !

ولكى تتخلص من هذه العادة ، كرر لنفسك عند الاستيقاظ ـ فى كل صباح ـ وقبل النوم فى كل مساء : « لكم اجد الاستمرار فى هذا العمل سهلا ، وكم استمتع بأدائه . اننى لا ارجىء منه شيئا الى الغد ، كما اننى اقبل عليه فى كل يوم ، بنفس النشاط والتحمس ، اذ ان جهودى الأولى فى العمل قد زودتنى بدافع لاينفد . ولهذا فان عملى يبدو اليوم سهلا ، وبفضل جهودى سيكون فى الغد اسهل »

وليس معنى التكرار ان تردد العبارة بنصها هذا ، بل ان لك ان تبتدع لنفسك من العبارات ما يؤدى معناها ، وما يجعلها مطابقة لظروفك الخاصة ، اذ ان خير عبارات الايحاء ، هو ماكان من ابتكارك

هذه سبيلك الى النجاح ..

• **ولكى** تنمى مقدرتك وكفاءتك الشخصية ، لابد لك من أن تروض نفسك على أمور ، اهمها : **الانتاج**

ذلك لأن الانتاج هو سنة الحياة ، فلا مجال فى الدنيا لعاطل ، اذ ان المجتمع لا يمكن ان يستوى قائما ، الا اذا قام كل فرد فيه بدوره الخاص . والعمل هو أساس طبيعة كل المخلوقات ،

فى هذه الحياة الدنيا . ولعلك تجد خير المثل فى خلية النحل . فهناك تخصص يجعل لكل فرد وظيفة ومهمة : الملكة تضع البيض، والشغالة تبحث عن الازهار فتمتص رحيقها ، وتعنى بالخلية .. أما الذكور ، فباقتراب الشتاء من نهايته ، تكون قد أدت الدور الذى خلقت من أجله ، فيقضى عليها سكان الخلية . **ومعنى ذلك ان المرء اذا انتهى دوره ، ولم يشغل بدور جديد ، لم يعد أهلا لأن يعيش !**

ولا بد لك ــ اذا شئت ان تزيد من مقدرتك على العمل ــ من امرين : **المنهج ، والنشاط**

ذلك لأن جهودك تذهب هباء اذا انت لم ترسم لنفسك ــ قبل بدء العمل ــ منهجا يتضمن الطريقة التى تؤدى بها هذا العمل والخطوات التى تتخذها فى سبيل ذلك ، وترتيب هذه الخطوات . **فاذا مارسمت منهجك ، وجب ان تتذرع بالنشاط فى تنفيذه . واحرص دائما على ان لا تبدأ عملا الا اذا انتهيت من سابقه .** فان العمل الناقص يظل عبءا يعرقل مضيك فى العمل الجديد ، أو يغدو مجهودا مضيعا لا ثمرة له !

واحرص كذلك على ان تنصرف الى العمل بكل قلبك : فلا تتشاغل عنه ، ولا تنظر الى متاعبه ، بل اوح لنفسك بأنه ممتع ، جدير بأن تشغف به .. وابحث دائما عن نواحى الجمال فيه . ولا تنفك تردد لنفسك : « لكم احب عملى هذا .. اننى لأعجب به ، وأقبل عليه فى رغبة » !

وفكر دائما فى النتائج المرجوة من العمل : فان تمثل النفع الذى يعود عليك منه ، جدير بأن يحببك فيه .. استعرض دائما ما ينتظر ان يجلبه عليك من كسب مادى ، أو مركز اجتماعى ، او .. او .. الخ . فان هذه الأفكار تضاعف من اقبالك على العمل بشغف وسرور ، فيلين لك كل صعب فيه !

اقض على هذا العامل الهدام !

• وفى الحياة من ضحايا الضيق النفسى والاكتئاب ، فوق

ما قد يخطر بالبال ، وان كان معظمهم يخفون ما بهم تحت مظهر من الهدوء المصطنع . ومثل هذا الصنف من الناس ، يكون مفرط الحساسية ، فهو موزع دائما بين نوبات من الحماس وذكاء الهمة ، ونوبات من القنوط والاستخذاء .. لا تكاد تحمله موجة ، حتى تسلمه الى موجة مناقضة لها ، مما يحرمه من راحة البال ، واستقرار الفكر . **ومثل هذه الحالات المتناقضة تشل نشاطهم ، وتعرقل نجاحهم !**

على ان بوسعك ان تتخلص من هذه الحال ـ اذا كنت من اصحابها ـ اذا تذرعت بالايحاء الذاتى .. وأول خطوة ، فى هذه السبيل ، هى ان : تحلل اسباب الضيق والاكتئاب

ولسوف تجد ـ عندما تفحص الأسباب فى هدوء وروية ـ ان معظمها لا يكاد يكون شيئا يذكر ، وانك ضحية أعصابك واوهامك . ذلك لأن المرء مقيد فى حياته بكثير من التوافه التى قد يؤدى نقص بعضها ، او الاخفاق فى توفيرها ، الى نوع من الضيق الذى يروح يتفاقم فى النفس بفعل « الايحاء الذاتى » ـ ونقصد هنا الايحاء الخاطىء الشرير ـ مما يؤدى الى الانقباض و **« الايحاء الذاتى » كذلك ـ ونقصد هنا الايحاء السليم النافع ـ هو دواؤك الذى يضمن لك الشفاء من هذا الداء .**



فكرر لنفسك مخلصا : « ليس ثمة شىء أسهل من التخلص من ذلك الشعور بالضيق .. ان العلاج الذى اقوم به الآن لن يلبث ان يشفينى ! » .. فاذا ما تقدمت ، فانتقل الى درجة اخرى فى

الايحاء بأن توحى الى نفسك بأنك **فعلا** قد بدأت تشفى كأن تقول : « انى أشعر بهدوء ، وهذا الشعور يتزايد معالوقت » . وانتقل ـ بعد ذلك ـ الىدرجة اخرى منالايحاء اكثر تعقيدا ، فأوح الى نفسك بأنك شفيت ، وانك لن تعود الى الكآبة مهما يصادفك من صعاب ، كأنتقول : « لقد شفيتالآنمن المرض ، ولا يمكن لشىء «انيضايقنى ، بل انىلأتلقى الحوادث بابتسام »

كيف تقاوم التأثيرات الخارجية ؟

• **بعض** الناس يمضون فى السبل التى يرسمونها لأنفسهم دون ما تردد أو نكوص . ذلك لأنهم أصحاب ارادات قوية ويصعب التأثير عليهم أو اثنائهم عنأغراضهم ، سواء كان هذا التأثير من أفراد حولهم ، أو من أحداث تحيط بهم . لكن أمثال هؤلاء القوم أقلية ! .. فى حين ان الغالبية من الناس ضعيفو الارادة ، يسهل استهوائهم واثنائهم عن مقاصدهم . فهم لذلك يشرعون فى العمل ، ثم اذا بهم يتعثرون فيسيرون فى هذا الاتجاه أو ذاك بعيدين عن غرضهم الأصيل !

فهل أنتممن تتغير سبلهمبسهولة ؟ وهلأنت ممن يصرفون وقتهم فى حساب الوقت الذى سيستغرقه عملهم ، بدلا من الانصراف بالجهد الىذلك العمل ؟ .. اذا كنتمن هؤلاء فبادر الى الدفاع عن نفسك ضد هذه المؤثرات الخارجية التى تحيد بك عن سبيلك ، مستغلا فى ذلك « الايحاء الذاتى » !

وكما ان الانسان يحرص دائما على اتقاء عدوى الأمراض المؤذية ، كذلك يخلق به ان يتقى عدوىالقدوة السيئة . ذلك لأن المرء يتأثر ـ دون أن يفطن ـ بالوسط الخلقىالذى يحيط به ، وان أنكر هو هذا التأثر .. ونحن نضرب مثالا لذلك بالطالب الذى يعتاد الاستذكار تحت بصر والديه ورقابتهما ، ثم يقدر له ان ينتقل الى وسط آخر ، كأن ينتقل الى مرحلة أخرى من التعليم ، تضطره الي ان يقيم فى بلد آخر ، بعيدا

عن أهله .. مثل هذا الطالب ، قد يضطر الى الاقامة مع طلبة يستهويهم اللعب ، أكثر مما يستهويهم العلم . وهو قد ينكر عليهم هذا — فى البداية — وقد يتضايق من صحبتهم ، ولكنه لا يلبث ان يميل اليهم رويدا ، ودون ان يشعر .. فهو فى بادىء الأمر قد يضحك لمزاحهم ، وقد لا يرى مانعا من ان يراقبهم فى لعبهم ، ثم لا يلبث أن يميل الى مشاركتهم اللعب اثناء فراغه .. وشيئا فشيئا ، ينصرف اليهم بكل انتباهه

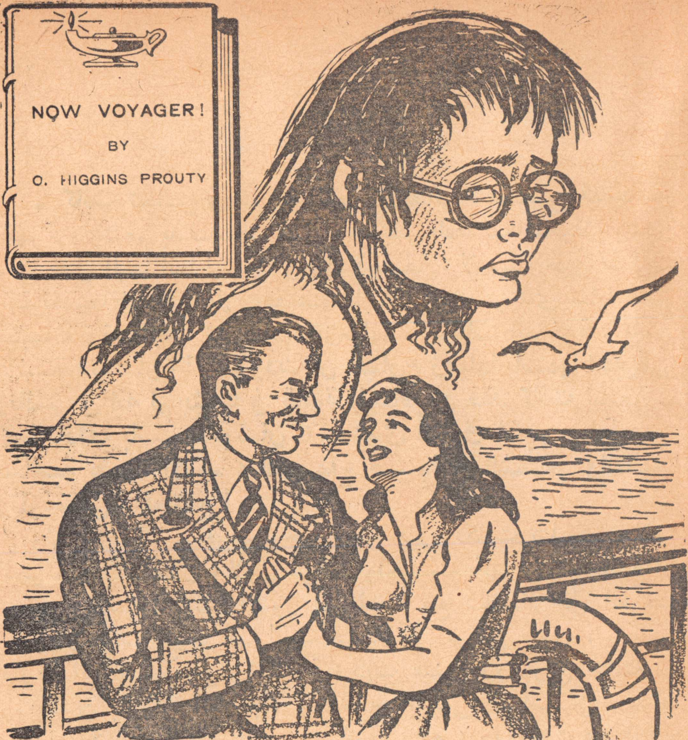
كذلك يحسن بك ان تعرض عن النصح الذى يصدر من غير أهله .. فهناك هواة يوزعون نصائحهم على كل من يصادفهم، دون ان يطلب اليهم ذلك، اذ يخالون ان الظهور بمظهر الناصحين يجديهم احتراما ومكانة يفتقدونهما .. فتجد التاجر المفلس لا يتورع عن ارشاد سواه الى كيفية تصريف شئونهم المالية ، مثلا ! .. وهؤلاء الناصحون لايصدرون فى نصحهم عن تجربة أو خبرة ، ولا يكلفون أنفسهم عناء مشاركتك متاعبك ، لأنهم لا يهتمون بصالحك أو ضررك ، وانما الذى يهمهم حقا ، هو ارضاء أنفسهم بانتحال مظهر الناصحين !

فاذا طرقت اذنيك عبارات من أمثال هؤلاء الناصحين ، فاستعن بالايحاء الذاتى، وابتكر من العبارات مايناقض ايحاءهم، ثم ردده لنفسك .. فهذا هو خير مصل يقيك عدواهم !

والآن .. ان الطريق الى النجاح والفوز ، واضح أمامك ، فاقبل لفورك ولا تضيع وقتا ، حتى لايتسلل اليك التردد :

ادرس نفسك يوما ، لتتعرف مواطن النقص فتعالجها .. وارسم لنفسك الخطة التى تتبعها فى حياتك لتبلغ اهدافك ، وتجنب الخيال والمبالغة فى ذلك .. ثم استغل كل ما لديك من طاقة ونشاط لتحقيق هذه الاهداف ، بادئا بما تمس بك الحاجة اليه ، ومعقبا بما يليه ، وهكذا .. ولا تتعجل ، فان العجلة قد تزيغ بصرك عن غايتك ، وتحيد بك عن طريقك ..

ولتكن اداتك فى كل خطوة ، هي .. ((**الايحاء الذاتى**)) !



المعجزة!

(آن لك أن تستقر أيها الرحالة!)

للكاتب القصصي :

أوليف هجينز بروتي

تلخيص : كليمانس منترى

• **كانت** تجلس فى شرفة المقهى الايطالى ، تحتسى قدحا من القهوة ، وتنعم بدفء الشمس ، ومنظر الحديقة المحيطة بالمكان .. وخيل اليها انها ليست فى عالم الحقيقة ، لاسيما حين تذكرت انها نفسها لم تكن على حقيقتها .. كانت ترتدى ثيابا غير ثيابها ، وقد ألفت أن يناديها زميلها ، وركاب الباخرة ، باسم الآنسة «بوشان» !.. **وودت أن تصارح زميلها باسمها الحقيقى، وبالسر فى انه لم يثبت فى قائمة المسافرين فقد كانت تشعر — كلما ناداها باسم ((بوشان)) — بمدى الفارق الكبير بينها وبين صاحبة هذا الاسم ، التى ذاع صيتها فى الشعر والتأليف والموسيقى والمجتمع !**

ولم تكن قد سافرت وحيدة من قبل فكانت تتذوق حلاوة الحرية والاستقلال ، لأول مرة . واحست بأنها لن تستطيع ان تمضى فى تمثيل هذا الدور الزائف ، مع ذلك الرجل الغريب

وكان يبدو عليها انها أبلت حديثا من مرض قاس .. كانت فارعة القوام ، سمراء البشرة ، ذات عينين زرقاوين حالمتين ، ووجنتين بارزتى العظام ، وحاجبين بديعى التناسق .. اما ثيابها ، فكانت أنيقة ، تنم عن ذوق رائع ، مما استرعى انتباه المسافرين ، لا سيما وان تصرفاتها كانت لا تتسق مع اناقتها .. فقد كانت دائما تتباعد عن الآخرين !

***

• **وراحت** تنعم النظر فى زميلها ، فاذا عيناه عميقتا الزرقة، واذا ثيابه أقرب الى أزياء رجال الأعمال الامريكيين . واثار انتباهها الفارق بين لونى شعر رأسه الخفيف الاشيب ، وشعر حاجبيه الكث الداكن ! .. وكانا قد تقاسما ثمن الغداء ، ولكن الرجل أصر على ان ينفرد بدفع ثمن الشراب . ومع ان الجهد

كان قاسيا على من كانت مثلها فى دور النقاهة ، الا أنها طافت بالمتاجر مع زميلها ، اذ سألها أن تساعده على انتقاء بعض حاجيات لزوجته وبناته الثلاث . وقد طاب لها أن تفعل ذلك ، عملا بنصيحة الدكتور جاكيت ، الذى أوصاها بأن تشترك فى كل نشاط اجتماعى خلال الرحلة ، وان تتقرب الى الناس .

وقال الشاب : « لكم تختلفين فى مسلكك عما كنت اتوقع .. معذرة ، فقد سمعت عنك الكثير ، لا سيما عن ترددك — فى عطلات آخر الأسبوع — على مزرعتك فى (كنتكى) ! » .. واذ ذاك ، استجمعت جرأتها وقالت : **« انني لست « رينيه بوشان » ، وان كان الجميع ينادونني كذلك .. لقد اضطرت الآنسة بوشان الى التخلف عن الرحلة ، وحللت انا محلها . ولم يكن ثمة متسع من الوقت لتبديل الاسم المثبت فى قائمة المسافرين »**

— اذا لم تكونى الآنسة بوشان .. فمن تكونين ؟

— الحق اننى لا أدرى .. لست متأكدة !

وتأملت قدمها .. لأول مرة كانت ترتدى حذاء عالى الكعب ، اذ كان الطبيب قد نصح لأمها — قبل عشرين عاما خلت — أن لا تسمح لها بغير الأحذية الواسعة ، ذات الكعوب القصيرة ! .. وخطر ببالها اذ ذاك خاطر غريب : « اذا صح ان الثياب تصنع الناس ، فأنا اذن « ليزا » زوجة أخى ! »

وعاد الرجل يقول : « ألست متأكدة من اسمك ؟ .. اننى ادعى ج . د . دورانس ، من نيويورك .. فما اسمك ؟ » . ولم تجد بدا من ان تقول : « ش . فيل ، من بوستن » . فتساءل : « أآنسة أنت أم سيدة ؟ » .. وحاولت ان تبتسم ، وهى تقول : « ان فى كل أسرة عمة عانسا .. وانا هى ! » . على انه لم يقنع بذلك ، فلم يزل بها حتى علم انها تدعى « شارلوت فيل » .

ولم تنقض ساعات ، حتى كان قد قدم اليها زجاجة من العطر وألح عليها كى تقبلها . وكان الوقت قد صار غسقا ، فسرها انه لم يستطع ان يتبين ما ألم بها من ارتباك وخجل . فما سبق

لرجل ــ غير أبيها ــ أن قدم اليها هدية !

***

• **ولم** تكد « شـــارلوت » تخلو الى نفسها فى قمرتها على الباخرة ، حتى راحت تتأمل وجهها ، فى امعان لم تقدم عليه منذ سنوات ، محـــاولة أن تعرف السر فى تلك النظرات التى كان زميلها يرمقها بها طيلة ذلك النهار .. نظرات كانت تلاحظها من قبل ، منبعثة من عيون الرجال ، نحو نساء غـيرها ! .. لا ، ما كان من المعقول ان تكون ثيابها المستعارة هى السبب ! .. على انها استعارت من « ليزا » ما هو اكثر من الثيـــاب .. استعارت طريقتها فى الجلوس ، وحركاتها ، وأسلوبها فى الكلام. لقد كانت « ليزا » هى التى اغرتها بدخول مصح « كاسكيد » ، بعد ان اكد الأطبـــاء ان مرضها لم يكن عضويا ــ كما اعتادت أمها أن تصر ــ وانما كان ناشئا عن صدمة عصبية .

لكم كانت امها تصر على أن تستبقيها الى جوارها ! .. كانت قد رزقت بها بعد ثلاثة اولاد ، تجاوزوا جميعا سن العشرين ، ومن ثم فقد كانت لاتفتأ تدللها بأن تسميها «ابنة الشيخوخة» ، أو « بطتى الدميمـــة » ، أو « دميتى القديمة الطراز » ! .. واذ كان أخوتها ملاح الطلعة ، فقد شعرت « شارلوت » بأن مقدمها الى الدنيا لم يسبب سرورا لأحد ! وكانت أمها تزيدها دمامة ، اذ أصرت على ان تستخدم نظارة ذات قرصين سميكين ، اشفاقا على عينيها ! .. ولكن طبيب العيون فى مصح « كاسكيد » اكد ان لا حاجة بها الى نظارة ، كما ان « ليزا » دفعت بهـــا الى « صالون » للتجميل ــ عقب مغادرتها المصح ــ فاذا بشـكلها يتغير بدرجة تدعو الى العجب ! ثم جاء التغير الاكبر فى حياتها ، حين اقترح الدكتور جاكيت ــ عقب تماثلها للشفاء ــ ان تعيش بعيدة عن امها فترة . وتصادف ان كانت صديقتها « رينيه بوشان » قد حجزت لنفسها مكانا فى رحلة سياحية فى البحر

الأبيض المتوسط ، ثم اضطرت لظرف طارىء الى ان تعدل عن السفر ، فأسرعت « ليزا » الى حجز المكان لشارلوت ، واعارتها من ثيابهـا كل مالم تكن هى بحاجة اليه ، اذ كانت لا تزال فى حداد على زوجها !

استعرضت « شارلوت » كل هذه الأمور فى ذهنها ، وهى تتأمل صورتها فى المرآة ، ثم نهضت فارتدت ثوبا انيقا يكشف عن نحرها ، وصبغت شفتيها ، وتأهبت لتحتفل مع زميل النهار بتعارفهما ، كما اتفقا . وأسرعت الى قاعة الشراب على الباخرة .. وما لبثت ان عثرت على فتاها ، وسط الزحام ، وقدارتدى ثوبا أنيقا للسهرة . وسعلت حين أشعل لها سيجارة ، فى الركن المنعزل الذى قادها اليه ، اذ انها لم تكن قد جربت التدخين من قبل .. **وعندما سمعت زميلها يطرى ثوبها ، ألفت نفسهـا تصارحه بأنه لم يكن ملكا لها .** حتى اذا تبدت على مستر دورانس الدهشـة ، وقبل ان يجد فرصـة للكلام ، أقبلت عليهما سيدة تدعى مس « ديمارست » ، وهى تصيح بصوت رفيع : «آه .. مستر دورانس ،ومس بوشان .. ياللصدف!» .. ودعتهما الى ان يشتركا مع ثلة فى لعب الورق . ولم تكن شارلوت قد مارست اللعب مذ توفى والدها ، ولـكن دورانس أهاب بها : « تعالى نجرب حظنا يا مس بوشان » . **وضغط على الاسم وكأنه مفتاح سر بينهما ، وقد اومضت عيناه فى حنان، فخفق قلبها لهذه النظرة التى طالما رأت غيرها يتبادلونها دونها، مما كان يجعلها تشعر بأنها منبوذة !**

وعندما لاحظ دورانس حرجها ، عندما وجهت اليها احدى المشتركات فى اللعب حديثا ، على انها الآنسة « بوشـان » ، فخف لنجدتها قائلا : « آه ، انها ليست رينيه بوشان .. لقد وقعت فى نفس الالتباس ، ولـكنى تبينت انها تدعى الآنسـة كاميليا بوشان .. بل انهـا ــ رغم تشابه الاسم ــ من اسرة

لاتمت الى اسرة رينيه بصلة » ! .. ثم رمقها من طرف خفى، وقد التمعت عيناه !

* * *

• وسألته عندما خلت اليه بعد اللعب ، عن اصراره على انها تحمل اسم بوشان ، فقال : « لم لم تصححى الوضـع ؟ » . فأجابت : « انما تنقصنى الجرأة ! » .. وكان رده : « وهـل هذا امر يحتاج الى جرأة ؟ .. اننى مغادر الباخرة فى (نيس) ، على اية حال ، وفى وسعك اذ ذاك ان تقولى اننى كنت أمزح »

ــ ولكن .. لم اخترت لى اسم كاميليا ؟

ــ لست أدرى .. لقد طرأ على بالى مذ رأيتك فى هذا الثوب القرمزى ، وكأنك احدى زهور الـكاميليا ، وقد بدأت اكمامها تتفتـح !

وعبست اذ ظنته يسخر منها ، فما اعتادت من قبـل ان يتغزل فيها رجل . واذ لمح عبوسها ، هتف : « آسف .. ان زوجتى كثيرا ماتضيق بدعاباتى هى الأخرى،اذ تخالها سخرية!» . **ثم مضى يحدثها عن « ايزابيل » ــ زوجته ــ التى لا تكف عن التهوين من شأنه . ودعاها الى نزهة على سطح الباخرة ،ولكنها ألفت نفسها تبادر الى الرفض، فقد تذكرت فجأة موقفا مماثلا. فلقـد رافقت امها ــ قبل سـنوات ــ فى رحلة الى السويد والنرويج .فالتقت على الباخرة بضابط من ضباطها ، كان يدعى « ليسلى تروتر » . وسرعان ما شعرت بارتياح اليه . حتى اذا كانا يتمشيان على ظهر الباخرة ــ ذات مساء ــ اذا به ينهال عليها تقبيلا ، فأحست بأنها تهواه !**

واضطربت لهذه الذكرى ،ولم تعد تستطيع بقاء معدورانس، فأسرعت تستأذنه فى الانصراف ، متعللة بأنها كانت متعبة .. وهتف الرجل وهو ممسك بيدها : «عمى مساء يا مس بوشان»، فأجابت وهى تتمنى لو انها كانت تعرف اسمه الأول : « عم

مساء يا .. ج . د ! » . ثم هرولت الى قمرتها ، وهو يشيعها بنظره ، وقد طفح وجهه سرورا . فما سمع احدا يناديه « ج . د . » مذ بارح الجامعة .

وأحس دورانس بأنه قد تخفف من خمس وعشرين سنة من عمره . وحاول فى تلك الليلة ان يكتب الى زوجته ، فأحس بعناء .. كانت « ايزابيل » تضطره الى ان يكون ذا شخصية مزدوجة — رغم انه عرف بين اصدقائه بالصراحة — فقد كان يضطر الى ان يتقمص امامها الشخصية التى يعلم انها ترضيها، حتى اذا ابتعد عنها ، ارتد الى شخصيته الطبيعية ! .. **وكان يضيق — فى بداية حياته الزوجية — بهذا الرياء ، مما كان يثير الشقاق بينه وبين زوجته ، ولكنه لم يلبث ان تعلم — بالتجربة — ان الحصافة والرياء صنوان ! .. وبنفس هـذه الحصافة، التى حذقها ، جلس يكتب الى زوجته ، ثم اختتم رسالته بان اوصاها بأن تترفق بابنتهما « تينا » التى تركها وهى باكية !**

ولم ينم لفوره ، بل استلقى على فراشـه ، وراح يقرأ ، مستعذبا حريته . اذ كانت « ايزابيـل » تكره منه شغفه بالقراءة فى السرير ، زاعمة ان الضوء يطرد النعاس عن عينيها . فلما حاول ان يفصـل بين سريريهما ، ليحجب عنها الضوء ، عارضت فى عناد ، زاعمة ان اى حاجز كان يوحى اليها بتصدع فى حياتهما الزوجية ، مرددة : « لكأننى اصبحت أرملة » !

* * *

• **ولم** تنم « شارلوت » لفورها ، فى تلك الليلة ، هى الاخرى .. فقد آبت الى غرفتها متهللة الوجه ، واسم « كاميليا » يتردد فى اذنيها .. وطالعتها فى المرآة فتاة غريبة عنها تماما .. فتاة زاخرة بالامل والشباب !

وكانت تخال ان قصـة « ليسلى » قد طويت مع الزمن ، ولـكنها فوجئت بها تبعث من جديد .. وتمثلت رؤية تلك

العلاقة التى توثقت ونمت ، حتى قدر لأمها ان تفاجئهـا ـ وفى صحبتها الربان ـ فى موقف غرامى .. وكان ((ليسلى)) نبيلا ، **اذ أعلن انهما قد اتفقا سرا على ان يكونا خطيبين . ولكن الأم كانت عنيـدة قاسية . فلما وجـدت ان ((شارلوت)) ظلت متشبثة بحبها ، وبرغبتها فى الزواج من الضابط البحـرى ، عدلت من برنامج رحلتهما ، واصرت على البقاء فى (النرويج) الى ان رحلت السفينة عنها !**

• وظلت ((شارلوت)) سجينة غرفتها بالفندق هناك ، فى انتظار سفينة اخرى تقلهـا وامهـا الى انجلترا . وفى تلك الاثنـاء ، وصلت من ((ليسلى)) رسالة ، حملتها اليها الام .. كان الشاب يصارحها بأنه اقتنع بما ذكرته امها والربان ، من ان زواجهما ليس من المصلحة فى شىء ، لأى منهما ، وانه قد عاهد أمها على ان لا يسعى الى الاتصال بها قط ، او الكتابة اليها ! .. وظنت شارلوت ـ فى البداية ـ ان ((ليسلى)) كتب الخطاب متـاثرا بوعيد ، ولكن المصادفة لم تلبث ان القت بين يديها بصحيفة بها نبأ عن زواج ((ليسلى)) بفتاة من (نيويورك) .. وكانت صدمة علمت شارلوت ان لا تفتح قلبها قط لرجل !

ولم يوات النعاس شارلوت ـ فى تلك الليـلة ـ الا بعد ان استعانت بأقراص منومة . وكانت على موعد مع دورانس ـ فى الصباح التـالى ـ ففكرت عنـدما استيقظت ، فى ان تعتذر اليه ، ولكنها شعرت بقوة فوق طاقتها ، ساقتها الى حيث كان ملتقاهما فى الميناء .. ولم يكد ((دورانس)) يتفرس فى وجهها ، حتى تبين آثار الدموع التى ظلت تذرفها طيلة ليلها السابق . بيد انها زعمت أنهـا تعرضت لنوبة من النوبات التى خلفهـا مرضها . فاذا دورانس يصارحها بأنه أصيب بنفس المرض ، ولـكنه لم يستطع ان يتحمـل نفقـات المصح ! .. وهكذا كانت حالهما سواء ، حتى فى المرض !

وراح ـ خلال نزهتهما ـ يحدثها عن نفسه واسرته .. كان

مهندســا معماريا ، ولكنه اضطر ـ لأسباب قهرية ـ الى ان يتجر فى الحديد والأدوات الكهربائية . وقد كان فى طريقه الى (ميلان) ليعقد احدى الصفقات التجارية . **وعلمت ان كبرى بناته كانت فى الحادية والعشرين ، وكانت الثانيــة تصغرها بعامين . اما الثالثة ، فخالت شارلوت أنهــا ترى فيها صورة لصباها .. كانت فى الثانيــة عشرة من عمرهــا ، وكانت امها تدعوها ((ابنة الشيخوخة)) . وكانت دائما متجهمة ، متوترة الأعصاب ، متوعكة الصحة ، تستعمل نظارة عبثا حاول دورانس أن يحملها على التخلى عنها !**

وعادت ((شارلوت)) الى الباخرة ، وبين يديها باقة من زهور ((اللافنــدر)) قدمها اليهــا دورانس . وكانت ثمة مفاجأة فى انتظارهما ، فقد انضم الى البــاخرة زوجان كانا من اصدقاء دورانس ، هما ((ماك)) و ((ديب)) . واهتز قلب الفتــاة اذ رأتهما ينظران اليها باعجاب لم تكن تألفه . وكانت ثمة مفاجأة اخرى .. فقد تبينت أن ((ديب)) كانت من تلميذات ((ليزا)) . ثم بهتت اذ كشفت الذكريات عن انهما قد تقابلتا من قبل .. وانكرت ((ديب)) أن تكون هذه الفتاة هى نفس شارلوت التى لاقتها منذ عامين . وكان هذا الاطراء سببا فى ان اوت الفتاة الى قمرتها وهى قريرة سعيدة .. على انها لم تكد تغلق الباب خلفها ، حتى سمعت طرقات خافتة ، فخفق قلبها .. وقفزت الى ذهنها المواقف التى تخللتها طرقات خافتة ، فيما قرأت من قصص ، او ماشــاهدت من مسرحيات وافلام بيد انها وجدت



ان « ديب » هى الطارقة ، وقد جاءت تدعوها الى نزهة فىاليوم التالى . وحاولت ان تراوغ ، ولكن السيدة ناشـدتها قائلة :
« لا تخيبى رجاء ج . د . ، فانك قد أصبحت ملاك رحمة له ، لا سيما اذا علمت بؤس الحياة الزوجية التى قدرت له ، والتى اشعر بأننى مسئولة عنها الى حد ما . اذ انهتعرف الى ايزابيل فى دارى ! .. لقد جعلت ايزابيل حياته جحيما ، من جراءغيرتها التى لا مبرر لها ، وكراهيتها لجميع اصدقائه القدامى ، ومنهم زوجى ،ومطالبها المرهقة .. لقد كان مهندسا ناشئا ، فلم تر فى دخله المتواضع ما يفى بمطامعها ، واضطرته الىان يتخلى عن عمله الى التجارة ! »

* * *

• **وكان** دورانس يعتزم مغادرة الباخرة فى (نابولى) ، بينما كانت خطة « شارلوت » ان تظل عليها الى (الاسكندرية) .. ودعاها الى نزهة فى سيارة فى بعض ضواحى (نابولى) قبل ان يفترقا . ولكن السيارة انقلبت فوق قمة احد التلال ، وقدر للاثنين ان ينجوا بمعجزة ! .. ودهمهما الليل وهما فى البقعة المقفرة التى وقـع فيها الحـادث . وزاد من وطأة الموقف ان هطلت الامطار . ولم تكترث شارلوت اذ فاتها موعد الباخرة ، فقد كانت خطورة الموقف تشغل كل بالها . وسوىلها دورانس مكانا فى داخل السيارة المهشمة ، لتتقى فيه الامطار والعاصفة. ولكنها اصيبت برجفة شديدة ، فراح الرجل يبذل كل حيلة لتدفئتها . وأخيرا ، قدم لها زجاجة خمر كان يحملها ، ولفها بمعطفه ،كما لف قدميها بسترته .والى هنا كان شعوره نحوها سلبيا ، وكذلك كان شعورها نحوه ! .. **وغشيتهـا سنة من النعاس ، لم تلبث ان انتبهت منها وهى تشعر بدفء وارتياح . وفطنت الى انها كانت فى أحضان دورانس ، الذى استغرق فى النعاس ! .. ولم تحاول ان تتخلص من بين ذراعيه ، بل طاب**

لها الدفء ، فأسندت رأسها الى صدره ، وعادت تستسلم للنعاس .وعندماقدر لها ان تستيقظ ، استيقظت على ذراعيه وهما تضمانها فى قوة . واسلمت شفتيها اليه !

وقالت عندما عادت الى نفسها : « لست أدرى ما الذى قد تظنه بى ، بعد الذى جرى .. لعل ذلك الشراب هو السبب ! » .. وقال دورانس : « اما انا ، فما من عذر لدى .. لا سيما واننى متزوج !» .. فتمتمت تسرى عنه : « لاتعبأ بما جرى ، وثق انك أفدتنى ، فقد أكد لى الدكتور جاكت مرة ، أن للغزل نفعا كبيرا فى شفاء آلام حياتى ومنغصاتها ! »

وعلمت شارلوت أن بوسعها ان تستقل سفينة أخرى ، بعد اسبوع ، لتلحق بسفينتها السابقة فى (الاسكندرية) . فقد كان على هذه ان تنتظر فى الميناء المصرى ، ريثما يقوم ركابها بجولة بين معالم مصر الأثرية ! .. ودعا دورانس الفتاة الى ان تقضى يومين فى بلدة هادئة . ونزلا فى غرفتين منفصلتين فى فندق البلدة ، ولكن هذا لم يحل دون أن يلتقيا فى الشرفة التى كانت تربط بين الحجرتين ، عندما عز عليهما الرقاد .. وهتف دورانس : « لكم اتوق الى الاطمئنان الى ان ثمة سعادة كهذه نستطيع ان نستأنفها فى مكان آخر ، اذا ما حرمنا منها هنا ! .. ومع ذلك ، فأنا أخشى أن يحرقك لهيبها ! » . فقالت : «لاتخشى شيئا .. فأنا فى مناعة من السعادة ! »

وضغطت أصابعه على راحتها ، وهو يقول : « لقد فتنت بك منذ أول لقاء جمعنا . ولو لم أكن مقيدا بزواجى ، لكافحت كى أثبت لك انك لست فى مناعة من السعادة » . وطوقها بذراعيه ، فدفنت وجهها فى صدره وهى تبكى .. وسألها مشفقا عما كان يبكيها ، فتمتمت : « ان هى الا دموع الامتنان ، تذرفها عينا عانس أسعدها ما قدم اليها من فتات ! » . ولم تدر ما الذى دهاها بعد ذلك ، ولكنها أدركت انها استكانت لأحضانه .. واستسلمت !

ولحقت شارلوت بباخرتها فى الاسكندرية . وكانت رحلة العودة الى انجلترا ، من أسعد فترات حياتها ، فقد أحاطها — على الباخرة — جو من الود والاعجاب .

ووجدت « ليزا » وابنتها « جون » فى استقبالها فى الميناء ، حين ارتدت بها الباخرة الى الوطن .. ولم تعرفها الاثنتان فى البداية ، لفرط ما طرأ عليها من تغير ، ولكثرة من التفوا حولها من المعجبين يودعونها ، فقد عهدتاها منطوية على نفسها ، نفورا من الناس ! .. وقالت لها جون — ابنة أخيها — أثناء تناول الغداء فى مطعم فرنسى صغير : « لقد صغرت كثيرا أيتها العمة شارلوت ! » . فقالت مبتسمة : **« لقد أجرى لى جراح ذائع الصيت، جراحة فى نابولى !.. لكم هو ماهر ، حتى أن جراحته لا تترك أثرا على الجسم ! »** .

وشعرت « شارلوت » بانقباض ، وهى تقترب من (بوسطن)، بعد غيابها الطويل . ولم يكن شعورها منبعثا عن خشيتها من ان تعود الى تسلط أمها عليها ، وانما كان ناشئا عن ادراكها أن لا أصدقاء لها فى المدينة التى نشأت فيها ! .. وبهتت امها اذ رأت التطور الذى أصابها ، وراحت تعنف فى تأنيبها لما كانت تستخدمه من مساحيق وزينة ، وتسائلها عما قد يقوله الناس، ولكن شارلوت أقنعتها — فى حزم حاسم — بأنها لم تعد تكترث للنـــاس !

وما أن استقرت فى حجرتها ، حتى حملت اليها الخادم صندوقا ، حمل اسمها وعنوانها بخط « جيرى دورانس » . ووجدت فى الصندوق ثلاث زهرات يانعة من « الكاميليا » أكدت لها أنها لاتزال فى ذاكرته ، فاذا الشجاعة والاعتداد بالنفس يملآن نفسها !.. وفاجأتها أمها وهى ممسكة بالزهور ، فعادت تعنف معها ، ولكن « شارلوت » كانت قد اعتزمت أن تتحرز من كل ما يحول بينها وبين الاستمتاع بحياتها . وانتهت المشادة الى ان أصيبت الأم بنوبة قلبية هوت بعدها على الأرض . وجزعت

شارلوت ، ولكن الممرضة أسرعت الى اسعاف الأم ، وهى تهمس للفتاة تطمئنها الى أن الأمر لم يكن خطيرا !

وشعرت شارلوت بتحرر من ربقة أمها ـ التى لازمت الفراش ـ فى الحفلة التى اقامتها الأسرة ، فى تلك الليلة ، بمناسبة عودتها !

* * *

• دهشت الأم عندما استدعت شارلوت ـ فى الليلة ذاتها ـ وهددتها بأن تحرمها من الميراث ، اذا هى لم تنصع لتوجيهاتها ، فاذا الفتاة تجيب بأنها لا ترى بأسا من ان تعمل ـ ولو كخادم فى مصنع ـ فى سبيل الاحتفاظ باستقلالها ! .. وأتاح ملازمة الأم فراشها لشارلوت حرية واسعة للاستمتاع بحياتها .

وكانت قد أسلمت « ماك » خطابا كى ينقله الى « جيرى » ، فلما لم تتلق منه جوابا ، خيل اليها انه قد نسيها .. ولم يخطر لها ان « ماك » هو الذى نسى الخطاب ، فلم يسلمه الى « جيرى » الا بعد اثنى عشر شهرا .

وفى تلك الأثناء ، حام حولها شاب ارمل يدعى « اليوت ليفنجستون » ، ثم انتهى الى أن سألها أن تقبله زوجا .. وأحست بتردد ، فاتفقت معه على أن تظل الخطبة متكتمة ـ فترة من الوقت ـ ريثما يستقر رأيها . وراحت أمها تحبذ لها « اليوت » زوجا .. وعندما صارحت « ليزا » بأنها لم تكن تحب الشاب ، قالت لها ان الحب ليس سوى واحد من دوافع عدة للزواج .. وان رغبة المرأة فى ان يكون لها بيتها الخاص ، ورجلها الخاص ، وطفلها الخاص ، أقوى من الحب !

وأوشكت أن تلين ، لولا ان قابلت « جيرى » ـ على غير توقع ـ فى حفلة أقامتها أخت « اليوت » . وذهلت اذ وجدته شديد الهزال والشحوب ، بادى التكلف معها . على انه سألها

أن تسمح له بزيارتها فى نفس المساء ، لأنه كان مضطرا الى السفر فى الصباح التالى . وعلى أريكة فى دارها ، أحاطها « جيرى » بذراعه ، فلم تجد بدا من أن تنبئه بخطبتها الى « اليوت » ، فأسرع يعتدل فى جلسته مبتعدا عنها ، وسألها عما اذا كانت تحب اليوت ، فأجابته : « ليس كما يحب أحدنا الآخر ياجيرى ، ولكنى أتوق الى أن أنجب طفلا قبل فوات الأوان ! » ..
وأنبأها بأنه مضطر الى ان يعود الى زوجته التى استنفدت كل ثروتها ، وساءت صحتها ، كما ان ابنته « تينا » أصبحت مريضة بالخوف ، فلم تكن تنفك تخال انه قد يموت او يختفى من حياتها .

وصافحها كصديق يتمنى لها كل سعادة ، وهو يفارقها ، فراحت تشيعه بنظراتها حتى توارى عن بصرها ! .. على انها بعد هذا اللقاء ، لم تعد تقوى على محاولة فتح قلبها لاليوت ، بل راحت تزداد فى كل يوم شعورا بما بينهما من تناقض ، حتى انتهت الى ان صارحته بأنها لن تقوى على الزواج منه !

وفى ذلك اليوم — الذى فسخت فيه الخطبة — راحت تفكر فى أنها لم يعد لها أمل فى ان تنجب طفلها المنشود ، أو تحظى ببيتها الخاص ، أو رجلها الخاص .. بل لم يعد لها أمل فى ان يكون لها صديق ذو اثر فى حياتها .. وهتفت من أعماقها محسورة : « اواه يا جيرى ! .. اين انت ؟ .. لكم انا فى حاجة اليك ! » . ثم ارتمت على فراشها ، واطلقت لدمعها العنان !



وصعقت امها اذ علمت بفسخ الخطبة ، فراحت تؤنبها فى

قسوة جعلت الفتـاة تصيح فيهـا : « ليتنى لم أولد .. اننى لأدرك انك تكرهين مولدى .. كان مقدمى الى الدنيا نكبة لكل منا ! » . وأصيبت الأم بفالج من جراء الصدمة ، وان هى الا أيام ، حتى قضت نحبها . **وانسـحقت نفس شارلوت تحت وطأة تأنيب الضمير ، اذ وقر فى نفسها انهـا كانت السبب فى موت أمها . ومع انها تبينت – بعد اعلان وصية أمها – انهـا ظفرت بثروة طائلة ، الا انها لم تشعر بسعادة ما .. كانت كل أموال الدنيا ، لا تعـدل فى نظرها لقاء « جيرى » لتشـكو اليه همومها ووحدتها !** ..وما لبثت حالها هذه أن أرهقت أعصابها ، فبدأ مرضها القديم يعاودها ، حتى اضطرت الى السـفر الى نيويورك ، لتستشير الدكتور جاكيت فى الأمر .

وكان مجرد لقائهـا بالدكتور جاكيت كفيلا بأن يرد اليهـا ثقتها .. ووقف الرجل يرقب المعجزة التى ألمت بها ، ثم راح يؤكد لها بأن المرض لن يعاودها قط ، ومضى يمحو من نفسها ما داخلها من انها كانت سببا فى وفاة أمهـا .. وتحول قائلا : « تقولين انك لن تتزوجى ، ولن يكون لك بيت او طفـل او رجل ! .. اننى قد أقرك على عدم الزواج ، لأننى انا الآخر لم أتزوج ، ولكن فى وسعك ان تعـدى بأموالك بيتا يكون كعبـة القاصدين .. وفى استطاعتك ان ترضى غريزة الأمومة بطفل لم تنجبيه أنت .. أما الرجل، فتستطيعين ان تتخذى من الأصدقاء ما تشائين . ثم عليك ان توجهى نشاطك ومواهبك الى مايعود عليك – وعلى الغير – بالنفع .. اننى بمثل هـذه الخطـة لم افتقد السعادة ! »

وصارحتـه بحبها لرجل لا سـبيل الى الزواج منـه ، لأنه متزوج ، ومضت تقول : « ان غاية آمالى أن أصـاب بغيبوبة لا أفيق منها ، اذ أننى أخشى أن أحاول القضاء على حيـاتى ، فلا أجلب لنفسى سوى الآلام ، وأعيش معذبة ! » .. فقـال الطبيب : « اجل ، فالانتحار لا يعنى سوى القفز من المقـلاة ،

الى جوف النار ! » . ونصحها بأن تقضى بضعة أيام فى مصح « كاسكيد » ، حتى تهدأ أعصابها ، وتغير من أسلوب حياتها

* * *

• **ما ان** استقر بشارلوت المقام فى « كاسكيد » ، حتى عاودتها ثقتها بنفسها . وضمت مائدة العشاء فى المصح — فى مساء ذلك اليوم — ثمانية اشخاص ، راحت الفتاة تتأمل وجوههم ، واذا بعينين سوداوين براقتين تصادفانها .. وخفق قلبها ، فقد كانتا صورة مطابقة لعينى «جيرى» ، وقد استقرتا فى وجه فتاة صغيرة .. وراودها خاطر أخذ يؤكد لها ان هذه الصغيرة لم تكن سوى « تينا » ابنة « جيرى » . فما ان انفض العشاء ، حتى راحت تبحث عنها ، الى ان وجدتها وحيدة فى المكتبة ، وقد جلست شاردة الذهن . وأجفلت الصغيرة منها فى البداية ، ثم أنست اليها واطمأنت .. وسرعان ما تعلقت بشارلوت ، حين أتاحت لها هذه فرصة الاتصال تليفونيا بأبيها !

ووجد الدكتور جاكيت نفسه ازاء تجربة لا بأس بها .. كانت « تينا » ترتاح الى « شارلوت » ، ففى وسع هذه ان تعنى بها وأن تشغل بهذه العناية عن همومها .. وفعلا ، لم تلبث « تينا » ان وثقت فى « شارلوت » فحدثتها عن تعلقها بأبيها ، وعن ان امها وشقيقتيها كن سر بلواها ، اذ حلن بينها وبين الرسم — بزعم انه يشغلها عن دروسها — واصررن فى النهاية على ارسالها الى المصح ! .. ودهش الدكتور جاكيت للتحسن الذى طرأ على مريضتيه خلال اسبوعين ، لعلاقتهما المتبادلة ، فلم يلبث أن حمل شارلوت على أن تصطحب « تينا » فى رحلة طويلة الى كندا .. ولم تكن الصغيرة تضيق بشىء بقدر ما كانت تضيق بأن تنادى راعيتها باسم «مس شارلوت» . كانت تود أن تدعوها « أماه » ، فقد كان كل الناس يظنونهما أما وابنتها ، ولكن شارلوت قنعت من الصغيرة باسم «كاميليا» !

وساعد الطبيب الفتاة على ان تحتفظ بتينا لتقيم معها فترة فى دارها ـ فى بوسطن ـ حين عادت اليها . وما لبث ان استأذنها « جيرى » يوما فى ان يزور ابنته الحبيبة ، فخفق قلبها اذ انتبه فجأة الى شعور كان قد تملكه ، دون ان يفطن .. كانت شارلوت تشعر بأن ابنة جيرى ابنتها ، وانها رباط يصل بين قلبها وقلب الرجل الذى أحبته ، دون ما أمل

وقضى الأب مع ابنته يوما كاملا ، تعمدت « شارلوت » أن تكون خلاله بمنأى عنهما ، فلم تلتق بهما الا حول مائدة العشاء. وما ان أوت « تينا » الى فراشها ، حتى خلت شارلوت الى جيرى ، قبل أن يرحل ، وقال الرجل : « لقد آن لتينا أن تعود الى الاسرة ! » . ووجف قلب شارلوت ، وهتف : **« ان الدكتور جاكيت يعارض فى هذا الآن .. لقد كنت أعتزم أن أيسر لها دراسة الرسم فى الخريف ، وأن اصطحبها فى رحلة الى أوربا »**

ـ ولكنا فى ضائقة ، ولست أرضى ان نأخذ منك دون عطاء !

ـ ألا ترى أن « الأخذ » يعنى « العطاء » ، اذا ما ربط الود بين قلبين ؟ .. انك بهذا الأخذ تعطينى تينا ، وهى أثمن شىء !

ـ لكنك تضحين بنفسك من اجلها ، فأنت شابة ، مرغوبة ، وستكون الصغيرة قيدا ، أو عقبة فى طريقك .. اننى أوقن من اننى السبب فى فسخ خطبتك ، وها هى ذى ابنتى تثقل حريتك ، فلا تدع لك مجال الاتصال بمن يناسبونك سنا .. فقد تصادفين رجلا يروق لك .. ويسعدك !

ـ رجل يسعدنى ؟ ! .. كنت أحاول أن أقنع نفسى أن اشتراكنا العاطفى قد وحد بيننا ، وانك تفهمنى .. من المؤسف أن لا تكون لديك أضأل فكرة عن مشاعر المرأة .. هذه المرأة ، أنا ، على الأقل ! .. انك لا تستطيع ان تفهم ما يعنيه للمرأة كل عذاب تعانيه لأنها تحب رجلا حيل بينها وبينه ، فلا سبيل الى ان تتحد حياتهما .. لماذا تريد أن تحرمنى من بارقة الأمل الوحيدة ؟ .. من الفرصة التى تربط حياتك بحياتى ، برباط

شريف ، فيتاح لى أن أراك وأن أتبادل معك حديثا بريئا ، فى ظلال عنايتنا المشتركة بالطفلة !

واشتد بها الانفعال ، وذكت ثورة عواطفها ، فاندفعت تقول: **« عندما رغبت تينا فى البقاء معى ، أحسست بأن معجزة حدثت .. أحسست بأنك قد أنجبت منى طفلة .. منحتنى طفلة .. وأطلقت لخيالى العنان ، أتمثلها على انها ابنتنا ! »**

وسادهما الصمت ، ثم مالبث وجهه ان تألق ، وهتف :« الآن تأكدت من أنك لا تزالين تحفلين بى .. كنت أخال ان اهتمامك بتينا صادر عن الشفقة ، فكان ذلك يؤذينى .. ولكنى تأكدت الآن انك عين القطة البرية التى احببتها .. وما زلت اعبدها ! » .

وهمت بالابتعاد ، فشد على معصمها قائلا : **« لن يفنى هذا الذى بيننا ، مهما نقاومه ، ومهما نتجاهله ، ومهما نجيعه بالحرمان »!**

.. وأدركت ان عزيمتها ستتلاشى لو انها تركته يقبلها ، فتملصت

وظل برهة مشيحا عنها ، يحاول ان يستعيد سيطرته على عواطفه ، ثم التفت اليها وفى عينيه كل حب وتقدير ، وتمتم : « يا لك من امرأة رائعة ! » . وابتسمت مطمئنة الى انتصارها على انفعالاتها العاطفية ، وسألته أن يشعل لها سيجارة ، وهى تقول : « ماأجمل ان نشعل سيجارتينا بثقاب واحد ياجيرى ! .. وأجمل منه أن نشعر بأن هذه لن تكون المرة الوحيدة — لو انك عاونتنى على الصمود — فلا بد من ان نتشاور دائما من أجل طفلتك ! » . فصحح قولها ، وقد انفرجت اساريره : **« طفلتنا ! »**

وندت منها زفرة مثقلة ، وارتجف جسدها ، وكأنما مست كلمته عصبا حساسا من اعصابها ، وقالت — أخيرا — وهى تغالب نفسها لتسيطر على عواطفها الجياشة : **« أواه ياجيرى ! .. لا حاجة بنا الى ان نطمع فى القدر .. لنقنع بالنجوم ! »**


SEXUAL
BEHAVIOUR
BY
A.C. KINSEY
& OTHERS

حقائق علمية .. عن الشذوذ الجنسى

◆ عجب العالم بأسره ، حين طلعت الكنيسة الانجليزية عليه – فى خلال الشهر الماضى – بأغرب قرار كان يرتقب من هيئة دينية .. ذلك هو : اقرار العلاقات الجنسية التى تتم بين فردين من جنس واحد ، باعتبارها علاقات شخصية ، لا ينبغى للقوانين الوضعية أن تتدخل فى أمرها . وقد شاءت المصادفة ، أن تكون هذه العلاقات ، هى موضوع حلقة هذا الشهر من كتاب « السلوك الجنسى » ، الذى نقدمه لك تباعا ، والذى يعتبر أعظم بحث علمى من نوعه فى تاريخ البشرية .. فتعال نقرأ ما جمعه « كينزى » وزملاؤه من بيانات فى هذا الصدد ، وما استخلصوه من حقائق علمية تلقى أضواء أمام المهتمين بالشئون الاجتماعية

الخيانة الزوجية فى نظر المجتمع

• والأسباب التى يبنى عليها اى مجتمع تحريمه الخيانة الزوجية على المرأة ، اسباب تبدو منطقية له .. اذ انها تصور هذا النشاط الجنسى على انه تحد للعرف الاجتماعى ، وتهديد لحق الزوج فى مباشرة زوجته وفق هواه ، وبانتظام .. اذ ان اتصال الزوجة بغير زوجها ينطوى على مساس بكرامته وبحرمته وانسابه . كما انه قد يؤدى الى ان تهمل الزوجة واجباتها والتزاماتها المنزلية .. كما ان المصالح الاجتماعية تمس ولا شك اذا أدت الخيانة الى الحمل .

ومن المعتقد – بوجه عام – ان الخيانة الزوجية تؤدى الى عدم الوفاق بين الزوجين ، وبالتالى الى الطلاق والى ما يترتب على هذا من تبعات ومشكلات اجتماعية .

ومن ناحية اخرى ، هناك اجماع – فى كثير من الأحوال – على ان الجماع خارج نطاق الزوجية خطيئة خلقية وادبية ، كما انه – بفضل النتائج التى تترتب عليه – يؤدى الى امتهان حرمة الزوجية ، ومن ثم فهو خطيئة نحو الله ونحو المجتمع .

وهذه الاعتبارات جميعا تؤلف جزءا من الحجج التى

بررت بها المجتمعات المتباينة استنكارها للخيانة الزوجية من جانب المرأة . ولكن الجدال فى هذا الصدد ، لم يؤد الى تغير فى السلوك الجنسى يخالف ما هو جار فى جماعات الحيوانات الثديية التى تعتبر أدنى من الانسان ، والتى لم تؤت ما اوتيه من عقل يتحكم فى تصرفاته !

وعلى ضوء الاستعراض الذى اوردناه لهذا اللون من النشاط الجنسى فى الأوساط الحيوانية ، وفى تاريخ المجتمعات البشرية ، يمكن ادراك قيمة البيانات التى حصلنا عليها من العينات التى تولينا دراستها ..

ألوان النشاط الجنسى سواء

• وننتقل الآن الى لون آخر من ألوان النشاط الجنسى لدى المرأة ، وهو عشق الجنس ذاته ، أو الشذوذ الجنسى .. وهو الذى تقوم فيه صلات جنسية بين أنثى وأنثى أخرى . وهناك كلمة عربية يحسن استخدامها هنا ، وهى «السحاق» .

وليس من الممكن القول دائما بأن سلوك أى حيوان ، يجب ان يقوم على طبيعة المحفز أو المهيج الذى يصادفه هذا الحيوان، وعلى مالديه من طاقات تشريحية وطبيعية ، وعلى ما قد يكون لديه من خبرة وتجارب سابقة . **ومن ثم فليس ثمة فوارق تشريحية او طبيعية تميز أى لون من ألوان النشاط الجنسى عن غيره من الألوان ، من حيث الاستجابة الجنسية ، أو بلوغ ذروة اللذة . ومن ثم فان تسمية كل لون انما ترجع عادة الى المورد الذى ينبع منه الحافز على ممارسته** . ومن ثم فان الحديث عن « السحاق » لن يتناول حالات فردية ، وانما هو ينصب على وصف علاقة جنسية . وبتعبير أوضح ، ليس لدينا ما يدل على وجود عوامل تتعلق بالهرمونات ــ مثلا ــ تجعل اى امرىء ذا ميل خاص الى الاتصال بامرىء آخر من نفس جنسه ، وليس من الجنس الآخر ! .. وليس ثمة ما يدل على

وجود عوامل وراثية معينة يمكن ان يعزى اليها هذا الميل .

العوامل المؤثرة فى الاتجاه الجنسى

• **وبالتالى** ، نستطيع ان نقول ان من المناقض لكل مالدينا من بيانات حصلنا عليها من عيناتنا ـ سواء من الذكور او من الاناث ـ ان يقال ان لميل المرء فى الطفولة الى احد والديه دون الآخر ، او للأمراض العصبية ، او الاضطرابات النفسية ، أثرا ما على اتجاه الشخص الى عشق شخص آخر من جنسه !

انما الذى تدل عليه بياناتنا ، هو ان العوامل التى تؤدى الى عشق ذات الجنس هى :

١ ـ الطاقة البدنية الأولية التى لدى كل حيوان ثديى ، فى الميل الى الاستجابة لأى مثير كاف

٢ ـ الحادث الذى يفضى بفرد الى أول تجربة جنسية له ـ ذكرا كان او انثى ـ مع فرد من نفس جنسه

٣ ـ النتائج التى تترتب على تجربة كهذه ، وتكون ذات اثر فى توجيه النشاط الجنسى للفرد

٤ ـ التأثير المباشر ، او غير المباشر ، الذى يكون ذا مفعول قوى فى التوجيه الجنسى للفرد ، والذى ينبعث عن مدى اهتمامه بآراء الغير ، وبالقوانين الاجتماعية

الجنس بين العلم والفلسفة

• **والواقع** ان ما يشاع عن ان بعض الحيوانات الثديية ـ الاقل درجة من الانسان ـ تتجه او لا تتجه الى عشق الجنس ذاته ، ليس سوى تشويه لفكرة نشأت عن آراء فلسفية اجتهادية ، وليس عن مشاهدات علمية . كذلك نجد ان علماء الأحياء وعلماء النفس الذين قبلوا الرأى القائل بأن الوظيفة الوحيدة للجنس هى التناسل فحسب . **نجد ان العلماء الذين قبلوا هذه النظرية على علاتها ، انما تجاهلوا وجود نشاط**

جنسى لا يهدف الى التناسل فى شىء . وبناء على هذا التجاهل، أخذوا ميل الفرد الى فرد من الجنس الآخر ، على انه اتجاه غريزى ، ومن ثم فان كافة ألوان النشاط الجنسى الأخرى ، ليست ـ فى رأيهم ـ سوى ((انحرافات)) عن ((السلوك الطبيعى او العادى)) .. اى انها شذوذ .

ومثل هذا الرأى قد يستند الى مبررات خلقية او أدبية او اجتماعية ، ولكنه لا يستند الى مبررات علمية .. اذ ان العلم ينظر الى السلوك الجنسى كظاهرة مجردة من كافة الاعتبارات الأخرى ، اللهم الا التطورات البدنية الطبيعية التى تسيطر على النشاط الجنسى بوصفه نشاطا عضويا ، كنشاط اى عضو آخر من اعضاء الجسم واجهزته .

وقد يكون من الصحيح ان عدد العلاقات بين افراد وافراد آخرين من الجنس الآخر ، يفوق عدد ما بين افراد وآخرين من نفس جنسهم ، فى معظم فصائل الحيوانات الثديية . ولكن من العسير ـ علميا ـ ان نجزم بأن هذا يرجع الى ـ أو يتوقف على ـ « السلوك العادى » ، اى الاستجابة الى الجنس الآخر، او « السلوك الشاذ » ، أى الاستجابة الى نفس الجنس

الشذوذ الجنسى بين الحيوانات

. **والواقع** ان الاتصالات بين فردين من جنس واحد ، ظاهرة تحدث فى كل الفصائل الحيوانية الثديية . بل ان عشق الجنس ذاته ، قد يكون متفشيا فى بعض الأنواع ، وان لم يكن بنفس الكثرة التى يتفشى بها عشق الجنس الآخر

وترجع كثرة الاقبال على العلاقات الجنسية التى تضم فردين متباينى الجنس ، الى انها اكثر سهولة من تلك التى تضم فردين من جنس واحد ، لعدة عوامل ، منها :

١ ـ ان الانثى اكثر انصياعا ، فى حين ان الذكر اكثر اقداما وعدوانا . ويبدو ان هذا عامل رئيسى فى تحديد الدور الذى

يليق بكل من الجنسين ، القيام به فى العلاقات التى تجمع بينهما

٢ - تعادل روح الاقدام والعدوان لدى أى فردين من جنس واحد ، تجعل معظم الأفراد فى الجنس يأبون الانصياع والخضوع - بالدرجة التى تتطلبها العلاقة الجنسية - لفرد من نفس الجنس

٣ - سهولة التلاحم الجنسى بين الذكر والانثى ، عنها بين أى منهما وشريك آخر من جنسه . كما ان طبيعة الاتصال بينهما تجعل علاقتهما اكثر متعة لكل منهما منها فى الحالة الثانية .. فضلا عن وجود عوامل بدنية وانفعالات نفسية ، تجعل علاقة الفرد بشريك من الجنس الآخر ، أحب اليه منها مع شريك من عين جنسه

لايفيد من التجارب السابقة سوى الانسان

• **ولقد** تعرضت العلاقات الجنسية بين اثنين من الحيونات الثديية الأقل تقدما من الانسان - كالفيران البيضاء ، والجرذان ، والارانب ، والاغنام ، والخيل ، والخنازير ، والاسود ، والماشية ، والقرود - لمشاهدات ودراسات كثيرة ، ظهر منها ان هذه العلاقات لا تكون قط كاملة ، بمعنى انها لا تبلغ قط ذروة اللذة

وقد يبلغ انتشار العلاقات الجنسية بين الاناث بعضهن وبعض - فى الحيوانات الثديية الأقل مرتبة من الانسان - نفس المدى الذى يبلغه انتشار تلك العلاقات التى تقوم بين الذكور بعضهم وبعض . ولعل أهل الريف بالذات ، اقدر من سواهم على ان يلاحظوا ان اتصال بقرة بأخرى ليس من الظواهر المستغربة فى الريف الأمريكى

ومن المعتقدات الشائعة ان اناث الحيوانات الثديية - الأدنى من الانسان - لاتكون ذات استجابة جنسية الا فى المواسم التى اصطلح على انها مواسم تهيج عندها . ولكن الأمر ليس كذلك

بالضبط .. انما العامل الرئيسى فى الغالب ، هو مدى استعداد الأنثى منها للانصياع لأية محاولات من غيرها ، واستكانتها واستسلامها لتلك المحاولات

وفى كل الحالات ، لاتتوقف العلاقة على مدى ما لأى الحيوانين من تجربة سابقة ، فليس بين الحيوانات الثديية من يتأثر بتجاربه السابقة سوى الانسان

الانسان متأثر فى سلوكه بأصله الحيوانى

• **والخلاصة** التى نخرج بها من المشاهدات ـ بين الثدييات الأدنى من الانسان ـ هى ان الفرد منها اهل للاستجابة لأية اثارة جنسية ، مالم يكن مهيئا بما ولد فى نفسه نفورا شديدا منها .. وهذا ما يشاهد أيضا فى أبعد الجماعات الانسانية عن قيود المجتمعات المتنورة ، كالجماعات التى لاتزال تعيش على بداوة الفطرة . **كما انه يشاهد ايضا بين صغار الأطفال ، الذين لايتعرضون لقيود شديدة فى لعبهم ، أو لرقابة محكمة تصدهم عن العبث الجنسى ! .. وفى هذه الحال ، لا يستتب التفضيل أو الاتجاه فى السلوك الجنسى الى زميل من نفس الجنس ، او زميل من الجنس الآخر ، الا عن طريق التجربة !**

ولقد ظل علماء النفس والأطباء النفسيون طويلا ، وهم يحاولون ان يفسروا أصل ومنشأ العلاقة الجنسية بين فردين من جنس واحد . ولكن دراسة الاستجابات الجنسية ، وتأثر الانسان فى سلوكه بأصوله الحيوانية ، يلقى ضوءا كافيا على ذلك .

ولو اننا ألقينا نظرة على تاريخ الثقافات الانسانية ـ بعد أن استعرضنا العلاقات الجنسية بين اناث الحيوان ـ لوجدنا ان الثقافات الأوربية والأمريكية أكثر من سواها من الثقافات الانسانية تقبلا للعلاقات الجنسية بين فردين من جنس واحد . على ان وجود امثال هذه العلاقات ، شائع بين اكثر الجماعات

الانسانية بداوة . **بل انها تسود بوجه شامل ، بين اناث قبائل «الموهاف» ، وهى من قبائل الهنود الحمر ، فى الجنوب الغربى من امريكا الشمالية .. حتى لتعتبر العلاقات الجنسية بين الاناث بعضهن وبعض ، من العلاقات المشروعة لدى هذه القبائل !**

وقد يكون مرجع هذا ، الى قيمة الزواج كعامل لابد منه لقيام العلاقة بين الاناث والذكور هناك

علاقة السن بهذا النشاط

• **وتدل** البيانات التى أدلت بها « عيناتنا » على ان بعض الاناث منهن ، كن يشعرن باستجابة — ثبت انها شهوية — لغيرهن من الاناث ، وهن بعد فى الثالثة او الرابعة من اعمارهن . وتزداد نسبة هؤلاء الاناث بازدياد السن ، حتى تبلغ ٢٥ فى المائة ، لدى اللائى يبلغن الثلاثين من اعمارهن . على ان عدد اللائى بلغن ذروة اللذة ، فى هذه العلاقات ، خلال فترة المراهقة ، وبين البلوغ وسن العشرين ، لم يتجاوز ٢ او ٣ فى المائة . ثم تزداد النسبة بعد سن العشرين ، حتى تصل اقصاها — اى ١٠ فى المائة — عند سن الاربعين . وتعود الى الهبوط بعد ذلك ، حتى تصل الى حوالى ٤ فى المائة ، لدى اللائى يبقين بلا زواج الى ما بين الخامسة والاربعين والخمسين من اعمارهن

اما بين المتزوجات ، فان نسبة من يمارسن العلاقات الجنسية مع افراد من جنسهن ، ويبلغن ذروة اللذة ، لا تتجاوز الواحد فى المائة الا تجاوزا طفيفا ، فى جميع فئات السن

ومن ناحية اخرى ، نجد ان النسبة ترتفع بين من سبق لهن الزواج ، كالمطلقات والمترملات ، حتى تصل الى حوالى ٦ فى المائة بين من تتراوح اعمارهن بين السادسة عشرة والخامسة والثلاثين ، ثم تهبط بعد ذلك ، حتى تصل الى واحد فى المائة بعد الخمسين .

التعلم والتدين لا يردعان !

• وهناك علاقة ملموسة بين هذا اللون من النشاط الجنسى ومستوى التعلم لدى الانثى ، فان نسبة الاقبال عليه تزداد بارتقاء مستوى التعلم . على اننا لانكاد نرى علاقة بينه وبين المستوى الاجتماعى الذى نشأت فيه الأنثى . كما وجدنا من البيانات التى حصلنا عليها ، ان نسبة الاقبال تكاد تكون واحدة فى أربعة أجيال متعاقبة .

وما ثبت عن علاقة الاقبال على هذا النشاط الجنسى بمستوى التعلم ، يمكن ان يقال ايضا عن علاقته بدرجة التدين . وهناك شك ضئيل فى ان القيود الخلقيـة والأدبية ـ لا سيما بين أولئك اللائى كن اكثر من سواهن مواظبة على اداء العبادات ـ كانت حائلادون اقبال الاناث على هذا اللون من العلاقات بنسبة اكبر او اقل من اقبالهن على العلاقات بالذكور .

وفى الشهر القادم،نواصل مع((كينزى)) وزملائه هـذا البحث الخطير ، لنتعرف الآثار الاجتماعيـة والقانونية لهذا اللون من الوان النشاط الجنسى . ثم ننتقل معهم الى المقارنة التى استخلصوها بين السلوك الجنسى للذكور والاناث

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها حلمى مراد

"لقد رويت الحقيقة، فإذا الآن ثمة من يعرف أموراً تناقض ما فرغت من روايته - ولو تسنى تعزيزها بألف دليل - فإن ما يعرفه هو الزور والافتراء. وإذا أحجم عن التحرى والبحث معى عن حقيقتها، أثناء مقامى فى دنيا الأحياء، فهو لا يحب عدالة ولا حقيقة"

بهذه العبارات الواضحة القوية، يختتم هذا العمل الأدبى الذى ظلت اللغة العربية - دون جميع اللغات - محرومة منه، طيلة قرنين كاملين:

اعترافات

چان چاك روسّو

فلا تفوت على نفسك اقتناء هذا الكنز الأدبى الخالد، واطلب ما فاتك من أجزائه من إدارة "كتابى" (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) قبل نفادها

إنه خير كنز تعده لأسرتك وأولادك



